ج. م. كوتسي

ترجمة عبد المقصود عبد الكريم



طفولة المسيح

طفولة المسيح

تأليف

ج. م. كوتسي

ترجمة

عبد المقصود عبد الكريم



طفولة المسيح

ج. م. كوتسي

The Childhood of Jesus

John Maxwell Coetzee

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٥٨٥ ١

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ٢٠١٣.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠١٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

١

يشير له الرجل عند البوابة باتجاه مبنًى منخفضٍ ومُترامي الأطراف على مسافةٍ متوسِّطة. ويقول: «إذا أسرَعْتُما، يمكنكما تسجيل أوراق الإقامة قبل أن يغلقوا أبوابَهُم اليوم.»

يسرعان. مكتوب على اليافطة: مركز نوفيلا لإعادة التوطين. إعادة التوطين.[١] ماذا تعني؟ كلمة لم يتعلمها.

المكتب واسع وخاوٍ. وحارٌّ أيضًا أحر حتى من الخارج. في الطرف البعيد منضدةٌ خشبية بعرض الغرفة، مقسَّمة بألواحٍ من الزجاج البلَّوري. بجوار الحائط مجموعة أدراجٍ للملفَّات من الخشب المطلي.

على أحد الأقسام يافطة معلقة: الوافدون الجدد،[٢] الكلمتان منسوختان بالأسود على مستطيلٍ من الورق المقوَّى. وبابتسامةٍ ترحِّب به الكاتبة الشابة من خلف المنضَدة.

يقول: «طاب يومك. نحن وافدان جديدان.» يلفظ الكلمات ببطء، بإسبانيةٍ عمل جاهدًا على إتقانها. «أبحث عن وظيفة، وأيضًا عن مكانٍ أعيش فيه.» يُمسِك بالولَد من تحت إبطَيه ويرفعُه بحيث يمكن أن تراه تمامًا. «معي طفل.»

تمُد الفتاة يدها لتأخذ يد الولد. وتقول: «أهلًا أيها الفتى! هل هو حفيدك؟»

– «ليس حفيدي، وليس ابني، لكنني مسئولٌ عنه.»

تقول وهي تحدِّق في أوراقها: «مكان تعيش فيه. لدينا هنا غرفةٌ خالية في المركز يمكنك استخدامها بينما تبحث عن مكانٍ أفضل. ليست فخمة، لكن ربما لا تمانع في ذلك.

---

[١] مركز نوفيلا لإعادة التوطين، وإعادة التوطين، بالإسبانية في الأصل.

[٢] الوافدون الجدد، بالإسبانية في الأصل.

وبالنسبة للوظيفة، لنبحث عن ذلك في الصباح. تبدو متعبًا، وأنا متأكدة من أنك تريد أن تستريح. هل أنت قادم من بعيد؟»

– «كنا في الطريق طول الأسبوع. نحن قادمان من بلستار، من المعسكر. هل تعرفين بلستار؟»

– «أجل، أعرف بلستار جيدًا. جئتُ أنا نفسي عَبْر بلستار. هل تعلَّمتَ الإسبانية هناك؟»

– «حضَرنا دروسًا لمدة ستة أسابيع يوميًّا.»

– «ستة أسابيع؟ أنت محظوظ. قضيتُ في بلستار ثلاثة أشهر. كدْتُ أهلِك من الضجَر. والشيء الوحيد الذي جعلَني أستمر دروس الإسبانية. بالمناسبة هل كانت مدرستك السنيورا بِنْيرا؟»

يتردَّد: «لا، كان مدرسنا رجلًا. هل لي أن أطرح موضوعًا آخر؟ ولدي.» يحدِّق في الطفل: «ليس بحالةٍ جيدة. من ناحية لأنه قَلِق، مرتبك وقَلِق، ولم يأكل طعامًا مناسبًا. وجد الطعام في المعسكر غريبًا، ولم يُعجِبه. هل هناك أي مكان يمكن أن نتناول فيه وجبةً مناسبة؟»

– «كم عمره؟»

– «خمسة أعوام. هذا هو العمر الذي قدِّر له.»

– «وتقول إنه ليس حفيدك.»

– «ليس حفيدي، وليس ابني. ولسنا أقارب. ها.» يُخرِج دفترَين من جيبه ويعرضهما عليها.

تفحص الدفترين: «صدرا في بلستار؟»

– «أجل. هناك أعطَونا اسمَينا، اسمَينا الإسبانيَّين.»

تميل على المنضدة، وتقول: «ديفيد، يا له من اسمٍ لطيف! هل تحب اسمك أيها الفتى؟»

ينظر الولد إليها بهدوء ولا يرد. ماذا ترى؟ طفلًا نحيلًا شاحب الوجه يرتدي معطفًا من الصوف مزرَّرًا حتى العنق، وشورتًا رماديًّا يغطي ركبتَيه، وبوتًا برباطٍ أسودَ على جورب من الصوف، وقبعةً مائلةً من القماش.

– «ألا تشعر بحرٍّ شديد في هذه الملابس؟ هل ترغب في خلع معطفك؟»

يهز الولد رأسه.

يتدخل: «الملابس من بلستار. اختارها بنفسه، مما عرضوه عليه. وارتبط بها تمامًا.»

– «أفهم. سألتُه لأنه يبدو أنه يرتدي ملابسَ ثقيلةً بالنسبة ليومٍ مثل هذا. دعني أذكُر: لدينا هنا في المركز مستودع به ملابس أطفالٍ يتبرع بها الناس بعد أن يكبر عليها أطفالهم.

إنه مفتوحٌ كل صباحٍ طوال أيام الأسبوع. مرحبًا بكما لاختيار ما يلزمكما. ستجدان أنواعًا أكثر مما في بلستار.»

– «شكرًا.»

– «وأيضًا، بمجرد أن تملأ النماذج الضرورية تستطيع سحب نقود بدفترك. لك أربعمائة ريالٍ معونة توطين. والولد أيضًا. أربعمائة ريالٍ لكلٍّ منكما.»

– «شكرًا.»

– «والآن لنَرَ غرفتكما.» تميل وتهمس للمرأة عند المنضدة الأخرى، مكتوب على المنضدة وظائف.[٣] تسحب المرأة درجًا، وتنقِّب فيه، وتهزُّ رأسها.

تقول الفتاة: «عقبةٌ بسيطة. يبدو أن مفتاح الغرفة ليس موجودًا. لا بدَّ أنه مع مشرفة المبنى. مشرفة المبنى اسمها السنيورا فايس. اذهب إلى المبنى سي. أرسم لك خريطة. حين تجد السنيورا فايس، اطلب منها مفتاح الغرفة سي ٥٥. وأخبرها أن آنا من المكتب الرئيسي أرسلَتْك.»

– «أليس من الأسهل أن تعطينا غرفةً أخرى؟»

– «لسوء الحظ سي ٥٥ الغرفة الوحيدة الخالية.»

– «والطعام؟»

– «الطعام؟»

– «أجل. هل هناك مكانٌ نستطيع أن نأكل فيه؟»

– «مرةً أخرى، تحدَّث مع السنيورا فايس. لا بُد أنها قادرةٌ على مساعدتك.»

– «شكرًا. سؤال أخير: هل هنا منظماتٌ متخصِّصة في لمِّ شمل الناس؟»

– «لمِّ شمل الناس؟»

– «أجل. لا بد أن هناك بالتأكيد الكثير من الناس يبحثون عن أفراد العائلة. هل هناك منظَّماتٌ تساعد على لمِّ شمل العائلات، العائلات والأصدقاء والأحباب؟»

– «لا، لم أسمع قَطُّ عن منظَّمة بهذا الشكل.»

من ناحية لأنه مُرهَق ومشوَّش، ومن ناحية لأن الخريطة التي رسمَتْها الفتاة له ليست واضحة، ومن ناحيةٍ لأنه لا تُوجد يافطات، يستغرق منه العثور على المبني سي ومكتب السنيورا فايس وقتًا طويلًا. الباب مغلق. يقرع. لا رد.

[٣] وظائف، بالإسبانية في الأصل.

يُوقِف إحدى العابرات، امرأة ضئيلة بوجهٍ مدبَّب يشبه وجه الفأر ترتدي الزي البني الداكن للمركز. يقول: «أبحث عن السنيورا فايس.»

تقول الشابة: «إنها في إجازة.» وحين ترى أنه لا يفهم: «إجازة ليوم. تعود في الصباح.»

– «ربما إذن يمكن أن تساعديني. نبحث عن مفتاح الغرفة سي ٥٥.»

تهز الشابة رأسها. «آسفة، لا أتعامل مع المفاتيح.»

يأخذان طريقهما عائدَين إلى مركز إعادة التوطين. الباب مغلَق. ينقر على الزجاج. لا يُوجَد في الداخل علامة من علامات الحياة. ينقر مرةً أخرى.

ينتحب الولد: «عطشان.»

يقول: «انتظرْ قليلًا. سأبحث عن حنفية.»

تظهر الفتاة آنا بجانب المبنى. تقول: «هل تقرع الباب؟» مرةً أخرى يُذهله شبابُها، الصحة والنضارة اللتان تشعَّان منها.

يقول: «يبدو أن السنيورا فايس عادت إلى البيت. أليس هناك ما يمكن أن تفعليه؟ أليس لديكم — ماذا تُسمُّونه؟ — مفتاح عمومي[٤] يفتح غرفتنا؟»

– «مفتاح رئيسي.[٥] ليس لدينا مفتاحٌ عمومي. لو كان لدينا مفتاحٌ عمومي لحُلَّت كلُّ مشاكلنا. لا، السنيورا فايس وحدها معها المفتاح الرئيسي للمبنى سي. ربما يكون لك صديق يمنحك مكانًا لليلة؟ ثم تعود في الصباح وتتحدث مع السنيورا فايس.»

– «صديق يمكن أن يمنحنا مكانًا؟ وصلنا إلى هذه الشواطئ قبل ستة أسابيع، وكنا نعيش من وقتها في خيمةٍ في معسكرٍ في الصحراء. كيف تتوقَّعين أن يكون لنا أصدقاء هنا يوفِّرون لنا مكانًا؟»

تعبس آنا. وتأمر: «اذهب إلى البوابة الخارجية. انتظرني خارج البوابة. سأرى ماذا يمكن أن أفعل.»

يمُرَّان من خلال البوابة، عَبْر الشارع، ويجلسان في ظل شجرة. يستقر رأس الولد على كتفه. يشكو: «عطشان. متى تجد حنفية؟»

يقول: «صه. أنصت للطيور.»

يُنصِتان إلى التغريد الغريب للطيور، ويشعُران بالرياح الغريبة على جِلد كلٍّ منهما.

---

[٤] بالإسبانية في الأصل، llave universal، ومن الواضح أنه لا يعثر على الكلمة الصحيحة.

[٥] بالإسبانية في الأصل، Llave maestra.

١

تظهر آنا. يقف ويلوِّح لها. ينهَض الولد أيضًا، وذراعاه متيبِّستان بجانبَيه، وإبهاماه مثبَّتان في قبضتَيه.

تقول: «أحضرْتُ بعض المياه لابنك. خذ، يا ديفيد، اشرب.»

يشرب الطفل، ويُعيد الكوبَ إليها. تضَعُه في حقيبتها. وتسأل: «هل ذلك طيب؟»

– «أجل.»

– «طيب. الآن اتبعاني. إنه مشوارٌ طويل، لكن يمكن اعتبارُه تمرينًا.»

تخطو برشاقة بطول المسار عَبْر المنتزه. لا يُنكِر أنها شابةٌ جذَّابة، رغم أن الملابس التي ترتديها لا تُناسِبها؛ جيبة داكنة بلا شكل، وبلوزة بيضاء ضيقة عند العنق، وحذاء بدون كعب.

ربما يستطيع بمفرده مسايرتها، لكن لا يمكن والطفل في ذراعَيه. ينادي: «من فضلك، لا تسرعي!» تتجاهلُه. على مسافةٍ تتزايد باستمرار يتبعها عَبْر المنتزه، عَبْر شارع، عَبْر شارعٍ آخر.

أمام منزلٍ ضيِّق، يبدو بسيطًا، تتوقَّف وتنتظر. تقول: «هذا مكاني.» تفتح الباب الرئيسي. «اتبعاني.»

تقودهما إلى دهليزٍ مُعتِم، من بابٍ خلفي، إلى سلالمَ خشبيةٍ متهالكة، إلى ساحةٍ ينمو فيها العشب والحشائش، محاطة بسياجٍ خشَبي من جانبَين، ومن الثالث بشبكةٍ من الأسلاك.

تقول، وهي تشير إلى كرسي من الحديد الزهر شبه مغطًّى بالعُشب: «تفضَّل بالجلوس. سآتي لكما بشيءٍ تأكلانه.»

ليست لديه رغبة في الجلوس. ينتظر هو والولد عند الباب.

تظهر الفتاة مرة أخرى وهي تحمل طبقًا وإبريقًا. في الإبريق ماء. وفي الطبق أربع شرائح من الخبز مفرود عليها سمن. إنه بالضبط ما تناولاه في الفطور في المؤسسة الخيرية.

تقول: «بوصفك وافدًا جديدًا من الضروري قانونيًّا أن تقيم في مسكنٍ معتمد، أو في المركز. لكن من المناسب أن تقضيَ ليلتكَ الأولى هنا. حيث إنني أعمل في المركز، يمكن إثباتُ أن بيتي يُعتبَر مسكنًا معتمدًا.»

يقول: «هذا عطفٌ حقيقي منك، كرمٌ حقيقي.»

تشير: «هناك بعض بقايا موادِّ البناء في الركن. يمكن أن تصنع لنفسك سقيفةً إن أحبَبْت. يجب أترككَ على راحتِك؟»

يحدِّق فيها، في حَيرة. يقول: «لستُ متأكدًا من أنني أفهم. أين نقضي الليلة بالضبط؟»

تُشير إلى الساحة: «هنا. سوف أعود بعد برهة لأرى كيف تتقدم.»

مواد البناء المعنيَّة نصف دستة من ألواح الحديد المجلفن، صدئة في أماكن سقفٍ قديم، بدو شك وبقايا متنوعة من الخشب. هل هذا اختبار؟ هل تعني حقًّا أن ينام هو والطفل في العراء؟ ينتظر عودتها الموعودة، لكنها لا تأتي. يجرب الباب الخلفي. يقرع؛ لا رد.

ماذا يجري؟ هل هي خلف الستائر، تُراقِب لترى كيف يتفاعل؟

إنهما ليسا سجينَين! من السهل أن يتسلَّقا السياج السلكَ ويهرُبا. هل هذا ما ينبغي أن يفعلاه؛ أم أن عليه أن ينتظر ويرى ما يحدث بعد ذلك؟

ينتظر. وحين تظهر مرةً أخرى يكون وقتُ غروب الشمس.

تقول عابسة: «لم تفعل الكثير. خذ.» تعطيه زجاجة ماء، وفوطة يد، ولفة من ورق التواليت، وحين ينظر إليها مستفهمًا: «لن يراك أحد.»

يقول: «غيَّرْتُ رأيي. سنرجع إلى المركز. لا بُد أنه تُوجَد غرفة عامة يمكن أن نقضي فيها الليل.»

– «لا يمكن أن تفعل ذلك. البوابات عند المركز مغلَقة. تُغلَق في السادسة.»

بسخط يسرع الخُطى إلى كومة التسقيف، ويسحب لوحَين، يُميلهما بزاوية على السياج الخشبي. ويفعل الشيء نفسه مع اللوحَين الثالث والرابع، صانعًا امتدادًا بشغًا للمبنى. يقول ملتفتًا إليها: «هل هذا هو ما في ذهنكِ لنا؟» لكنها ذهبَت.

يقول للولد: «ننام هنا الليلة. ستكون مغامرة.»

يقول الولد: «أنا جائع.»

– «لم تأكل خبزك.»

– «لا أحب الخبز.»

– «حسنًا، لا بُدَّ أن تعتاد عليه. غدًا نجد شيئًا أفضل.»

بعدم ثقة يلتقط الولد شريحةً من الخبز ويقضمُها. يلاحظ أن أظافره سوداءُ من القذارة.

وآخر ضوء من النهار يتلاشى، يستقرَّان في سقيفتهما، هو على سريرٍ من الأعشاب، والولد على انحناءة ذراعه. ينام الولد بسرعة، وإبهامُه في فمه. في حالته يأتي النوم ببطء. ليس معه مِعطَف؛ في برهة يبدأ البردُ الزحف في جسده؛ يبدأ الارتجاف.

يقول لنفسه: ليس خطيرًا، مجرد برد، لن يقتلك. ستمُر الليلة، وتُشرِق الشمس، ويأتي النهار. فقط إن لم تكن هناك حشراتٌ زاحفة. لن أحتمل الحشراتِ الزاحفة.

ينام.

يستيقظ في ساعة مبكرة، متخشبًا ومتألمًا من البرد. يتفاقم غضبه. لماذا هذا البؤس العبثي؟ يزحف خارج السقيفة، يلتمس طريقه إلى الباب الخلفي، ويقرع، في البداية بهدوء، ثم بصوتٍ أعلى وأعلى.

تُفتح نافذة بالدور العلوي؛ على نور القمر يستطيع بصعوبة رؤية وجه الفتاة. تقول: «أجل؟ هل هناك خطأ؟»

يقول: «كل شيء خطأ. الجو باردٌ هنا. هل تسمحين من فضلك لنا بدخول المنزل؟»

وقفة طويلة. ثم تقول: «انتظر.»

ينتظر. ثم يأتي صوتها: «خُذ.»

يسقط شيءٌ عند قدمَيه؛ بطانية، ليست كبيرةً جدًّا، مطبَّقة أربعَ طبقات، مصنوعة من مادةٍ خشنة، تفوح منها رائحة الكافور.

يصرُخ: «لماذا تُعاملينَنا بهذا الشكل؟ مثل القذارة؟»

تغلق النافذة بعنف.

يزحف عائدًا إلى السقيفة، يلفُّ البطانية حول نفسه وحول الطفل النائم.

يوقظه صخب تغريد الطيور. يستلقي الولد، وما زال نائمًا بعمق، بعيدًا عنه، وقبَّعتُه تحت خدِّه. ملابسه مبلَّلة من الندى. ينعس مرةً أخرى. حين يفتح عينَيه بعد ذلك يجد الفتاة تحدِّق فيه. تقول: «صباح الخير. أحضرتُ لكما فطورًا. لا بدَّ أن أنصرف بسرعة. حين تستعدَّان أسمح لكما بالخروج.»

– «تسمحين لنا بالخروج؟»

– «أسمح لكما بالخروج عَبْر المنزل. بسرعة من فضلك. لا تنسَ إحضار البطانية والفوطة.»

يوقظ الطفل. يقول: «هيا، حان وقت الاستيقاظ. إنه وقتُ الفطور.»

يتبوَّلان جنبًا إلى جنب في ركن الساحة.

يتضح أن الفطور مزيدٌ من الخبز والماء. يستاء الطفل منه؛ وهو نفسُه ليس جائعًا. يترك الصينية على الدَّرَج بدون أن تُمَس. يصيح: «نحن جاهزان للذهاب.»

تقودُهما الفتاة عَبْر المنزل إلى الشارع الخالي. تقول: «إلى اللقاء. يمكن أن تعودا الليلة إن كنتُما في حاجة إلى ذلك.»

– «ماذا عن الغرفة التي وعدْتِ بها في المركز؟»

– «إذا لم يُعثَرْ على المفتاح، أو كانت الغرفة قد شُغلَت في هذه الأثناء، يمكن أن تنام هنا مرةً أخرى. مع السلامة.»

– «دقيقة فقط. هل يمكن أن تساعدينا ببعض المال؟» حتى الآن لم يُضطَر للتسول، لكنه لا يعرف موضعًا آخرَ يلجأ إليه.

– «قلْتُ سأساعدكما، لم أقل إنني سأزوِّدكما بالمال. من أجل ذلك اذهب إلى مكاتب الخدمة الاجتماعية.[٦] يمكن أن تأخذ الباص إلى المدينة. وتأكَّد من أن تأخُذ دفترَكَ معك، وتُثبِت محل إقامتك. ثم يمكن أن تسحب بدل إعادة التوطين. وبدلًا من ذلك يمكنك الحصول على وظيفة وطلب سلفة. لن أكون في المركز هذا الصباح، لديَّ اجتماعات، لكن إذا ذهبْتَ إلى هناك وأخبرتَهم بأنك تبحث عن وظيفة وتريد استمارة،[٧] فسوف يعرفون ما تقصده. استمارة. الآن لا بد حقًّا أن أجري.»

يتضح أن المسار الذي يتتبَّعه هو والولد في المنتزه الخالي مسار خطأ؛ وحين يصل إلى المركز تكون الشمس مرتفعة في السماء. وراء منضدة الوظائف[٨] امرأة في منتصف العمر، بوجهٍ صارم، وشعرُها مسحوبٌ للخلف على أذنَيها ومربوطٌ بإحكام خلفهما.

يقول: «صباح الخير. سجلنا أمس. نحن وافدان جديدان، وأنا أبحث عن عمل. أفهم أنه يمكنك إعطائي استمارة.»

تقول المرأة: «استمارة عمل.[٩] أرني دفترك.»

يُعطيها دفتره. تفحصُه، وتُعيده إليه. «أكتب لك استمارة، لكن بالنسبة للعمل الذي تعملُه، فالأمر لك في تحديده.»

– «هل لديكِ اقتراحاتٌ بشأن أين ينبغي أن أبدأ؟ إنها مقاطعةٌ أجنبيةٌ بالنسبة لي.»

تقول المرأة: «جرِّب أحواض السفن. إنهم يبحثون عادةً عن عمَّال. اركب الباص رقم ٢٩. إنه يغادر من خارج البوابة الرئيسية كل نصف ساعة.»

– «ليس معي نقود للباصات. ليس معي أي نقود.»

---

[٦] الخدمة الاجتماعية Asistencia Social، بالإسبانية في الأصل.

[٧] استمارة un vale، بالإسبانية في الأصل.

[٨] العمل Trabajos، بالإسبانية في الأصل.

[٩] استمارة عمل Vale de trabajo، بالإسبانية في الأصل.

١

– «الباص مجَّاني. كل الباصات مجَّانية.»

– «ومكان للإقامة؟ هل يمكن أن أطرح سؤالًا عن مكانٍ للإقامة؟ السيدة الشابة التي كانت تقوم بالعمل أمس، اسمُها آنا، حجَزَت لنا غرفة، لكننا لم نتمكَّن من دخولها.»

– «لا تُوجَد غرفٌ خالية.»

– «أمسِ كانت هناك غرفةٌ خالية، الغرفة سي ٥٥، لكن المفتاح لم يكن في مكانه. كان المفتاح مع السنيورا فايس.»

– «لا أعرف شيئًا عن ذلك. ارجع بعد الظهر.»

– «ألا يمكن أن أتحدَّث إلى السنيورا فايس؟»

– «هناك اجتماعٌ لكبار الموظَّفين هذا الصباح. السنيورا فايس في الاجتماع. ستعود بعد الظهر.»

٢

في الباص رقم ٢٩ يفحص استمارة العمل التي أُعطيَت له. ليست إلا ورقةً مقطوعةً من دفتر، مكتوبًا عليها: «حاملها وافدٌ جديد. يُرجى النظر في توظيفه.» ليس عليها ختمٌ رسمي، أو توقيع، عليها فقط الحرفان الأولان من اسم بي إكس. تبدو غيرَ رسميةٍ تمامًا. هل تكفي ليحصُل على وظيفة؟

إنهما آخر راكبَيْن ينزلان. ونظرًا لاتساع أحواض السفن تمتد أرصفة الميناء على النهر على امتداد البصر. إنها مهجورةٌ بشكلٍ غريب. يبدو أن هناك نشاطًا على رصيف واحد؛ سفينة شحن يتم تحميلها أو تفريغها، ورجال يصعدون سُلَّمها ويهبطون.

يقترب من رجلٍ طويل يرتدي أفرولًا ويبدو أنه مُشرِف العمليات. يقول: «طاب يومك. أبحث عن عمل. قال الناس في مركز إعادة التوطين إنني ينبغي أن آتي إلى هنا. هل أنت الشخص المناسب للحديث معه؟ معي استمارة.»

يقول الرجل: «يمكن الحديث معي. لكن ألسْتَ عجوزًا بعض الشيء بالنسبة لعامل ميناء؟»[١]

عامل ميناء؟ لا بد أنه يبدو مرتبكًا؛ لأن الرجل (رئيس العُمَّال؟) يقلِّد التمايل وحمولة على ظهره مترنحًا تحت ثقلها.

يهتف: «آه، عامل ميناء! آسف، إسبانيتي ليست جيدة. لا، لست عجوزًا جدًّا إطلاقًا.»

هل صحيح، ما سمع نفسه ينطق به للتو؟ هل هو حقًّا ليس عجوزًا جدًّا بالنسبة لعملٍ ثقيل؟ لا يشعُر بأنه عجوز، بالضبط كما لا يشعُر بأنه شاب. لا يشعُر بأنه في عمرٍ معيَّن. يبدو بلا عمر، إذا كان ذلك ممكنًا.

---

[١] عامل ميناء estibador، بالإسبانية في الأصل.

يقترح: «جرِّبني. وإذا قررْتَ أنني لست مناسبًا، أنصرف على الفور، بدون أية ضغينة.»

يقول رئيس العمال: «حسنًا.» يكوِّر الاستمارة ويقذفها في المياه. «يمكن أن تبدأ فورًا. الصغير معك؟ يمكن أن ينتظر هنا معي، إن أحببْتَ. يبقى تحت عيني. وبالنسبة لإسبانيتك، لا تقلق، ثابرْ. ذات يوم لن تشعر بأنها لغة، سوف تصبح مثل كل الأشياء.»

يلتفت إلى الولد: «سوف تبقى مع هذا الجنتلمان بينما أساعد في حمل الحقائب؟»

يومئ الولد. ويضع إبهامه في فمه مرةً أخرى.

اللوح الخشبي يكفي لرجل واحد فقط. ينتظر بينما ينزل عامل من عمَّال الشحن والتفريغ، وهو يحمل جوالًا منتفخًا على ظهره. ثم يصعد إلى ظهر السفينة ويهبط على سُلمٍ خشبي متين إلى المخزن. يستغرق الأمر برهة لتتكيَّف عيناه على الضوء الخافت. المخزن مكتظٌّ بأكياسٍ منتفخةٍ متماثلة، مئات منها، ربما آلاف.

يسأل الرجل الذي بجواره: «ماذا في الأكياس؟»

ينظر إليه الرجل باستغراب. ويقول: «حبوب.»[٢]

يريد أن يسأل عن وزن الأجولة، لكن ليس هناك وقت. إنه دَورُه.

يجثم رفيق ضخم على قمة كومة بساعدَيه المفتولَين وابتسامةٍ عريضة، من الواضح أن وظيفته وضع جوال على كتفَي العامل الذي ينتظر في الصف. يُدير ظهره، ويهبط الجوال؛ يترنح، ثم يقبض على الأطراف كما يرى الرجال الآخرين يفعلون، ويخطو خطوةً أولى، وثانية. هل يستطيع بالفعل تسلُّق السُّلم وهو يحمل هذا الوزن الثقيل، كما يفعل الرجال الآخرون؟ هل لديه القدرة على ذلك؟

يقول صوت من خلفه: «اثبتْ، يا عجوز.[٣] خذ وقتك.»

يضع قدمه اليسرى على الدرجة السفلى من السلم. يقول لنفسه إنها مسألة توازن، الحفاظ على الثبات، عدم ترك الجوال ينزلق أو المحتويات تتحرك. بمجرد أن تبدأ الحركة أو الانزلاق، تضيع. تتحوَّل من عامل إلى مُتسوِّل يرتجف في سقيفة من الصفيح في فناءٍ خلفي لغريب.

يرفع قدمه اليمنى. يبدأ معرفة شيءٍ ما عن السلم: إذا أسندتَ صدرك عليه فإن وزن الجوال يحفظ توازنك، بدل أن يهدِّدك بفقدان التوازن. تجد قدمه الدرجة الثانية. تأتي

---

[٢] حبوب Granos، بالإسبانية في الأصل.

[٣] يا والدي، أو يا عجوز viejo، بالإسبانية في الأصل.

من أسفل موجةٌ خفيفة من الاستحسان. يَصِر على أسنانه. ثماني عشرةَ درجةً يصعدها (عدَّها). لن يفشَل.

ببطء، خطوة خطوة، مستريحًا في كل خطوة، مستمعًا إلى قلبه المتسارع (ماذا لو أصابته نوبةٌ قلبية؟ أي ارتباك سيكون!)، يصعد. في القمة يتمايل، ثم يندفع إلى الأمام بحيث يتدلى الجوال على سطح السفينة.

يقف مرةً أخرى، ويشير إلى الجوال. ويقول، محاولًا السيطرة على لهاثه، ومحاولًا أن يبدو عاديًّا: «هل يمكن أن يُعطيَني أحدٌ يده؟» ترفع الأيادي المتطوِّعة الجوال على ظهره.

تظهر صعوبات اللوح الخشبي؛ يهتز برفق من جانب إلى جانب والسفينة تتحرك، ولا يقدم أي دعمٍ مما قدَّمه السُّلم. يحاول بأقصى جهده الحافظ على انتصابه وهو يهبط، حتى لو كان ذلك يعني ألا يرى موضع قدمَيه. يركِّز عينَيه على الولَد، وكان يقف ساكنًا بجوار المشرف، ويلاحظ. لا تدَعْني أسبِّب له خزيًا! يقول لنفسه.

يصل إلى رصيف الميناء بدون تعثُّر. ينادي المشرف: «استَدِر إلى اليسار!!» يستدير بمشقة. هناك عربة مستعدة للتحميل، عربة منخفضة مسطَّحة بحصانَين ضخمَين بمفاصلَ قوية. بيرشيرون؟[٤] لم يرَ بيرشيرون في الواقع قط. رائحتُهما كريهة، تحيط به رائحة بول.

يستدير ويترك جوال الحبوب يسقط في قاع العربة. يثب شابٌّ يلبس قبعةً مهترئةً بخفَّة مبتعدًا ويسحب الجوال إلى الأمام. يسقُط أحد الحصانَين كميةً من روث يتصاعد منه بخار. ينادي صوتٌ من خلفه: «ابتعد عن الطريق!» إنه العامل التالي، رفيق العمل التالي، مع الجوال.

يعود أدراجه إلى المخزن، يرجع بحمولة ثانية، ثم ثالثة. إنه أبطأ من رِفاقه (عليهم انتظاره أحيانًا)، لكنه ليس أبطأ بكثير؛ سوف يتحسَّن حين يعتاد على العمل ويقوى جسدُه. ليس عجوزًا جدًّا رغم ذلك.

ورغم أنه يجعلهم أبطأ، لا يشعر بأي عداء من الرجال الآخرين. على العكس، يقدِّمون له كلمةً مرحة أو اثنتَين، ويصفعونه على ظهره بوُد. إذا كان هذا هو تفريغ السفن وتحميلها، فإنها ليست وظيفةً سيئة. ينجز شيئًا على الأقل. يساعد على الأقل في نقل الحبوب، حبوب تتحول إلى خبز، دعامة الحياة.

[٤] سلالة من الجياد القوية، رمادية أو سوداء، موطنها الأصلي فرنسا.

تنطلق صفَّارة. يوضِّح له رجل بجانبه: «وقت الراحة. إذا كنت تريد أن تعرف.»

يتبوَّل الاثنان خلف سقيفة، ويغسلان أيديَهما من صنبور. يسأل: «هل هناك مكان يمكن أن يتناول فيه كوبًا من الشاي؟ وربما يجد شيئًا يأكله؟»

يقول الرجل: «شاي؟» ويبدو مندهشًا. «لا أعرف شيئًا عنه. إن كنتَ عطشان يمكنك استخدام كوبي؛ لكن أحضِرْ كوبك غدًا.» يملأ كوبه من الصنبور، ويقدِّمه له. «أحضِرْ رغيفًا أيضًا، أو نصف رغيف. إنه يومٌ طويل على معدةٍ خاوية.»

تستمر الراحة عَشْر دقائقَ فقط، ثم يستأنف التفريغ. حين يطلق المُشرِف صافرتَه مؤذنًا بانتهاء اليوم، كان قد حمل واحدًا وثلاثين جوالًا من المخزن إلى رصيف الميناء. في يومٍ كامل ربما يستطيع حمل خمسين. خمسين جوالًا يوميًّا: طنَّين تقريبًا. ليس قَدْرًا كبيرًا. يمكن لرافعة نقل طنَّين مرةً واحدة. لماذا لا يستخدمون رافعة؟

يقول المشرف: «ابنك فتًى طيب. لم يُثِر أية مشاكل.» يدعوه بدون شك فتًى،[٥] ليجعلَه يشعُر بإحساسٍ طيب. فتًى طيب سوف يكبر ليكون عاملَ شحنٍ وتفريغٍ أيضًا.

يقول: «إذا أحضرتَ رافعة، يمكنك الانتهاء من تفريغ الحمولة في عُشر الوقت. حتى لو كانت رافعةً صغيرة.»

يوافق المشرفُ: «يمكنك. لكن ما الهدف؟ ما الهدف من إنجاز العمل في عُشر الوقت؟ ألا تبدو وكأنها حالة طوارئ؟ نقص في الغذاء على سبيل المثال.»

ما الهدف؟ يبدو سؤالًا حقيقيًّا، وليس صفعةً على الوجه. يقترح: «لنستطيع تكريس طاقاتنا لمهمةٍ أفضل.»

– «أفضل من ماذا؟ أفضل من إمداد رفيقنا الإنسان بالخبز؟»

يهزُّ كتفَيه. ينبغي أن يُبقِيَ فمه مغلقًا. من المؤكد أنه لن يقول: أفضل من أن نجُر حمولاتٍ ثقيلةً مثل البغال.

يقول: «نحتاج إلى نسرع أنا والولد. لا بُد أن نعود إلى المركز في السادسة، وإلا اضطُرِرْنا للنوم في العراء. هل أعود صباح الغد؟»

– «بالطبع، بالطبع. لقد أحسنْتَ.»

– «هل يمكن أن أحصل على مقدَّم من أجرتي؟»

---

[٥] بالإسبانية في الأصل un jovencito.

– «أخشى أنه لا يمكن. لا يأتي المسئول عن دفع الأجور حتى الجمعة. لكن إن كنتَ بحاجة إلى مال» ينقِّب في جيبه ويُخرج حَفْنة عملاتٍ معدنية «ها، خذ ما تحتاج إليه.»

– «لسْتُ متأكدًا مما أحتاج إليه. أنا جديدٌ هنا، وليست لديَّ فكرة عن الأسعار.»

– «خذها كلها. يمكن أن تعيدها إليَّ يوم الجمعة.»

– «شكرًا. إنه عطف شديد منك.»

– بالتأكيد. يرعى فتاك وأنت تعمل ثم يختم هذا كله بإقراضك المال. لا يتوقَّع هذا من مشرف.

يقول، ملتفتًا إلى الولد: «لا شيء. كنت ستفعل الشيء نفسه. إلى اللقاء أيها الفتى. أراك متألقًا ومبكرًا في الصباح.»

يصلان إلى المكتب بالضبط والمرأة ذات الوجه الصارم تغلق. ولم تكن هناك أية علامة على وجود آنا.

يسأل: «أية أخبار عن غرفتنا؟ هل وجدْتِ المفتاح؟»

تعبس المرأة. «اتبع الطريق، خذ المنعطف الأول يمينًا، وابحث عن مبنًى طويلٍ مسطَّح، يُسمَّى المبنى سي. اسأل عن السنيورا فايس. وسوف تريك غرفتك. واسأل السنيورا فايس إن كان يمكنك استخدامُ غرفة الغسيل لغسل ملابسكما.»

يفهم التلميح ويحمرُّ خجلًا. بعد أسبوع بدون حمام بدأت الرائحة تفوح من الولد؛ ولا شك أن رائحته أسوأ.

يريها نقوده. «هل يمكن أن تُخبريني عن قيمة هذا المبلغ؟»

– «ألا تعرف العَد؟»

– «أعني، ماذا يمكن أن أشتري به؟ هل يمكن أن أشتري وجبة؟»

– «المركز لا يقدِّم وجبات، الفطور فقط. لكن تحدَّثْ مع السنيورا فايس. وضِّحْ لها موقفَك. قد تستطيع مساعدتك.»

سي ٤١، مكتب السنيورا فايس، مقفول ومغلق كما كان من قبلُ. لكن في البدروم، في ركن تحت السُّلم مُضاء بلمبةٍ واحدةٍ عارية، يصادف شابًّا يسترخي في كرسي ويقرأ مجلة. بالإضافة إلى زي المركز باللون البني الداكن يرتدي الشاب قبعةً مستديرةً صغيرة بطوق تحت الذقن، مثل قبَّعة قردٍ يؤدي دورًا.

يقول: «مساء الخير. أبحث عن السنيورا فايس المراوغة. هل لديك فكرة عن مكانها؟ خُصِّصتْ لنا غرفة في هذا المبنى، والمفتاح معها، أو المفتاح الرئيسي على الأقل.»

ينهض الشاب، يسلِّك حنجرته، ويرُد. ردُّه مؤدَّب لكنه ليس مفيدًا في النهاية. إذا كان مكتب السنيورا فايس مغلقًا فمن المحتمل أنها عادت إلى بيتها. وبالنسبة للمفتاح الرئيسي، إذا وجد أي مفتاح فهو في المكتب المغلَق نفسه. والأمر نفسه بالنسبة لمفتاح غرفة الغسيل.

يسأل: «هل يمكن على الأقل أن توجِّهنا إلى الغرفة سي ٥٥. سي ٥٥ هي الغرفة المخصَّصة لنا.»

بدون كلمة يقودهما الشاب إلى دهليزٍ طويل عَبْر سي ٤٩، سي ٥٠ ... سي ٥٤. يصلون إلى سي ٥٥. يُحاوِل فتح الباب. ليس مغلقًا. يلاحظ بابتسامة وينسحب: «انتهت مشاكلكما.»

سي ٥٥ غرفةٌ صغيرةٌ بدون نوافذ، مفروشة بشكلٍ بسيطٍ جدًّا؛ سرير لشخصٍ واحد، خزانة أدراج، وحوض غسيل. على خزانة الأدراج صينيةٌ عليها صحن فنجان فيه مكعَّبان ونصف من السكَّر. يعطي السكَّر للولد.

يسأل الولدُ: «هل علينا البقاء هنا؟»

– «أجل، علينا البقاء هنا. لوقتٍ قصيرٍ فقط. بينما نبحث عن شيءٍ أفضل.»

في الطرف البعيد من الدهليز يكتشف مقصورة استحمام. ليس هناك صابون. يخلع ملابس الطفل، ويخلع ملابسه. معًا يقفان تحت تيارٍ رفيع من الماء الفاتر وهو يفعل أقصى ما يمكن لينظِّف نفسه والطفل. ثم، والطفل ينتظر، يُمسِك بملابسهما الداخلية تحت التيار نفسه (الذي يتحول بسرعة إلى منعش ثم بارد) ويدعكُها. عاريًا تمامًا، والطفل بجانبه، يقطع الدهليز العاري عائدًا إلى غرفتهما ويغلق الباب. بفوطتهما الوحيدة يجفِّف الطفل. ويقول: «اذهب الآن إلى السرير.»

يشكو الولدُ: «جائع.»

– «اصبرْ. سنحصل على وجبة فطورٍ كبيرةٍ في الصباح. أعدُك. فكِّرْ في ذلك.» يدُسُّه في السرير، ويقبِّله قبلة قبل النوم.

لكن الولد لا ينعَس. يسأل بهدوء: «لماذا نحن هنا يا سيمون؟»[٦]

– «قلتُ لك سنمكُث هنا ليلةً أو اثنتَين، حتى نجد مكانًا أفضلَ نقيم فيه.»

– «لا، أقصد لماذا نحن هنا؟» يشمل تلميحه الغرفة، والمركز، ومدينة نوفيلا، وكل شيء.

[٦] السؤال بالصيغة التي يطرحها الطفل يمكن فهمه على أنه سؤال عن المدة أو عن السبب.

٢

– «أنت هنا لتجد أمك. وأنا هنا لأساعدك.»

– «لكن بعد أن نجدها، لماذا نحن هنا؟»

– «لا أعرف ما أقوله. نحن هنا للسبب نفسه الذي يُوجَد من أجله كل شخصٍ آخر. مُنِحنا فرصةً لنعيش وقَبِلنا هذه الفرصة. شيءٌ عظيم أن نعيش. أعظم شيءٍ على الإطلاق.»

– «لكن لماذا ينبغي أن نعيش هنا؟»

– «هنا مقابل أين؟ ليس هناك مكانٌ آخرُ غير هنا. الآن أغلق عينَيك. حان وقتُ النوم.»

٣

يستيقظ بمزاجٍ طيب، مفعمًا بالطاقة. لديهما مكانٌ للإقامة، ولديه وظيفة. حان وقت البدء في المهمة الأساسية؛ العثور على أم الولد.

تاركًا الولد نائمًا، ويتسلَّل من الغرفة. كان المكتب الرئيسي قد فُتِح للتو. آنا، وراء المنضدة، تحيِّيه بابتسامة. تسأل: «هل قضيتَ ليلةً طيبة؟ هل استقرَّ بك المقام؟»

– «شكرًا، استقرَّ بنا المقام. لكن الآن أسأل عن خدمةٍ أخرى. قد تتذكَّرين، سألْتُك عن تتبُّع أفراد العائلة. أريد العثُور على أم ديفيد. المشكلة أنني لا أعرف من أين أبدأ. هل تحتفظون بسجلات للوافدين إلى نوفيلا؟ وإذا كنتم لا تحتفظون، فهل هناك مكتبُ تسجيلٍ مركزي يمكن أن أستشيره؟»

– «نحتفظ بسجلٍّ لكلِّ مَن يمُر من خلال المركز. لكن السجلات لن تساعدك إن لم تكن تعرف ما تبحث عنه. سيكون لأم ديفيد اسمٌ جديد. حياةٌ جديدة، اسمٌ جديد. هل تتوقَّع مجيئك؟»

– «لم تسمع بي قط وبالتالي ليس لديها سبب يجعلُها تتوقَّع مجيئي. لكن بمجرد أن يراها الطفل سوف يتعرَّف عليها، أنا متأكِّد من ذلك.»

– «منذ متى انفصَلا؟»

– «إنها قصةٌ معقَّدة، لن أُثقِل عليك بها. لأقُل ببساطة إنني وعدْتُ ديفيد بأن أعثُر على أمه. أعطيتُه كلمتي. وبالتالي هل يمكن أن أُلقيَ نظرةً على سجلَّاتكم؟»

– «كيف يساعدك ذلك بدون اسم؟»

– «تحتفظون بنُسَخ من الدفاتر. سوف يتعرَّف عليها الولد من الصورة. أو أنا. سوف أعرفها حين أراها.»

– «لم تقابلها قط لكنك سوف تتعرف عليها؟»

– «أجل. منفصلين أو معًا، هو وأنا سوف نتعرَّف عليها. أنا واثق من ذلك.»

– «وماذا عن هذه الأم المجهولة الاسم نفسها. هل أنت متأكد من أنها ترغب في لمِّ الشمل مع ابنها مرةً أخرى؟ قد أبدو قاسية حين أقول ذلك، لكن معظم الناس، حين يصلون إلى هنا، يفقدون الاهتمام بالارتباطات القديمة.»

– «هذه الحالة مختلفة بالتأكيد. لا يمكن أن أشرح السبب. الآن: هل يمكن أن أُلقيَ نظرة على السجلات؟»

تهز رأسها. «لا، لا يمكن أن أسمح بذلك. لو كان معك اسم الأم لاختلف الأمر. لكن لا يمكن أن أسمح لك بالبحث في ملفاتنا بناء على رغبتك. ليس فقط ضد اللوائح، إنه عبثي. لدينا آلاف المداخل، آلاف الآلاف، أكثر من أن تحصيها. وبالإضافة إلى ذلك، كيف تعرف أنها مرَّت من خلال مركز نوفيلا؟ في كل مدينةٍ مركزُ استقبال.»

– «أعترف، لا معنى له. ومع ذلك، أتوسل إليك. الطفل بدون أم. إنه ضائع. لا بد أنك رأيْتِ كم هو ضائع. إنه في الليمبو.»

– «في الليمبو.[1] لا أعرف ماذا تقصد. الردُّ لا. لن أستسلم، فلا تضغط عليَّ. إنني متأسفة من أجل الولد. لكن ليست هذه هي الطريقة الصحيحة لتمضي قُدمًا.»

يخيِّم صمتٌ طويلٌ بينهما.

يقول: «أستطيع أن أفعل ذلك في وقتٍ متأخرٍ من الليل. لن يعرف أحد. سأكون هادئًا، سأكون حذرًا.»

لكنها لا تنتبه إليه. تقول ناظرةً من فوق كتفه: «أهلًا! هل نهضْتَ للتو؟»

يلتفت. في المدخل يقف الولد، أشعثَ، حافي القدمَين، في ملابسه الداخلية، وإبهامه في فمه، وما زال شبه نائم.

يقول: «تعالَ! قل أهلًا لآنا. آنا ستُساعِدنا في بحثنا.»

يسير الولد ببطء بينهما.

تقول آنا: «سأساعدك، لكن ليس بالطريقة التي تطلبها. ينسى الناسُ هنا ارتباطاتهم القديمة. ينبغي أن تفعل مثلَهم؛ انسَ الروابط القديمة، لا تتبعْها.» تمُد يدَها، تنكشُ شعر الولد. وتقول: «أهلًا، أيها الرأس النعسان! ألم تنسَ بعدُ؟ اطلب من والدك أن يُنسِيَك.»

[1] التعبير يعني أنه في حالة إهمال أو نسيان؛ أو في حالةٍ ملتبسة، لا يدرى ما سوف يحدث له ومتى.

ينظر الولَد إليها ثم يعيد الكرَّة. يُهمهِم: «نسيت.»

تقول آنا: «ها. ألم أقل لك؟»

إنهما في الباص، في الطريق إلى أحواض السفن. الطفل، بعد فطور حقيقي، أكثر بهجةً من الأمس بالتأكيد.

يقول: «هل نذهب لرؤية ألفارو مرةً أخرى. ألفارو يحبُّني. يتركُني أصفِّر بصفَّارته.»

– «رائع. هل قال إنك يمكن أن تُناديَه بألفارو؟»

– «أجل، هذا اسمه. ألفارو أفوكادو.»

– «ألفارو أفوكادو؟ حسنًا، يتذكَّر، ألفارو رجلٌ مشغول. لديه الكثير من الأشياء بجانب الاهتمام بالطفل. ينبغي أن تحرص على ألا تُعطِّلَه.»

يقول الولد: «إنه ليس مشغولًا. يقف فقط وينظر.»

– «قد يبدو لك أنه مثل الوقوف والنظر، لكنه في الحقيقة يُشرِف علينا، يرى أن السفن تفرغ في الوقت المناسب، يرى أن كل شخصٍ يفعل ما يفترض أن يفعله. إنها وظيفةٌ مهمة.»

– «يقول إنه سوف يعلِّمني الشطرنج.»

– «رائع. سوف تُحب الشطرنج.»

– «هل سأكون مع ألفارو دائمًا؟»

– «لا، سوف تجد بسرعة أولادًا آخرين لتلعبَ معهم.»

– «لا أريد أن ألعب مع أولادٍ آخرين. أريد أن أكون معكَ ومع ألفارو.»

– «لكن ليس طول الوقت. ليس جيدًا بالنسبة لك أن تكون مع الكِبار طول الوقت.»

– «لا أريد أن تسقط في البحر. لا أريد أن تغرق.»

– «لا تقلق، سأحرص حرصًا شديدًا على ألا أغرق، أَعِدُك. يمكن أن تُبعِد عن ذهنك مثل هذه الأفكار السوداء. يمكن أن تتركَها تطيرُ بعيدًا مثل الطيور. هل ستفعل ذلك؟»

لا يردُّ الولَد. يقول: «متى نعود؟»

– «نعودُ عَبْر البحر؟ لن نعود. نحن هنا الآن. هنا نعيش.»

– «إلى الأبد؟»

– «إلى الأبد. سرعان ما نبدأ البحث عن أمك. بمجرد العثور على أمك، لن تنتابك أية أفكار عن العَودة.»

– «هل أمي هنا؟»

– «إنها في مكانٍ ما قريب، تنتظرك. تنتظرك وقتًا طويلًا. وسوف ينقشع كل شيءٍ بمجرد أن تضع عينَيك عليها. سوف تتذكَّرها وسوف تتذكَّرك. ربما تظنُّ أنك نسيت، لكنكَ لم تنسَ. ما زالت لديك ذكريات، لكنها مدفونة فقط، مؤقتًا. الآن لا بُد أن ننزل. هذه محطَّتُنا.»

صادق الولد أحد الأحصنة التي تجُر العربات، وسماه الملك.[٢] ورغم ضآلته مقارنة بالملك، فإنه لا يخشاه تمامًا. واقفًا على أطراف أصابعه، يقدم حَفْنة من القش، يميل الحصان الضخم بكسلٍ ليقبلَها.

يقطع ألفارو ثقبًا في أحد الأجولة التي تم نقلُها، مما يسمح للحبوب بالتسرُّب. يقول للولد: «ها، أطعِم الملكَ وصديقَه. لكن احرص على ألا تُطعمَهما كثيرًا، وإلا انفجر بطناهما مثل البالونات ويكون علينا ثَقبُها بدبُّوس.»

الملك وصديقه فرَسَتان في الحقيقة، لكنه يلاحظ أن ألفارو لا يصحِّح للولد.

رفاقه العمَّال ودودون جدًّا لكنهم غير فضوليين بشكلٍ غريب. لا يسأل أحدهم من أين يأتيان أو أين يقيمان. يخمِّنون أنه والد الولد — أو ربما، مثل آنا في المركز، جده. العجوز.[٣] لا أحد يسأل أين أم الولد أو لماذا يقضي النهار كله يتسكَّع حول أحواض السُّفن.

هناك سقيفةٌ خشبيةٌ صغيرة على الرصيف يستخدمها الرجالُ غرفةَ ملابس. رغم أن الباب بدون قفل، يبدون سعداء لأنهم يخزنون أفرولاتهم وبوتاتهم فيها. يسأل أحد الرجال أين يمكن أن يشتري أفرولًا له. يكتب الرجل عنوانًا على قصاصة من الورق.

يسأل: «بكم يمكن للمرء أن يشتري بوتًا؟»

يقول الرجل: «بريالين، وربما ثلاثة.»

يقول: «يبدو مبلغًا ضئيلًا جدًّا. بالمناسبة، اسمي سيمون.»

يقول الرجل: «يوجينيو.»

– «هل لي أن أسأل يا يوجينيو، هل أنت متزوِّج؟ هل لديك أطفال؟»

يهزُّ يوجينيو رأسه.

يقول: «حسنًا، ما زلت صغيرًا.»

يقول يوجينيو، بشكلٍ ملتبس: «أجل.»

[٢] الاسم بالإسبانية في الأصل El Rey.

[٣] بالإسبانية في الأصل El viejo.

ينتظر أن يُسأَل عن الولد — الولد الذي قد يبدو ابنه أو حفيده لكنه في الحقيقة ليس كذلك. ينتظر أن يُسأَل عن اسم الولد، عن عمره، لماذا ليس في مدرسة. ينتظر عبثًا.

يقول: «ديفيد، الطفل الذي أرعاه، ما زال أصغر من أن يذهب إلى المدرسة. هل تعرف أي شيء عن المدارس هنا؟ هل هناك؟» — يصطاد المصطلح — «روضة أطفال؟»[٤]

– «تقصد ملعبًا؟»

– «لا، مدرسة للأطفال الصغار. مدرسة قبل المدرسة الحقيقية.»

ينهض يوجينيو: «آسف، لا أستطيع مساعدتك. حان وقتُ العودة إلى العمل.»

في اليوم التالي، والصفَّارة تنطلق معلنةً راحة الغداء، يأتي غريبٌ على دراجة. بقبَّعته، وبدلةٍ سوداءَ وربطةِ عنقٍ يُطِل من مكانٍ على رصيف الميناء. ينزل من فوق الدرَّاجة. يُحيِّي ألفارو بألفة. ثَنْيَتا بنطلونه مشبوكتان بكلبسي الدراجة،[٥] يهمل إزالتَهُما.

يقول صوت من خلفه. يوجينيو: «إنه الصراف.»

يفكُّ الصرَّاف أحزمةً من على حمالة دراجته ويزيل مشمعًا، يكشف صندوقًا معدنيًّا مطليًّا باللون الأخضر، يضعه على أسطوانةٍ مقلوبة. يشير ألفارو إلى الرجال. يتقدمون واحدًا واحدًا، يقولون أسماءهم، ويعطون أجورهم.

ينضم إلى نهاية الصف، ينتظر دَورَه. يقول للصرَّاف: «الاسم سيمون. أنا جديد، قد لا أكون في قائمتك بعدُ.»

يقول الصرَّاف: «أجل، أنت هنا.» يعُد النقود في عملاتٍ معدنية، كثيرة تُثقِل جيوبه.

يقول: «شكرًا.»

– «على الرَّحب والسَّعة. إنه حقُّك.»

يُدحرِج ألفارو الأسطوانة بعيدًا. يربط الصرَّاف الصندوق مرةً أخرى في درَّاجته، يُصافِح ألفارو، ويلبَس قبَّعَته، وينطلق بدرَّاجته على الرصيف.

يسأل ألفارو: «ما خططُك بعد الظهر؟»

– «ليست لديَّ خطَط. قد آخُذ الولد في نزهة؛ أو إن كانت هناك حديقة حيوان، قد آخُذه إلى هناك، ليرى الحيوانات.»

إنه ظهر السبت، نهاية أسبوع العمل.

---

[٤] بالإسبانية في الأصل un jardin para los niños.

[٥] كلبسات الدراجة: قطع معدنية على شكل حرف سي تُلبَس على الكاحل عند ركوب الدراجة ببنطلون.

يسأل ألفارو: «هل تُحب أن تأتي وتشاهد كرة القدم؟ هل الشاب يُحب كرة القدم؟»

– «ما زال صغيرًا على كرة القدم.»

– «عليه أن يبدأ في وقتٍ ما. تبدأ المباراة في الثالثة. قابِلْني عند البوابة، لنقُل في الثانية وخمس وأربعين دقيقة.»

– «حسنًا، لكن أية بوابة، وأين؟»

– «بوابة ملعب كرة القدم. هناك بوابةٌ واحدةٌ فقط.»

– «وأين ملعب كرة القدم؟»

– «اتبع الممَر بطول النهر ولن تُخطِئه. على بعد عشرين دقيقةً من هنا، على ما أظن. وإذا كنتَ لا تُحب المشي يمكنك ركوب الباص رقم ٧.»

ملعبُ كرة القدم أبعدُ مما قال ألفارو؛ يشعر الولد بالتعب ويتباطأ؛ يصلان متأخرَين. ألفارو عند البوابة، ينتظرهما. يقول: «أَسرِعا، سوف يبدأ اللعب في أية لحظة.»

يمرون عَبْر البوابة إلى الملعب.

يسأل: «ألا نحتاج إلى شراء تذاكر؟»

ينظر إليه ألفارو باستغراب. يقول: «إنها كرة قدم. إنها مباراة. لا تحتاج إلى أن تدفع لتشاهد مباراة.»

الملعب أكثر تواضعًا مما توقَّع. أرض الملعب محدَّدة بحبل؛ المدرَّج المغطَّى يضم ألف مشاهد على الأكثر. يجدون مقاعد بلا صعوبة. اللاعبون في أرض الملعب، يركلون الكرة، يسخِّنون.

يسأل: «من يلعب؟»

– «دوكلندز بالأزرق، ونورث هيلز بالأحمر. مباراة في الدوري. تُلعب مباريات البطولة صباح الأحد. وإذا سمعْتَ الصفَّارات تنطلق صباح يوم أحد، فهذا يعني أن هناك مباراة بطولة تُلعب.»

– «أيَّ فريقٍ تشجِّع؟»

– «دوكلندز بالطبع. من غيره؟»

يبدو ألفارو في حالةٍ مزاجيةٍ طيبة، مستثارًا، وحتى متحمسًا. إنه سعيدٌ بذلك، ممتنٌّ أيضًا لاختياره لصحبته. يُذهِله ألفارو بطيبته. في الحقيقة، كل رفاقه من عمَّال الشحن والتفريغ يُذهِلونه بطيبتهم. إنهم جادُّون في العمل، وودودون، ومُعِينون.

٣

في الدقيقة الأولى من المباراة، يرتكب الفريق الذي يلعب بالأحمر خطأً دفاعيًّا بسيطًا ويسجِّل دوكلندز. يرفع ألفارو ذراعَيه ويصرخ صرخة انتصار، ثم يلتفت إلى الولد: «هل رأيتَ ذلك، أيها الرفيق الصغير؟ هل رأيت؟»

الرفيق الصغير لم يرَ. يجهل كرة القدم، الرفيق الصغير لا يدرك أن عليه الانتباه للرجال الذين يَجْرون إلى الخلف والأمام في الملعب بدل الانتباه إلى بحر الغرباء حولهم.

يحمل الولد في حجره. يقول وهو يشير: «انظر، يُحاوِلون ركل الكرة في الشبكة. والرجل الذي يقف هناك ويلبس قفازًا، هو حارس المرمى. عليه أن يُمسِك الكرة. هناك حارس مرمًى في كل طرف. حين يركلون الكرة في الشبكة، يُسمَّى هدفًا. الفريق الذي يرتدي الأزرق أحرز هدفًا للتو.

يومئ الولد، لكن يبدو أن ذهنه في مكانٍ آخر.

يخفض صوتَه. هل تريد أن تذهب إلى التواليت؟»

يردُّ الولد همسًا: «أنا جائع.»

– «أعرف. أنا أيضًا جائع. لا بد فقط أن نعتاد على ذلك. سوف أرى إن كان يمكن الحصول على بعض شرائح البطاطس بين الشوطَين، أو بعض الفول السوداني. هل تحب الفول السوداني؟»

يومئ الولد. ويسأل: «متى يحين بين الشوطَين؟»

– «بسرعة. في البداية ينبغي على لاعبي كرة القدم أن يلعبوا أكثر، ويُحاوِلوا إحراز أهداف أكثر. شاهِد.»

٤

عائدَين إلى غرفتهما في ذلك المساء، يجد رسالةً قصيرةً مدفوعةً تحت الباب. من آنا: هل تحب أن تأتي أنت وديفيد في نزهة للوافدين الجُدُد؟ نلتقي ظهر غد، في المنتزه، بجوار النافورة أ.

يكونان عند النافورة في الظهر. الجو حارٌّ بالفعل — حتى الطيور تبدو خاملة. بعيدًا عن صخب السيارات يستقرَّان تحت شجرةٍ ممتدة الأغصان. بعد برهة تصل آنا، تحمل سلة. تقول: «آسفة، جَدَّ شيءٌ ما.»

يسأل: «كم منا تتوقعين؟»

– «لا أعرف. ربما نصف دستة. لننتظِر ونرَ.»

ينتظرون. لا أحد يأتي. تقول آنا في النهاية: «يبدو أن الأمر يقتصر علينا. هل نبدأ؟»

يتبيَّن أن السلة لا تحتوي على أكثر من باكو من الرقائق، وإناء به معجون فول غير مملح، وزجاجة ماء. لكن الطفل يلتهم نصيبه بدون شكوى.

تتثاءب آنا، تتمدَّد على العشب، وتُغلِق عينَيها.

يسألها: «ماذا كنتِ تقصدين في ذلك اليوم حين استخدمتِ كلمة النسيان؟ قلْتِ لديفيد ولي ينبغي أن ننسى الارتباطات القديمة.»

بكسلٍ تهزُّ رأسها. وتقول: «في وقتٍ آخر. ليس الآن.»

في نبرتها، في النظرة التي ترمقُه بها بنصف عينَيها، يشعُر بدعوة. نصف دستة الضيوف الذين لم يصلوا — هل كانوا مجرد خيال؟ لو لم يكن الطفل هنا لاستلقى على العشب بجوارها وربما يُريح يده بخفة على يدها.

تُهمهِم، كما لو كانت تقرأ أفكاره: «لا.» يعبُر شبح عبوس جبينها: «ليس ذلك.»

ليس ذلك. ماذا يفعل لهذه الشابة المتقلِّبة المزاج؟ هل هناك شيءٌ ما في إتيكيت الجنسَين أو الجيلَين في هذه الأرض الجديدة يفشل في فهمه؟

يشده الولد ويشير إلى باكو الرقائق الفارغ تقريبًا. يفرد معجونًا على رقاقة ويعطيها له.

تقول الفتاة بدون أن تفتح عينيها: «شهيَّته مفتوحة.»

– «إنه جائعٌ طول الوقت.»

– «لا تقلق، سوف يتأقلم. يتأقلم الأطفال بسرعة.»

– «يتأقلم على الجوع؟ لماذا يتأقلم على الجوع حين لا يكون هناك نقصٌ في الطعام؟»

– «أقصد يتأقلم على نظامٍ غذائيٍّ معتدل. الجوع مثل كلبٍ في بطنك؛ كلما أطعمتَه أكثر، يحتاج أكثر.» تجلس فجأةً، متوجِّهة إلى الطفل. وتقول: «أَسمع أنك تبحث عن أمك. هل تفتقد أمك؟»

يومئ الولد.

– «وما اسم أمك؟»

يرمقه الولد بنظرة استفهام.

يقول: «لا يعرفها بالاسم. كانت معه رسالة حين استقلَّ السفينة، لكنها ضاعت.»

يقول الولد: «انكسَرَت السلسلة.»

يوضِّح: «كانت الرسالة في جراب، وكان مُعلَّقًا حول عنقه في سلسلة. انكسَرَت السلسلة وضاعت الرسالة. تم البحث عنها على السفينة كلها. هكذا قابلْتُ ديفيد. لكن الرسالة لم يُعثَر عليها قط.»

يقول الولد: «سقطَت في البحر. وأكلَها السمَك.»

تعبس آنا. «إذا كنتَ لا تتذكَّر اسم أمك، فهل يمكن أن تخبرنا بشكلها؟ هل يمكن أن ترسم صورة لها؟»

يهز الولد رأسه.

– «هكذا تاهت أمك ولا تعرف مكانها لتبحث عنها.» تتوقَّف آنا لتفكِّر. «بم تشعر إذن إذا بدأ أبوك الروحي[١] يبحث لك عن أمٍّ أخرى، لتُحبَّك وتهتمَّ بك؟»

[١] بالإسبانية في الأصل padrino.

يسأل الولد: «ما معنى أبٍ روحي؟»

يقاطع: «تُدخِلينني في متاهات. لستُ والد ديفيد، ولستُ أباه الروحي. أنا ببساطةٍ أساعده على لمِّ شَملِه مع أمه.»

تتجاهل اللوم. تقول: «إذا وجدتَ لنفسك زوجة، يمكن أن تكون أمًّا له.»

ينفجر ضاحكًا. «أية امرأة يمكن أن تتزوَّج رجلًا مثلي، غريبًا لا يملك حتى ملابس غير التي يرتديها؟» ينتظر أن تعارضه الفتاة، لكنها لا تفعل. «بالإضافة إلى أنني حتى لو وجدْتُ زوجةً لنفسي، من يعرف أنها ترغب — تعرفين — في طفلٍ بالتبنِّي؟ أو أن صديقنا الصغير سوف يقبلها؟»

– «لا تعرف أبدًا. الأطفال يتأقلمون.»

– «كما تقولين باستمرار.» يتفاقم غضبه. ماذا تعرف هذه الشابة المغرورة عن الأطفال؟ وماذا يعطيها الحق في وعظه؟ ثم تتجمَّع فجأة عناصر الصورة معًا. الملابس غير اللائقة، والحدة المحيِّرة، والحديث عن الآباء الروحيين — يسأل: «هل أنت راهبة، يا آنا، بالمناسبة؟»

تبتسم: «ماذا يجعلك تقول ذلك؟»

– «هل أنتِ إحدى الراهبات اللائي تركن الدير خلفَهن ليعشن في العالم؟ لتقومي بمهامَّ لا يُريد أحد القيام بها — في السجون ودور الأيتام والمصحات العقلية؟ في مراكز استقبال اللاجئين؟»

– «ذلك مضحك. بالطبع لا. المركز ليس سجنًا. إنه مؤسسةٌ خيرية. إنه جزءٌ من الرعاية الاجتماعية.»

– «حتى لو كان كذلك، كيف تستطيع أيةٌ واحدة التعامل مع تيارٍ لا ينتهي من أناسٍ مثلنا، يائسين وجهلة ومحتاجين، بدون إيمان من نوعٍ ما يمنحُها القوَّة؟»

– «الإيمان؟ لا علاقة للإيمان بالأمر. الإيمان يعني الاعتقاد فيما تفعله حتى لو لم يكن يحمل ثمارًا واضحة. المركز ليس على هذا النحو. يصل أناسٌ يحتاجون مساعدة، ونساعدهم. نساعدهم وتتحسَّن حياتهم. لا شيء في هذا خفي. لا شيء منه يتطلب إيمانًا أعمى. نقوم بوظيفتنا، وكل شيءٍ يتم كما ينبغي. الأمر بسيط بهذا الشكل.»

– «لا شيء خفي؟»

– «لا شيء خفي. جئت إلى بلستار منذ أسبوعَين. في الأسبوع الماضي وجدنا لك وظيفةً في أحواض السفن. والآن تقوم بنزهة في المُنتزَه. ما الخفي في هذا؟ إنه تقدُّم، تقدُّم واضح. على أية حال، لنعُد إلى سؤالك، لا، لسْتُ راهبة.»

– «لماذا إذن الزهدُ الذي تعظين به؟ تطلبين منا كبح جوعنا، تجويع الكلب الذي في داخلنا. لماذا؟ ما الخطأ في الجوع؟ ما وظيفة شهيتنا إن لم تخبرنا بما نحتاج إليه؟ لو لم تكن لدينا شهية، ولا رغبات، كيف يمكن أن نعيش؟»

يبدو له سؤالًا جيدًا، سؤالًا خطيرًا، سؤالًا قد يزعج الراهبة الشابة الأفضل تعليمًا.

يأتي ردها بسهولة، بسهولةٍ شديدة وبصوتٍ منخفض جدًّا، وكأن من المفترض ألا يسمع الطفل، مما جعلَه يسيء فهمها لحظة: «وأين، في حالتك، تقودك رغباتك؟»

– «رغباتي الخاصة؟ هل يمكن أن أكون صريحًا؟»

– «يمكنك.»

– «بدون عدم احترام لك أو لضيافتك، تقودني إلى ما هو أكثر من الرقائق ومعجون الفول. تقودني — على سبيل المثال — إلى البفتيك والبطاطس الهروسة والمرَقة. وأنا متأكد من أن هذا الفتى» — يمُد يده ويُمسِك بذراع الولد — «يشعر بالإحساس نفسه. ألا تشعُر؟»

يومئ بقوة.

يواصل: «بفتيك يقطر بمرَقة لحمة. هل تعرفين أكثر ما يُثير دهشتي في هذه البلاد؟» تزحف نبرة استهتار إلى صوته؛ من الحكمة أن يتوقف، لكنه لا يتوقف. «إنها بلا دماء تمامًا. كل شخصٍ أقابله مهذَّب جدًّا، وعطوف جدًّا، وحسن النية جدًّا. لا أحد يشتم أو يغضب. لا أحد يسكر. لا أحد حتى يرفع صوته. تعيشون على نظامٍ غذائي من الخبز والماء ومعجون الفول وتزعمون أنكم ممتلئون. كيف يمكن أن يكون ذلك، من الناحية الإنسانية؟ هل تكذبون، حتى على أنفسكم؟»

تحدِّق الفتاة فيه صامتة، وهي تحتضن ركبتَيها، وتنتظر نهاية الخطبة.

– «نحن جائعان، هذا الطفل وأنا.» يسحب الولد إليه. «نحن جائعان طول الوقت. تقولين لي إن جوعنا شيءٌ غريبٌ جلبناه معنا، ولا ينتمي إلى هنا، ولا بد أن نقضي عليه بالإذعان. حين نُبيدَ جوعنا، كما تقولين، نكون قد برهنَّا على أننا يمكن أن نتأقلم، ويمكن بعد ذلك أن نكون سعداء إلى الأبد. لكنني لا أريد القضاء على كلب الجوع! أريد إطعامه! ألا تتفق معي؟» يهزُّ الولد. يختفي الولد تحت إبطه، وهو يبتسم ويومئ. «ألا تتفق معي، يا ولدي؟»

يخيِّم الصمت.

تقول آنا: «أنت غاضبٌ حقًّا.»

– «لستُ غاضبًا، إنني جائع! أخبريني: ما الخطأ في إشباع شهيةٍ عادية؟ لماذا ينبغي قهر دوافعنا وجوعنا ورغباتنا العادية؟»

– «هل أنت متأكد من أنك تريد الاستمرار بهذا الشكل أمام الطفل؟»

– «لا أخجل مما أقوله. ليس فيه ما ينبغي حمايةُ الطفل منه. إذا استطاع طفلٌ النوم في العراء على أرضٍ عارية، فمن المؤكد أنه يستطيع سماع حوارٍ عنيفٍ بين راشدَين.»

– «حسنًا جدًّا، سأردُّ عليك بعنف. ما تريده مني شيءٌ لا أفعله.»

يحدِّق مرتبكًا. «ماذا أريد منك؟»

– «أجل. تريد مني أن أسمح لك بعناقي. ونعرف كلانا ماذا يعني العناق. لا أسمح به.»

– «لم أقل شيئًا عن عناقك. وما الخطأ في العناق على أية حال إن لم تكوني راهبة؟»

– «رفض الرغبات لا علاقة له بأن أكون راهبة أو لا أكون. لا أفعل ذلك فقط. لا أسمح به. لا أحبه. ليست لديَّ شهية له. ليست لديَّ شهية له في ذاته ولا أتمنى أن أرى ما يفعله للبشر. ما يفعله للرجل.»

– «ماذا تقصدين، ماذا يفعل للرجل؟»

تحدِّق بحدَّة للطفل. «من المؤكد أنك تريد أن أواصل؟»

– «واصلي. معرفة الحياة لا تكون سابقةً لأوانها أبدًا.»

– «حسنًا جدًّا. تراني جذابة، يمكن أن أرى ذلك. وربما حتى تراني جميلة. ولأنك تراني جميلة، شهيتُك، دافعُك، أن تعانقني. هل أقرأ الإشارات بشكل صحيح، الإشارات التي تقدِّمها لي؟ بينما إن لم ترَني جميلة ما كنتَ لتشعر بهذه النبضة.»

يصمت.

– «كلما رأيتَني أجمل، تصبح شهيتُك أكثر إلحاحًا. هكذا تعمل هذه الشهية التي تعتبرها النجم الذي تهتدي به وتتبعه بشكلٍ أعمى. فكِّر الآن. أتوسل إليك، ما علاقة الجمال بالعناق الذي ترغب أن أخضع له؟ ما الصلة بين الأمرَين؟ اشرَحْ.»

يصمت، يصبح أكثر صمتًا. يُذهَل.

– «هيا. قلْتَ إنك لا تبالي بأن يسمع ابنك. قلْتَ إنك ترغب في أن يعرف الحياة.»

يقول في النهاية: «بين الرجل والمرأة تنبثق أحيانًا جاذبيةٌ طبيعية، غير متوقَّعة، لم يتم التفكير فيها. يجد كلٌّ منهما الآخر جذابًا أو حتى، باستخدام الكلمة الأخرى، جميلًا. المرأة أجمل من الرجل عادة. لماذا ينبغي أن ينتج أحدهما عن الآخر، الجاذبية والرغبة في العناق من الجمال، سرٌّ لا أستطيع أن أشرحَه إلا بأن أقول إن الانجذاب إلى المرأة هو الضريبة الوحيدة التي أعرف، بذاتي الجسدية، كيف أدفعها لجمال المرأة. أسمِّيها ضريبة لأنني أشعُر بأنها هبة، لا إهانة.»

يتوقف. تقول: «استمر.»

– «هذا كل ما أريد قوله.»

– «هذا كل شيء. وكضريبة لي — هبة، لا إهانة — تريد إحكام قبضتك عليَّ ودفع جزء من جسدك فيَّ. ضريبة، كما تزعم! إنني مرتبكة. بالنسبة لي تبدو المسألة كلها عبثية — قيامك بها عبثي، وسماحي بها عبثي.»

– «لا يبدو الأمر عبثيًّا إلا حين تعبِّرين عنه بهذه الطريقة. ليس عبثيًّا في ذاته. لا يمكن أن يكون عبثيًّا؛ لأنه رغبةٌ طبيعية لجسدٍ طبيعي. إنه طبيعةٌ تتحدث في أعماقنا. هكذا تكون الأمور. الطريقة التي لا يمكن أن تكون بها الأمور عبثية.»

– «حقًّا؟ وماذا إذا قلْتُ إنه لا يبدو بالنسبة لي عبثيًّا فقط لكنه بشعٌ أيضًا؟»

يهزُّ رأسه غيرَ مصدِّق. «لا يمكن أن تقصدي ذلك. أنا نفسي قد أبدو عجوزًا وغير جذاب — أنا ورغباتي. لكن لا يمكن أن تصدِّقي أن الطبيعة نفسها بشعة.»

– «نعم، يمكن. الطبيعة يمكن أن تنضم إلى الجميل لكن الطبيعة يمكن تنضم إلى البشع أيضًا. هذه الأجزاء من أجسادنا التي لا تسمِّيها بتواضع، ليس في سمع ابنك: هل تراها جميلة؟»

– «في ذاتها؟ لا، في ذاتها ليست جميلة. الكل هو الجميل، لا الأجزاء.»

– «وهذه الأجزاء التي ليست جميلة — تريد دفعها في داخلي! ماذا ينبغي أن يكون رأيي في ذلك؟»

– «لا أعرف. أخبريني برأيك.»

– «إن كل حديثك الرائع عن دفع ضريبة للجمال سخيف.[٢] إذا رأيتَني تجسيدًا للخير، لا ينبغي أن ترغب في القيام بذلك الفعل معي. لماذا ترغب في ذلك إذا كنْتُ تجسيدًا للجميل؟ هل الجميل أدنى من الخير؟ اشرَحْ.»

– «سخيف؛ ما معنى ذلك؟»

– «هُراء. زبالة.»

ينهض. «لن أعتذر أكثر، يا آنا. لا أرى أنها مناقشةٌ مثمرة. لا أعتقد أنك تعرفين ما تتحدثين عنه.»

– «حقًّا؟ هل تعتقد أنني طفلةٌ جاهلة؟»

---

[٢] بالإسبانية في الأصل una tontería.

– «قد لا تكونين طفلة لكن، أجل، أعتقد أنك تجهلين الحياة.» ثم يقول للولد، وهو يأخذ يده: «هيا، قمنا بنزهتنا، وعلينا الآن أن نشكر السيدة ونتحرك لنجد شيئًا نأكله.»

تستلقي آنا، وتمدِّد ساقيها، وتطوي ذراعَيها في حجرها، وتبتسم له بسخرية. وتقول: «قريبة جدًّا من الحقيقة، ألم تكن كذلك؟»

تحت شمسٍ حارقة يسير بخطواتٍ واسعة عَبْر المنتزه الخالي، والولد يُهروِل ليُواكبه.

يسأل الولدُ: «ما الأب الروحي؟»

– «الأب الروحي شخصٌ يقوم بدور أبيك حين لا يكون أبوك هنا لسببٍ ما.»

– «هل أنت أبي الروحي؟»

– «لا، لستُ. لم يدعُني أحدٌ لأكون أباك الروحي. أنا صديقك فقط.»

– «يمكن أن أدعوك لتكون أبي الروحي.»

– «الأمر لا يرجع إليك يا ولدي. لا يمكن أن تختار أباك الروحي بنفسك، كما لا يمكن أن تختار أباك. لا تُوجَد كلمةٌ مناسبة لعلاقتي بك، بالضبط كما لا تُوجَد كلمةٌ مناسبةٌ لعلاقتك بي. ورغم ذلك، إذا أحببْتَ، يمكن أن تصفَني بالعم. حين يقول الناس، مَن هو بالنسبة لك؟ يمكن أن تقول، إنه عمي. إنه عمي ويُحبُّني. وسوف أقول، إنه ولدي.»

– «لكن هل هذه السيدة ستكون أمي؟»

– «آنا؟ لا. لا يهمها أن تكون أمًّا.»

– «هل ستتزوجها؟»

– «لا بالطبع. لستُ هنا لأعثُر على زوجة، أنا هنا لأساعدك في العثور على أمك، أمك الحقيقية.

يُحاوِل الحفاظ على صوته هادئًا، ونبرته خفيفة؛ لكن هجوم الفتاه هزَّه في الحقيقة.

يقول الولد: «هل غضِبتَ منها. لماذا غضِبتَ؟»

يتوقف فجأة، يرفع الولد، ويقبِّله في جبينه. «آسف لأنني غضبت، لكنني لم أغضب منك.»

– «لكنك غضبتَ من السيدة وغضبَت منك.»

– «غضبتُ منها لأنها تعاملنا بشكلٍ سيئ ولا أفهم السبب. تجادَلْنا، هي وأنا، جدلًا حاميًا. لكن انتهى الآن كل شيء. لم يكن أمرًا مهمًّا.»

– «قالت إنك تريد دفع شيء في داخلها.»

يصمت.

– «ماذا كانت تقصد؟ هل تريد حقًّا دفع شيء بداخلها؟»

– «لم يكن إلا أسلوبًا من أساليب الكلام. كانت تقصد أنني أُحاوِل فرض أفكاري عليها. وكانت على حق. لا ينبغي للمرء أن يفرض أفكاره على الناس.»

– «هل أفرض عليك أفكاري؟»

– «لا، بالطبع لا. والآن لنبحث عن شيءٍ نأكله.»

يجوبان الشوارع شرق المنتزه، يبحثان عن مكانٍ من نوعٍ ما للأكل. إنه حي فيلاتٍ متواضعة، مع بنايةٍ منخفضة من وقتٍ لآخر. يصادفان محلًّا واحدًا فقط. على اللوحة برتقال،[٣] بحروف كبيرة. المصاريع الصُّلب مغلَقة، وهكذا لا يرى أن كان يبيع برتقالًا حقًّا أم أن برتقالًا مجرد اسم.

يوقف عابرًا، عجوزًا يفسِّح كلبًا بطوق. يقول: «لو سمحت، نبحث أنا وولدي عن كافيه أو مطعم يمكن أن نتناول فيه وجبة، أو إذا لم يكن هذا محل مؤن.»

يقول الرجل: «بعد ظهر الأحد؟» يتشمم كلبه حذاء الولد، ثم بين ساقيه. «لا أعرف ماذا أقترح، إلا إذا كنتَ على استعداد للذهاب إلى المدينة.»

– «هل يُوجد باص؟»

– «رقم ٤٢، لكنه لا يعمل أيام الأحد.»

– «وبالتالي لا يمكن في الحقيقة أن نذهب إلى المدينة. ولا يوجد مكانٌ قريب يمكن أن نأكل فيه. وكل المحلات مغلَقة. ماذا تقترح أن نفعل؟»

تتجمَّد ملامح الرجل. يشُد طوقَ كلبه. ويقول: «هيا، يا برونو.»

بمزاجٍ سيئ يتجه عائدًا إلى المركز. يتقدَّمان ببطء؛ لأن الولد يتردَّد ويقفز ليتجنَّب الشقوق في الرصف.

يقول بتوتُّر: «هيَّا، أسرع. أجِّل لعبتك ليومٍ آخر.»

– «لا. لا أريد أن أسقط في شق.»

– «هذا هُراء. كيف يمكن لولدٍ كبير مثلك أن يسقط في شقٍّ صغير مثل هذا؟»

– «ليس هذا الشق. شقٌّ آخر.»

– «أي شق؟ حدِّد الشق.»

[٣] بالإسبانية في الأصل NARANJAS.

٤

– «لا أعرف! لا أعرف أيَّ شق. لا أحد يعرف.»

– «لا أحد يعرف لأنه لا أحد يمكن أن يسقط في شق في الرَّصف. والآن أسرع.»

– «يمكن أن أسقط! يمكن أن تسقط! أي شخص يمكن أن يسقط! لا تعرف!»

٥

في اليوم التالي، في أثناء راحة منتصف اليوم في العمل، يأخذ ألفارو جانبًا. يقول: «سامحني إذا طرحتُ مسألةً خاصة، لكنني قلقٌ بشدة بشأن صحة الصغير، وبالتحديد بشأن نظامه الغذائي، ويتكوَّن — كما يمكن أن ترى — من الخبز والخبز ومزيدٍ من الخبز.»

وفي الحقيقة يمكن أن يرَيا الولد، يجلس بين العمال في ظل السقيفة، يقضم بحزنٍ نصف رغيفه المبلَّل بالماء.

يواصل: «يبدو لي أن هذا الطفل الصغير يحتاج مزيدًا من التنوع، مزيدًا من التغذية. لا يمكن للمرء أن يعيش على الخبز وحده. ليس غذاءً متكاملًا. ألا تعرف من أين يمكن أن أشتري لحمًا، هل تعرف، بدون أن أقوم برحلةٍ إلى وسط المدينة؟»

يحكُّ ألفارو رأسه. لا يُوجَد حولنا، لا يُوجَد حول أحواض السفن. هناك أناسٌ يصطادون فئرانًا، سمعتُهم يتحدَّثون. ليس هناك نقصٌ في الفئران. لكنك تحتاج مصيدة، ولا أعرف تلقائيًّا أين يمكن أن تجد مصيدةً جيدةً للفئران. ربما يكون عليك أن تصنعَها بنفسك. يمكن أن تستخدم سلكًا، بآليَّة السقَّاطة.»

– «فئران؟»

– «أجل. ألم ترَها؟ حيثما تُوجَد سفن تُوجَد فئران.»

– «لكن مَن يأكل الفئران؟ هل تأكل فئرانًا؟»

– «لا، لا أفكِّر فيها. لكنك سألْتَ أين يمكن الحصول على لحم، وهذا كل ما يمكن أن أقترح.»

يحدِّق طويلًا في عينَي ألفارو. لا يمكن أن يرى أية علامة على المزاح. أو إن كانت مِزحة، فهي مِزحةٌ عميقةٌ جدًّا.

بعد العمل يتجه هو والولد إلى محل البرتقال المبهَم مباشرة. يصلان والمالك على وشك إغلاق المصاريع. البرتقال محل في الحقيقة، كما يتضح، ويبيع برتقالًا، كما يبيع فواكهَ أخرى وخضراوات. والمالك ينتظر بفارغ الصبر، يختار بقَدْر ما يمكن أن يحمل الاثنان؛ سلة صغيرة من البرتقال، نصف دستة من التفاح، وبعض الجزَر والخيار.

بعد أن يعودا إلى غرفتهما في المركز يقطِّع تفاحة شرائح للولد ويقشِّر برتقالة. والولد يأكلها يقطِّع جزرة وخيارة إلى دوائرَ رقيقةٍ ويضعها في طبق. يقول: «خذ!»

بارتياب ينخس الولد الخيار، يشمُّه. ويقول: «لا أحبه، له رائحة.»

– «هُراء. ليس للخيار رائحةٌ إطلاقًا. الجزء الأخضر مجرد قشرة. تذوَّقْه. إنه مفيدٌ لك. يجعلك تكبر.» يأكل هو نفسُه نصفَ الخيارة، وجزرةً كاملة وبرتقالة.

في صباح اليوم التالي يكرِّر الزيارة لمحل البرتقال ويشتري المزيد من الفاكهة — موزًا وكمَّثْرى ومشمشًا — ويعود بها إلى الغرفة. الآن لديهما مخزونٌ كبير.

يتأخر عن العمل، لكن ألفارو لا يعلِّق.

رغم الإضافات المحتفَى بها لنظامهما الغذائي، لم يبرحه الشعور بالإرهاق الجسدي. بدل أن يعزِّز قوَّته، يبدو أن العمل اليومي في الرفع والحمل يستنزفه. يبدأ الشعور بأنه يشبه الشبح تمامًا؛ يخشى أن يُغمَى عليه أمام الرِّفاق ويجلب لنفسه العار.

يسعى إلى ألفارو مرةً أخرى. ويقول: «أشعر بأنني لستُ في حالة جيدة. أشعر بأنني لستُ في حالةٍ جيدة منذ بعض الوقت. هل هناك طبيبٌ تُوصِي به؟»

– «هناك عيادة على رصيف سبعة تفتح بعد الظهر. اذهب إليها على الفور. وأخبرهم أنك تعمل هنا؛ ولن يكون عليك أن تدفع.»

يتبع اليافطات إلى رصيف سبعة؛ حيث تُوجَد هناك عيادةٌ صغيرة، تُسمَّى ببساطةٍ عيادة.[١] الباب مفتوح، والمنضدة لا تحمل اسمًا. يضغط على الجرس، لكنه لا يعمل.

ينادي: «هالو! هل هنا أحد؟»

صمت.

يعبُر خلف المنضدة ويطرُق على الباب المغلق الذي يحمل لوحة جراحة.[٢] ينادي: «هالو!»

[١] بالإسبانية في الأصل Clínica.

[٢] بالإسبانية في الأصل Cirugía.

٥

يُفتَح الباب ويواجهه رجلٌ ضخم بوجهٍ متورد يرتدي معطفًا أبيضَ من معاطف المختبرات، على ياقته بقعةٌ واضحة تشبه الشيكولاتة. يتصبَّب الرجل عرقًا.

يقول: «مساء الخير. هل أنت الطبيب؟»

يقول الرجل: «ادخُل. اجلِس.» يشير إلى كرسي، يخلع نظَّارته، ويجفِّف العدستَين بعنايةٍ بمنديلٍ ورقي. «هل تعمل في أحواض السفن؟»

– «على رصيف اثنين.»

– «آه، رصيف اثنين. وماذا يمكن أن أفعل لك؟»

– «خلال آخر أسبوع أو اثنَين وأنا أشعر بأنني لستُ في حالةٍ جيدة. لا تُوجَد أعراضٌ محدَّدة باستثناء أنني أتعب بسهولة، وأشعر من حين إلى آخر بنوبات دُوار. أعتقد أنه ربما يكون بسبب نظامي الغذائي، نقص التغذية في نظامي الغذائي.»

– «متى تشعر بهذه النوبات من الدُّوار؟ في وقتٍ محدَّد من اليوم؟»

– «ليس في وقتٍ محدد. تأتي حين أكون مُجهَدًا. أعمل عامل شحن وتفريغ، كما أخبرتك. ليس عملًا اعتدتُ عليه. في خلال اليوم عليَّ عبور اللوح الخشبي مراتٍ عديدة. أحيانًا وأنا أنظر إلى الفراغ بين الرصيف وطرف السفينة، والأمواج تتلاطم على الرصيف، أشعر بالدُّوار. أشعُر بأنني سيُغمى عليَّ وأسقط وربما يرتطم رأسي وأغرق.»

– «لا يبدو ذلك لي سوء تغذية.»

– «ربما. لكن لو تغذَّيتَ بشكلٍ أفضل سأكون قادرًا بشكلٍ أفضل على مقاومة الدُّوار.»

– «هل انتابتك مثل هذه المخاوف من قبلُ، المخاوف من السقوط والغرق؟»

– «ليست مسألةً سيكولوجية، يا دكتور. أنا عامل. أقوم بعملٍ شاق. أحمل حمولاتٍ ثقيلةً ساعة بعد ساعة. قلبي يدقُّ بقوة. أنا باستمرار أبذل أقصى قوَّتي. من الطبيعي فقط، بالتأكيد، أن يصل جسمي أحيانًا إلى نقطة الفشل، إلى أن يخذلني.

– «من الطبيعي بالطبع. لكن إذا كان من الطبيعي لماذا أتيت إلى العيادة؟ ماذا تتوقع مني؟»

– «ألا تعتقد أنه ينبغي أن تسمع قلبي؟ ألا تعتقد أنه ينبغي أن تُجري اختبارًا للأنيميا؟ ألا تعتقد أنه ينبغي مناقشة أوجه النقص المحتملة في نظامي الغذائي. أخلع قميصي؟»

ينزع قميصه. يضغط الطبيب سماعة على صدره، يوجِّه نظرته إلى السقف، ويسمع. يفوح من نفسه رائحة ثوم. يقول في النهاية: «لا يُوجد خللٌ في قلبك. إنه قلبٌ جيد. سوف يبقى لسنواتٍ طويلة. يمكن أن تعود إلى العمل.»

ينهض. «كيف تقول ذلك؟ أنا مُنهَك. لستُ في حالتي الطبيعية. صحتي العامة تتدهور يوميًّا. لم أتوقع هذا حين وصلتُ. المرض، الإنهاك، التعاسة — لم أتوقع شيئًا من هذا. أشعر بنذير شؤم — ليس مجرد نذير شؤم عقلي لكنه نذير شؤم جسدي حقيقي — أنا على وشك الانهيار. جسدي ينذرني، بكل الطرق الممكنة، بأنه ينهار. كيف تقول إنني سليم؟»

صمت. بعناية يضع الطبيب سماعته في حقيبتها السوداء ويضعها في درج. يضع مرفقَيه على مكتبه، ويعقد يدَيه، ويُريح ذقنه على يدَيه، ويتحدث. يقول: «رائع يا سيدي، أنا متأكد من أنك لم تأتِ إلى هذه العيادة الصغيرة متوقعًا معجزة. إذا كنت تأمل في معجزة، يمكنك الذهاب إلى مستشفًى حقيقي بمختبرٍ حقيقي. وكل ما يمكن أن أقدِّمه النصيحة. نصيحتي بسيطة: لا تنظر إلى أسفل. تصيبك هذه النوبات من الدُّوار لأنك تنظر إلى أسفل. الدُّوار مسألةٌ سيكولوجية، وليست مسألةً طبية. النظر إلى أسفل هو ما يسبِّب النوبة.»

– «هل هذا كل ما يمكنك اقتراحه: لا تنظر إلى أسفل؟»

– «هذا كل شيء، إلا إذا كانت لديك أعراضٌ لها طبيعةٌ موضوعية يمكنك أن تخبرني بها.»

– «لا، ليس لديَّ مثل هذه الأعراض. ليس لديَّ مثل هذه الأعراض إطلاقًا.»

يسأله ألفارو حين يعود: «كيف سارت الحال؟ هل وجدتَ العيادة؟»

– «وجدْتُ العيادة وتحدثتُ إلى الطبيب. يقول ينبغي أن أنظر إلى أعلى. طالما أنظر إلى أعلى، سيكون كل شيء على ما يُرام معي. بينما إذا نظرتُ إلى أسفل، قد أسقط.»

يقول ألفارو: «تبدو نصيحةً جيدةً عامة. ليس فيها شيءٌ خيالي. الآن لماذا لا تأخذ اليوم إجازة وتستريح قليلًا؟»

رغم تناول الفاكهة الطازجة من محل البرتقال، رغم تأكيد الطبيب أن قلبه سليم وليس هناك سبب لا يجعله يعيش سنواتٍ طويلة، يواصل الشعور بالإنهاك. ولم ينقطع الدُّوار. ورغم أنه يتبع نصيحة الطبيب بعدم النظر إلى أسفل وهو يعبُر اللوح الخشبي، لم يتمكَّن من منع الصوت المهدِّد الذي تُصدِره الأمواج وهي تضرب الرصيف الزيتي.

يُطمئِنه ألفارو، وهو يضربه ضربةً خفيفةً على الظهر: «مجرد دُوار. يعاني منه الكثير من الناس. لحسن الحظ أنه في عقلك فقط. ليس حقيقيًّا. تجاهَلْه وسوف يزول بسرعة.»

ليس مقتنعًا. لا يصدِّق أن ما يغمُّه سوف يزول.

يقول ألفارو: «على أية حال، لن تغرق إذا انزلقتَ وسقطتَ صدفة. سينقذك شخصٌ ما. سأنقِذُك. ما فائدة الرفاق إذن؟»

٥

– «ستقفز وتنقذني؟»

– «إذا كان ضروريًّا. أو أرمي لك حبلًا.»

– «أجل، إلقاء حبل يكون أكثر فعالية.»

يتجاهل ألفارو حدةَّ الملاحظة، أو ربما لم يفهَمها. يقول: «عملي أكثر.»

يسأل ألفارو في مناسبةٍ أخرى: «هل هذا ما نفرغه إلى الأبد — القمح؟»

يردُّ ألفارو: «القمح والشوفان.»

– «لكن هل هذا كل ما نستورده عَبْر أحواض السفن؛ الحبوب؟»

– «يعتمد الأمر على ما تعنيه بكلمة نحن. رصيف اثنَين لحمولات الحبوب. تُفرغ حمولاتٍ مختلطة إذا عملتَ على رصيف سبعة. تفرغ الصُّلب والأسمنت إذا عملتَ على رصيف تسعة. ألم تتجوَّل حول أحواض السفن؟ ألم تستكشف؟»

– «استكشفتُ. لكن الأرصفة الأخرى كانت خالية دائمًا. كما هي الآن.»

– «حسنًا، لهذا معنًى، أليس كذلك؟ لا تحتاج دراجةً كل يوم. لا تحتاج حذاءً كل يوم، أو ملابسَ جديدة. لكن لا بُد أن تأكل كل يوم. وبالتالي نحتاج إلى كمياتٍ كبيرةٍ من الحبوب.»

– «وبالتالي إذا انتقلتُ إلى رصيف سبعة أو رصيف تسعة فسوف أقضي الوقتَ بشكلٍ أسهل. أستطيع أن آخذَ أسابيعَ كاملةً إجازةً من العمل.»

– «صحيح. إذا عملتَ على سبعة أو تسعة فسوف تقضي الوقت بشكلٍ أسهل. لكن أيضًا لن تحصل على وظيفة بدوامٍ كامل. وهكذا — على العموم — أنت أفضل حالًا على رصيف اثنَين.»

– «أفهم. من أجل الأفضل، رغم ذلك، أن أكون هنا، على هذا الرصيف، في هذا الميناء، في هذه المدينة، في هذه الأرض. كله من أجل الأفضل في هذا العالم الذي هو أفضل العوالم المحتمَلة.»

يعبس ألفارو. يقول: «هذا ليس عالمًا محتمَلًا. إنه العالم الوحيد. سواء كان هذا يجعله الأفضل أم لا، ليس أمرًا تُقرِّره أو أقرِّره.»

يستطيع أن يفكر في عدة ردود، لكنه يمتنع عن إعلانها.

ربما في هذا العالم الذي هو العالم الوحيد، من الحكمة أن يضَع السخريةَ خلفه.

٦

كان ألفارو، كما وعد، يعلِّم الولد الشطرنج. حين يركُد العمل، يمكن رؤيتُهما ينحنيان على جوالٍ موضوعٍ في بقعة من الظل، مستغرقَين في اللعب.

يعلِّق ألفارو: «هزمَني للتو. أسبوعان فقط وصار أفضلَ مني بالفعل.»

يعرض يوجينيو، الأكثر اطلاعًا بين العمَّال، التحدِّي على الولد. يقول: «دورٌ سريع. أمام كلٍّ منا خمس ثوانٍ لتنفيذ النقلة. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة.»

محاطَين بالمتفرِّجين يلعبان دورهما السريع. في دقائق حصَر الولد يوجينيو في ركن. يعطي يوجينيو ملِكَه نقرةً فيسقط على جانبه. يقول: «سأفكِّر مرتَين قبل أن أقبل اللعب معك مرةً أخرى. فيك شيطانٌ حقيقي.»

في الباص في ذلك المساء يحاول أن يناقش الدَّور، والملاحظة الغريبة التي أبداها يوجينيو، لكن الولد يصمت.

يعرض عليه: «هل تحب أن أشتري لك شطرنجًا؟ لتستطيع ممارسة اللعب في البيت.»

يهزُّ الولد رأسه. «لا أريد أن أمارس. لا أحب الشطرنج.»

– «لكنك رائعٌ جدًّا فيه.»

يهزُّ الولد كتفَيه.

يضغط بقوة: «إذا مُنح المرءُ موهبة، فعلى المرء ألا يخفيها.»

– «لماذا؟»

– «لماذا؟ لأن العالم يكون مكانًا أفضل، على ما أعتقد، إذا كان لكلٍّ منا أن يبرع في شيءٍ ما.»

يحدِّق الولد من النافذة بمزاجٍ سيِّئ.

– «هل أنت منزعجٌ مما قاله يوجينيو؟ لا ينبغي أن تنزعج. لم يكن يقصد.»

– «لسْتُ منزعجًا. فقط لا أحب الشطرنج.»

– «حسنًا، سوف يُحبَط ألفارو.»

في اليوم التالي يظهر غريبٌ في أحواض السفن. إنه ضئيلٌ ونحيل؛ بشرتُه محروقة بلون خشب الجوز الغامق skin is burned a deep walnut shade؛ عيناه عميقتان، وأنفه معقوفٌ مثل منقار الصقر. يلبس جينزًا باهتًا مبقَّعًا بزيت الماكينات، وحذاءً جلديًّا ممزقًا scarred.

يُخرِج من جيب صدره ورقة، ويعطيها لألفارو، وبدون كلمةٍ يقف ويحدِّق بعيدًا.

يقول ألفارو: «حسنًا. سوف نفرغ بقية اليوم ومعظم الغد. انضَم إلى الصف حين تكون مستعدًّا.»

يخرج الغريب من جيب الصدر نفسه علبة سجائر. وبدون أن يعرض على مَن حوله، يُشعِل لنفسه سيجارةً ويسحب نفسًا عميقًا.

يقول ألفارو: «تذكَّرْ، التدخين ممنوع في المخزن.»

لا تبدر عن الرجل أيةُ علامةٍ على أنه سمع. بهدوء يحدِّق حوله. يرتفع دخانُ سيجارته في الهواء الساكن.

اسمه داجا، يعرِّف ألفارو به. لا يناديه أحدٌ بأي شيءٍ آخر، ليس «الرجل الجديد»، ليس «الفتى الجديد».

داجا قوي رغم ضآلة بنيته. لا يترنَّح مليمترًا حين يسقط الجوال الأول على كتفَيه؛ يصعد السُّلم برشاقة وثبات؛ يقفز إلى اللوح الخشبي ويضع الجوال في العربة المنتظِرة بدون أية علامةٍ على الجهد. لكنه بعد ذلك يتراجع إلى ظل السقيفة، ويُقرفِص على كاحلَيه، ويُشعِل سيجارةً أخرى.

يسير ألفارو إليه. يقول: «ممنوع الراحة، يا داجا. واصل العمل.»

يقول داجا: «ما الحصة؟»

– «ليست هناك حصة. نقبض باليوم.»

يقول داجا: «خمسون جوالًا في اليوم.»

– «ننقل أكثر من هذا.»

– «كم؟»

– «أكثر من خمسين. لا تُوجَد حصة. كل رجلٍ يحمل ما يستطيع.»

– «خمسين. لا أكثر.»

– «انهَض. إذا كان لا بُد أن تدخِّن، فانتظر الراحة.»

تصل الأمور إلى ذروتها ظهر الجمعة، وهم يقبضون أجورهم. وداجا يقترب من اللوح الخشبي الذي يُستخدَم طاولة، يميل ألفارو على أذن الصرَّاف ويهمس. يومئ الصرَّاف. يضع نقود داجا على اللوح أمامه.

يقول داجا: «ما هذا؟»

يقول ألفارو: «أجرك على الأيام التي اشتغلتَها.»

يلتقط داجا قِطع العملة وبحركةٍ سريعةٍ ازدرائية يقذفها في وجه الصرَّاف.

يقول ألفارو: «ما هذا؟»

– «أجر فأر.»

– «هذا هو المعدَّل. هذا ما كسبته. هذا ما نكسبه جميعًا. هل تريد أن تقول إننا جميعًا فئران؟»

يحتشد الرجال. بتَروٍّ يجمع الصرَّاف أوراقه ويُغلِق غطاء صندوقه.

يشعر سيمون أن الولد يُمسِك بساقه. ينتحب: «ماذا يفعلون؟» وجهٌ شاحبٌ وقَلِق. «هل سيتشاجرون؟»

– «لا، بالطبع لا.»

– «قل لألفارو ألا يتشاجر. قل له!» يشُدُّ الولد أصابعه، يشُد ويشُد.

يقول: «هيا، لنبتعِد. يسحب الولدَ باتجاه حاجز الأمواج. «انظر! هل ترى عجول البحر؟ الكبير الذي أنفه في الهواء ذكَر، ثور البحر. والآخرون، الأصغر، زوجاته.»

من الحشد تأتي صرخةٌ حادة. هناك حركةٌ صاخبة.

ينتحب الولد: «إنهم يتشاجرون! لا أريد أن يتشاجروا!»

تتشكل نصف دائرة من الرجال حول داجا، الذي يُقرفِص، وابتسامةٌ شاحبةٌ على شفتَيه، وإحدى ذراعَيه ممتدَّة إلى الأمام. في يده تلمع شفرة سكِّين. يقول، وهو يلوِّح بالسكين: «هيَّا! مَن التالي؟»

يجلس ألفارو على الأرض، منحنيًا. يبدو أنه يُمسِك صدره. وعلى قميصه خط من الدماء.

يكرر داجا: «مَن التالي؟» لا أحد يتحرك. يقف، يطوي سكِّينه، ويضعُها في جيب بنطلونه الخلفي، ويحمل صندوق النقود، ويقلبه على اللَّوح. تتناثر قِطع العملة في كل مكان. يقول: «قطَط!» يعُد ما يريد، ويركل الأسطوانة ركلة استهزاء. يقول، وهو يُدير ظهره للرجال: «اخدموا أنفسكم.» برويةٍ يركب درَّاجة الصرَّاف وينطلق بها مبتعدًا.

ينهض ألفارو. الدماء على صدره تأتي من يده، تقطر من قَطْع في الكف.

سيمون هو أقدم رجل، أو على الأقل أكبر رجل، ينبغي أن يأخذ المبادرة. يقول لألفارو: «تحتاج طبيبًا. لنذهَبْ.» يُشير للولد: «هيَّا، سنأخذ ألفارو إلى الطبيب.»

لا يتحرَّك الولد.

– «ما بك؟»

تتحرَّك شفتا الولد لكنه لا يسمع كلمة. يميل أكثر. يسأل: «ما بك؟»

يهمس الولد: «هل ألفارو سيموت؟» وكل جسمه متجمِّد. إنه يرتجف.

– «لا بالطبع. في يده قَطْع، هذا كل ما في الأمر. يحتاج إلى بلاستر ليُوقِف النزيف. تعالَ. سوف نأخذه إلى الطبيب وسوف يعالجه الطبيب.»

إن ألفارو في طريقه بالفعل، بصحبة رجلٍ آخر.

يقول الولد: «كان يتشاجر. كان يتشاجر والآن يذهب إلى الطبيب ليقطَع يده.»

– «هُراء. الأطباء لا يقطعون الأيدي. الطبيب سينظِّف القَطْع ويضع عليه بلاستر، أو ربما يخيطه بإبرة وخيط. وغدًا يعود ألفارو إلى العمل وسنكون قد نسينا هذا كله.»

يحدِّق الولد فيه بحدَّة.

يقول: «لا أكذب. لن أكذب عليك. جرح ألفارو ليس خطيرًا. ذلك الرجل، السنيور داجا أو مهما يكن اسمه، لم يقصِد أن يؤذيه. كان حادثًا. انزلقَت السكين. السكاكين الحادَّة خطيرة. هذا درسٌ عليك أن تتذكَّره: لا تلعَب بالسكاكين. إذا لعبتَ بالسكاكين يُمكِن أن تتعرَّض للأذى. تعرَّض ألفارو للأذى، ولحسن الحظ ليس بشكلٍ خطير. والسنيور داجا تركَنا، أخذ النقود ومضى. لن يعود. لا ينتمي إلى هنا، وهو يعرف ذلك.»

يقول الولد: «ينبغي ألا تتشاجر.»

– «لن أتشاجر، أعدُك.»

– «ينبغي ألا تتشاجر أبدًا.»

– «ليس من عادتي أن أتشاجر. ولم يكن ألفارو يتشاجر. كان فقط يُحاوِل حماية نفسه. حاول حماية نفسه وجُرح.» يمُد يده ليوضِّح كيف حاول ألفارو حماية نفسه، وكيف عاني ألفارو من الجرح.

يقول الولد، ناطقًا الكلمات بحسمٍ مهيب: «ألفارو كان يتشاجر.»

– «حمايتك لنفسك ليسَت مشاجرة. حمايتك لنفسك غريزةٌ طبيعية. إذا حاول شخصٌ ضربك، فسوف تحمي نفسك. لن تتردَّد. انظر.»

في كل الوقت الذي قضياه معًا لم يضع إصبعًا على الولد. الآن، فجأة، يرفع يدًا مهدِّدة. لا يهتزُّ للولد رمش. يصفعُه صفعةً زائفة على خدِّه. لا يتراجع.

يقول: «حسنًا. أصدقك.» يترك يده تسقُط. «أنت مُحِق، كنتُ مخطئًا. كان ينبغي على ألفارو ألا يحاول حماية نفسه. كان عليه أن يكون مثلَك. كان عليه أن يكون شجاعًا. والآن لنذهَب إلى العيادة لنرى كيف تسير الأمور معه.»

يأتي ألفارو إلى العمل في اليوم التالي واليد المجروحة في حمَّالة. يرفُض مناقشة الحادث. ويرفض الرجال أيضًا، آخذين مبادرتهم منه، الحديث عنه أيضًا. لكن الولد يظل متذمرًا. يسأل: «هل السنيور داجا سيُعيد الدرَّاجة؟ لماذا يُسمَّى السنيور داجا؟»[١]

يرُد: «لا، لن يعود. لا يُحبنا، لا يعجبه نوع العمل الذي نقوم به، ليس لديه سببٌ يجعله يعود. لا أعرف إن كان داجا اسمه الحقيقي. لا يهم. الأسماء لا تهم. إذا كان يريد أن يُسمِّي نفسه داجا، فليكن.»

– «لكن لماذا سرَق النقود؟»

– «لم يسرق النقود. لم يسرق الدراجة. السرقة تعني أخذ ما لا تملكه بدون أن يرى أحد. كنا جميعًا نرى وهو يأخذ النقود. كنا نستطيع إيقافه، لكننا لم نفعل. اخترنا ألا نتشاجر معه. اخترنا أن نتركَه يذهب. تُوافق بالتأكيد. أنت من يقول إننا لا ينبغي أن نتشاجر.»

– «كان ينبغي أن يعطيه الرجل المزيد من النقود.»

– «الصرَّاف؟ ينبغي للصرَّاف أن يعطيه ما يريد؟»

يومئ الولد.

– «لا يمكن أن يفعل ذلك. إذا أعطى الصرَّاف كلًّا منا ما يريده، فسوف ينفَد ما معه من نقود.»

– «لماذا؟»

– «لماذا؟ لأننا جميعًا نريد أكثر مما نستحق. تلك هي الطبيعة الإنسانية؛ لأننا جميعًا نريد أكثر مما نستحق.»

– «ما الطبيعة الإنسانية؟»

– «إنها تعني الطريقة التي يُجبل عليها البشر، أنت وأنا وألفارو والسنيور داجا وكل الآخرين. تعني الطريقة التي نكون عليها حين نأتي إلى العالم. تعني كل ما هو مشتَرَك بيننا. نُحب أن نؤمن بأننا متميزون، يا ولدي، كل واحدٍ منا. لكن، بدقة، لا يمكن أن يكون

[١] داجا Daga: كلمة إسبانية معناها خنجر.

الأمر على هذا النحو. إذا كنا جميعًا متميِّزين، فلن يبقى هناك تميُّز. لكننا نستمر في الإيمان بأنفسنا. ننزل إلى مخزن السفينة، إلى الحرارة والغبار، ونحمل الأجولة على ظهورنا ونجرُّها إلى النور، ونرى أصدقاءنا يكدُّون مثلنا بالضبط، يقومون بالعمل نفسه بالضبط، لا شيء متميِّز في هذا، ونشعر بالزهو بهم وبأنفسنا، كل الرفاق يعملون معًا بهدفٍ مشترك؛ لكن في ركنٍ صغيرٍ من قلوبنا، نبقيه مختبئًا، نهمس لأنفسنا، مع ذلك، مع ذلك، أنت متميِّز، سوف ترى! ذات يوم، بدون توقُّع، سوف تنطلق صفَّارة ألفارو وسوف نُستدعَى جميعًا لاجتماع على رصيف الميناء؛ حيث ينتظر حشدٌ كبير، ورجل ببدلةٍ سوداء وقبَّعة رسمية؛ وسوف يناديك الرجل الذي يرتدي البدلة السوداء لتتقدم، قائلًا، انظروا هذا العامل الفريد، الذي نسعد به جميعًا! وسوف يصافحك ويضع ميداليةً على صدرك لخدمة تفوق نداء الواجب، كما تقول الميدالية، وسوف يهتف الجميع ويصفِّقون.»

– «الطبيعة الإنسانية أن نحلُم أحلامًا بهذا الشكل، حتى إذا كان من الحكمة أن نحتفظ بها لأنفسنا. مثلنا جميعًا، اعتقد السنيور داجا أنه متميز؛ لكنه لم يحتفظ بالفكرة لنفسه. أراد أن يُميَّز. أراد أن يُعترَف به.»

يتوقف. لا تُوجَد على وجه الولد علامةٌ تدل على أنه فهم كلمة. هل اليوم يومٌ من أيامه الغبية أم أنه عنيد فقط؟

يقول: «أراد السنيور داجا أن يُمتدَح ويُمنَح ميدالية. وحين لم نمنحه الميدالية التي حلم بها، أخذ النقود بدلًا منها. أخذ ما اعتقد أنه يستحقه. هذا كل ما في الأمر.»

يقول الولد: «لماذا لم يحصل على الميدالية؟»

– «لأننا لو حصلنا جميعًا على ميداليات تكون بلا قيمة. لأن الميداليات يجب أن تُكسَب. مثل النقود. لا تحصل على ميدالية لمجرد أنك تريد واحدة.»

– «سأعطي السنيور داجا ميدالية.»

– «حسنًا، ربما ينبغي علينا أن نطلب منك أن تكون صرَّافنا. وبالتالي نحصل جميعًا على ميداليات ونقودٍ كما نريد وفي الأسبوع التالي لن يتبقى شيءٌ في صندوق النقود.»

يقول الولد: «في صندوق النقود نقودٌ دائمًا؛ لهذا يُسمى صندوق النقود.»

يرفع ذارعيه: «لن أجادل معك إذا كنت ستكون سخيفًا.»

٧

بعد بضعة أسابيع من حضورهما إلى المركز، تصل رسالة من مكتب وزارة إعادة التوطين[١] في نوفيلا تخبره بأنه هو وأسرته خصِّصَت لهم شقة في القرية الشرقية، ويجب ألا يتأخر إشغالها عن ظهر الإثنين القادم.

القرية الشرقية، وتُعرَف بشكلٍ غير رسمي باسم البلوكَّات الشرقية، عزبة في شرق المنتزهات، مجموعة بلوكاتٍ سكنية تفصل بينها مساحات من العشب. وقد استكشف هو والولد المكان هناك، كما استكشفا توءمها، القرية الغربية. البلوكات التي تشكِّل القرية نمطٌ متماثل، بارتفاع أربعة طوابق. في كل طابق ست شقق تُطِل على ساحة تضم وسائل خدماتٍ مشتركة مثل ملعب للأطفال، وحمام سباحةٍ صغير، ومكان للدرَّاجات، وأحبال غسيل. وتُعتبَر القرية الشرقية عمومًا أكثر جاذبية من القرية الغربية؛ يمكن أن يعتبرا نفسيَهما محظوظَين لأنهما يُرسَلان إلى هناك.

يتم الانتقال من المركز بسهولة؛ لأنهما لا يملكان إلا القليل ولم يكوِّنا أصدقاء. كان جيرانُهما، على جانب، ورجلٌ عجوز يتجوَّل في روبه ويتحدَّث إلى نفسه، وعلى الجانب الآخر زوجان متحفِّظان يتظاهران بأنهما يفهمان الإسبانية التي يتحدَّثها.

الشقة الجديدة، في الطابق الثاني، متواضعة المساحة وبها القليل من الأثاث؛ سريران، وطاولة ومقاعد، وخزانة بأدراج، وأرفُف من الصُّلب. ومُلحَق صغير به وعاءٌ كهربي للطبخ على حامل وحوض بمياهٍ جارية. وحاجز جرَّار يُوارِي الدش والتواليت.

[١] وزارة إعادة التوطين، بالإسبانية في الأصل.

لعشائهما الأول في البلوكات يصنع للولد طعامه المفضَّل، فطائر بالزبد والمربَّى. يقول: «سنُحِب المكان هنا، أليس كذلك؟ سيكون فصلًا جديدًا في حياتنا.»

بعد أن أخبر ألفارو بأنه ليس في حالةٍ جيدة، لم تكن لديه مخاوفُ من أخذ بعض الأيام إجازة من العمل. كان يكسب أكثر مما يحتاجان، هناك القليل مما ينفق عليه نقودَه، لا يفهم لماذا ينبغي أن يُنهِك نفسه بدون هدف. بالإضافة إلى ذلك، هناك دائمًا وافدون جُدُد يبحثون عن عملٍ مؤقَّت يمكن أن يشغلوا مكانه في أحواض السفن. وهكذا يقضي صباح بعض الأيام وهو يضطجع ببساطة، وينعس ويستيقظ، مستمتعًا بدفء الشمس التي تتدفق من نوافذ بيتهما الجديد.

يقول لنفسه: أجهِّز نفسي. أجهِّز نفسي للفصل الجديد في هذا المشروع. ويقصد بالمشروع البحث عن أم الولد، البحث الذي لا يعرف بعدُ من أين يبدؤه. أركِّز طاقاتي؛ أُعِدُّ الخطط.

بينما يسترخي، يلعب الولد في الهواء الطلق في حفرةٍ من الرمل أو على المراجيح، ويتجوَّل بين حبال الغسيل، مُهمهِمًا لنفسه، متلويًا مثل شرنقة في ملاءاتٍ جافَّة، ثم يدور ويفكُّ نفسه. لعبة يبدو أنه لا يتعب منها أبدًا.

يقول: «أعتقد أن جيراننا لن يسعدوا برؤيتك تلمس غسيلهم المغسول حديثًا. ماذا تجده جذابًا جدًّا فيه؟»

– «أُحِب الرائحة التي تفوحُ منه.»

في المرة التالية التي يعبُر فيها الفناء، يضغط وجهَه بتروٍّ في ملاءة ويسحب نفَسًا عميقًا. الرائحة نظيفة ودافئة ومريحة.

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، يحدِّق من النافذة، ويرى الولد ينبطح على العشب رأسًا لرأس مع ولدٍ آخر أكبر منه. يبدو أنهما يتحدَّثان بحميمية.

يعلِّق على الغداء: «أرى أن لك صديقًا جديدًا. من هو؟»

– «فيدل. إنه يستطيع العزف على الكمان. أراني كمانه. هل يمكن أن أحصل أنا أيضًا على كمان؟»

– «هل يسكن في البلوكات؟»

– «نعم. هل يمكن أنا أيضًا أن يكون عندي كمان؟»

– «سوف نرى. الكمان يكلف أموالًا كثيرة، وسوف تحتاج إلى معلِّم، لا يُمكِن فقط أن تمسك بكمان وتعزف.»

– «أم فيدل تعلِّمه. وتقول إنها يمكن أن تعلِّمني أيضًا.»

– «أمرٌ رائع أن يكون لك صديقٌ جديد، أنا سعيدٌ من أجلك. وبالنسبة لدروس الكمان، ربما ينبغي أولًا أن أتحدَّث مع أم فيدل.»

– «يمكن أن نذهب الآن؟»

– «يمكن أن نذهب فيما بعدُ، بعد قيلولتك.»

شقة فيدل على الجانب البعيد من الفِناء. حتى قبل أن يطرق، يفتح الباب ويقف فيدل أمامهما، قويًّا، مجعَّد الشعر، مبتسمًا.

رغم أن الشقة ليست أكبر من شقتهما وليست مُشمِسة مثلها، فإن هواءها أكثر رحابة، ربما بسبب ستائرها الناصعة بموتيفة من زهرة الكرز المتكرِّرة على مفارش السرير.

تتقدم أم فيدل لترحِّب به؛ امرأةٌ شابة نحيلة وبارزة العظام بأسنانٍ بارزة وشعرٍ مسحوب بإحكام خلف أذنَيها. بطريقةٍ غامضة تُحبِطه هذه النظرة الأولى إليها، رغم أنه ليس لديه سبب.

تؤكد: «نعم، أخبرْتُ ابنك أنه يُمكِن أن ينضم إلى فيدليتو في دروس الموسيقى. وبعد ذلك يمكن أن نقيِّم إن كانت لديه القدرة والإرادة للتقدم.»

– «هذا كرمٌ حقيقي منك. في الواقع، ديفيد ليس ابني. ليس لي ابن.»

– «أين والداه؟»

– «والداه ... إنه سؤالٌ صعب. سوف أوضِّح الأمر حين يكون لدينا وقتٌ أطول. بشأن الدروس: هل يحتاج إلى كمانٍ خاص به؟»

– «مع المبتدئين أبدأ عادة على مسجِّل. فيدل» — تقرِّب ابنها منها، تحضنه بحنان — «فيدل تعلم على المسجِّل لمدة عام قبل أن يبدأ على الكمان.»

يلتفت إلى ديفيد. هل سمعتَ، يا ولدي؟ في البداية تتعلَّم العزف على مسجل، ثم بعد ذلك على الكمان. اتفقنا؟»

يمتعض الولد، ويصوِّب نظرة لصديقه الجديد، في صمت.

– «مهمةٌ كبيرة أن تصبح عازف كمان. لن تنجح إن لم تُحبه بقلبك.» ويَلتفِت إلى أم فيدل: «هل يمكن أن أسأل عن الأتعاب؟»

تنظر إليه باستغراب. وتقول: «لا آخذ أتعابًا. أفعل ذلك من أجل الموسيقى.»

اسمُها إيلينا. إنه ليس الاسم الذي كان يمكن أن يخمِّنه. كان يمكِّن أن يخمن مانويلا، أو حتى لورديس.

يدعو فيدل وأمه لنزهة بالباص إلى «الغابة الجديدة»، نزهة أوصى بها ألفارو («كانت مزرعةً ذات يوم، لكنها تُركَت لتنمو بشكلٍ عشوائي — سوف تحبها»). من محطة الباص يتسابق الولدان إلى المَر، بينما يتمشَّى هو وإيلينا خلفهما.

يسألها: «هل لديكِ طلابٌ كُثر؟»

– «أوه، لستُ معلِّمةَ موسيقى حقيقية. لديَّ فقط بضعة أطفال أساعدهم في الأساسيات.»

– «كيف تكسبين رزقكِ إن كنتِ لا تأخذين أتعابًا؟»

– «آخذ في الخياطة. أفعل هذا وذاك. أحصُل على منحةٍ ضئيلةٍ من المعونة.[٢] لديَّ ما يكفي. هناك أشياءُ أكثرُ أهميةً من المال.»

– «تقصدين الموسيقى؟»

– «الموسيقى، نعم، لكن أيضًا الطريقة التي يعيش بها المرء. كيف يعيش المرء.»

ردٌّ رائع، ردٌّ خطير، ردٌّ فلسفي. يصمت لحظة.

يسأل: «هل ترَين أناسًا كثيرين؟ أقصد» — يستجمع شجاعته — «هل في حياتك رجل؟»

تقطِّب: «لديَّ أصدقاء. بعضهم نساء، بعضهم رجال. لا أفرِّق بينهم.»

يضيق المَر. تمضي إلى الأمام؛ يتخلف وراءها، مشاهدًا تأرجح وركَيها. يفضِّل امرأةً بمزيد من اللحم على عظامها. ومع ذلك، يُعجَب بإيلينا.

يقول: «بالنسبة لي، لا يمكن أن أتخلى عن التمييز. أو أن أتمنَّى التخلي عنه.»

تبطئ لتسمح له باللحاق بها، وتنظر له مباشرة. تقول: «لا ينبغي لأحد التخلي عما هو مهمٌّ له.»

يعود الولدان، وهما يلهثان من الجري، متألقَين صحةً. يسأل فيدل: «هل معنا شيءٌ نشربه؟»

ولم تسنح له فرصةٌ أخرى للحديث مع إيلينا حتى استقلا الباص في الطريق إلى البيت.

يقول: «لا أعرف ما يتعلق بك، لكن الماضي ليس ميتًا فيَّ. ربما ازدادت التفاصيل غموضًا، لكن الشعور بكيف كانت حياتي عادةً ما زال حيًّا تمامًا. الرجال والنساء، على

[٢] المعونة: بالإسبانية في الأصل.

سبيل المثال: تقولين إنك تجاوزتِ هذه الطريقة في التفكير؛ لكنني لم أتجاوزها. ما زلتُ أشعر بأنني رجل، وأنكِ امرأة.»

– «أتفق معك. الرجال والنساء مختلفون. لديهم أدوارٌ مختلفة يلعبونها.»

يتهامس الولدان، في المقعد الذي أمامهما، معًا، ويقهقهان. يأخذ يد إيلينا في يده. لا تسحبُها. ومع ذلك، من خلال الطريقة المبهَمة التي يتحدث بها الولدان، تقدِّم يدُها إجابة. تموتُ في قبضته مثل سمكة خارج المياه.

يقول: «هل يمكن أن أسأل. هل أنت بعيدة عن الشعور بأي شيءٍ تجاه رجل؟»

تردُّ ببطء وحذر: «لست لا أشعر بأي شيء. على العكس، أشعُر بوُد، الكثير من الوُد. تجاهك وتجاه ابنك. دفء ووُد.»

– «تقصدين بالود أنك تتمنَّين لنا الخير؟ أكافح لأستوعب المفهوم. تشعُرين بمحبة تجاهنا؟»

– «أجل، بالضبط.»

– «لا بد أن أقول لك إن المحبة هي ما نُصادِفها هنا باستمرار. يتمنَّى لنا كل شخص الخير، كل شخصٍ مستعدٌّ لأن يكون عطوفًا معنا. إننا محمولون معًا على غيمة من الوُد. لكنه يبقى مجردًا إلى حدٍّ ما. هل يمكن للوُد في ذاته أن يلبِّي احتياجاتنا؟ أليس من طبيعتنا أن نتوق إلى شيءٍ ملموسٍ أكثر؟»

بتروٍّ تخلِّص يدها من يده. «ربما تريد أكثر من الوُد؛ لكن هل ما تريده أفضل من الوُد؟ هذا ما ينبغي أن تسأله لنفسك.» تتوقف. «تظل تشير إلى ديفيد بالولد. لماذا لا تستخدم اسمه؟»

– «ديفيد اسمٌ أطلَقوه عليه في المعسكر. لا يُحبه، يقول إنه ليس اسمه الحقيقي. أحاول ألا أستخدمه إلا مضطرًّا.»

– «تغيير الاسم سهل جدًّا، تعرف. تذهب إلى مكتب التسجيل وتملأ نموذجًا لتغيير الاسم. هذا كل ما في الأمر. لا أسئلة.» تميل إلى الأمام. تسأل الولدَين: «وعم تتهامسان؟»

يبتسم لها ابنها، ويرفع أصابعه إلى شفتَيه، متظاهرًا بأن ما يشغلهما مسألةٌ سرية.

يُوصلُهم الباص خارج البلوكات. تقول إيلينا: «أودُّ أن أدعوك للدخول لتناول كوب من الشاي، لكنه لسوء الحظ وقت حمام فيدليتو وعشائه.»

يقول: «أفهم. إلى اللقاء فيدل. شكرًا على النزهة. قضينا وقتًا ممتعًا.»

يصرِّح للولد بمجرد أن يكونا وحدهما: «يبدو أن الأمور بينك وبين فيدل تسير بشكلٍ جيد.»

– «إنه أفضل أصدقائي.»

– «هكذا يشعر فيدل بالوُد تجاهك، أليس كذلك؟»

– «بالكثير من الوُد؟»

– «وماذا عنك؟ هل تشعر بالوُد أيضًا؟»

يومئ الولد بقوة.

– «أي شيء آخر بالإضافة إلى ذلك؟»

ينظر إليه الولد بارتباك: «لا.»

هكذا يفهمها، من أفواه الأطفال والرُّضَّع. من الوُد تأتي الصداقة والسعادة، تأتي نزهات الأنس في المنتزهات أو تمشية عصاري الأنس في الغابة. بينما من الحب، أو على الأقل من الحنين إلى أكثر تجلياته إلحاحًا، يأتي الإحباط والشك والأسى. المسألة بكل هذه البساطة.

على أية حال، ماذا يريد من إيلينا، امرأة يعرفها بالكاد، أم الصديق الجديد للطفل؟ هل يأمُل في إغرائها، لأن في الذكريات التي لم تضِح تمامًا بالنسبة له إغواء المرء للآخر شيء يفعله الرجال والنساء؟ هل يُصِر على أولوية الشخصي (الرغبة، الحب) على العام (الوُد، المحبة)؟ ولماذا يسأل نفسه باستمرار أسئلةً بدل أن يعيش وكفى، مثل أي شخصٍ آخر؟ هل هذا كله جزءٌ من انتقالٍ بطيءٍ جدًّا من القديم والمريح (الشخصي) إلى الجديد وغير المستقر (العام)؟ هل سلسلة الاستجواب الذاتي ليست إلا مرحلة في نمو أي وافدٍ جديد، مرحلة مرَّ بها بنجاحٍ أناسٌ مثل ألفارو وآنا وإيلينا؟ وإذا كان الأمر كذلك كم من الوقت يتطلب الأمر قبل أن يبدو رجلًا جديدًا كاملًا؟

٨

يقول لإيلينا: «كنتِ تحدِّثينني عن الوُد في ذلك اليوم، الوُد بوصفه بلسمًا عامًّا لعِلَلنا. لكن ألا تجدين نفسكِ أحيانًا تفتقدين الاتصال الجسدي القديم الصريح؟»

إنهم في المنتزهات، بجانب ساحة يُلعَب عليها نصف دستة من مباريات كرة القدم بشكلٍ غير منضبط. وقد سُمِح لفيدل وديفيد بالمشاركة في إحدى المباريات، رغم أنهما صغيران جدًّا في الواقع. بإحساس بالواجب يندفعان إلى الخلف والأمام مع اللاعبين الآخرين، لكن الكرة لا تُمرَّر إليهما قط.

تردُّ إيلينا: «أية واحدةٍ تُربِّي طفلًا لا تفتقر إلى الاتصال الجسدي.»

– «أقصد بالاتصال الجسدي شيئًا مختلفًا. أقصد أن تُحِبي وأن تُحَبي. أقصد النوم مع شخصٍ كل ليلة. ألا تفتقدين ذلك؟»

– «هل أفتقده؟ لستُ من النوع الذي يُعاني من الذكريات يا سيمون. ما تتحدث عنه يبدو بعيدًا جدًّا. وغريبًا جدًّا أيضًا — إذا كنت تقصد الجنس بالنوم مع شخص. غريبٌ أن تكون مشغولًا به.»

– «لكن لا يُوجَد بالتأكيد شيءٌ يقرِّب الناس مثل الجنس. يمكن للجنس أن يجعلنا نحن الاثنَين أقرب. على سبيل المثال.»

تُشيح إيلينا بوجهها. تنادي وتلوِّح: «فيدليتو! تعالَ! لا بد أن ننصرف الآن!»

هل هو مخطئ، أم أن هناك حمرةَ خجلٍ على وجنتها؟

الحقيقة أنه يرى إيلينا جذابة إلى حدٍّ ما فقط. لا يُعجَب بنحافتها، بفكِّها القوي وأسنانها الأمامية البارزة. لكنه رجل، وهي امرأة، وصداقة الطفلَين تظل تجمعهما معًا. وهكذا، رغم الصد المهذَّب مرةً بعد أخرى، يستمر في السماح لنفسه ببعض الحريات

البسيطة، حريات يبدو أنها تسلِّيها أكثر مما تُغضِبها. شاء أم أبى يجد نفسه ينزلق في أحلام يقظةٍ فيها ضربة أو أخرى من ضربات الحظ تدفع إيلينا إلى ذراعَيه.

تأخذ ضربة الحظ، حين تأتي، شكل انقطاع الكهرباء. انقطاع الكهرباء ليس نادرًا في المدينة. يُنوَّه عنه عادةً قبل حدوثه بيوم، ويطبَّق على المساكن ذات الأرقام الزوجية أو ذات الأرقام الفردية. في حالة البلوكات، تطبَّق على كل البنايات طبقًا للائحة المناوبة.

في المساء المعنيِّ، ليس هناك تنويه، يطرق فيدل فقط الباب، ويسأل إن كان يمكن أن يدخل ويعمل واجبه، لأنه لا يُوجَد نورٌ كهربائي في شقتهما.

يسأل الولدَ: «هل أكلتَ؟»

يهزُّ الولد رأسه.

يقول: «ارجِعْ فورًا. وأخبر أمك أنك وهي مدعوَّان للعشاء.»

العشاء الذي يقدِّمه لهما لا يزيد عن خبز وحساء (شعير وكوسة مغليان مع علبة فاصوليا)، لكنه كافٍ. وبسرعة ينجز فيدل واجبه. يستقر الولدان مع الكتب المصوَّرة؛ وفجأةً يسقط فيدل في النوم، وكأنه قُتل.

تقول إيلينا: «إنه بهذا الشكل منذ كان رضيعًا. لا شيء يوقظه. سأعود به وأضعه في السرير. أشكرك على الوجبة.»

– «لا يمكن أن تعودي إلى الشقة المظلمة. اقضي الليلة. يمكن أن يشارك فيدل ديفيد في سريره. وسوف أنام على الكرسي. إنني معتاد عليه.»

إنها كذبة، ليس معتادًا على النوم على الكراسي، وفي كرسي المطبخ بالظهر المستقيم بعض الشيء يشك في أن النوم يمكن أن يكون إنسانيًّا. لكنه لم يُعطِ إيلينا فرصةً للرفض. «نعرفين مكان الحمام. وهنا فوطة.»

حين يعود من الحمام تكون في سريره والولدان نائمان جنبًا إلى جنب. يلتف في البطانية الاحتياطية ويطفئ النور.

يخيِّم الصمت لوهلة. ثم، من الظلمة، تتحدث: «إذا كنت غير مستريح، وأنا متأكدة من ذلك، يمكن أن أُفسِح لك مكانًا.»

ينزلق إلى السرير معها. بهدوء، وحذَر، يمارسان الجنس، واضعَين في الاعتبار أن الطفلَين نائمان على بعد ذراع.

ليس كما تمنَّى. ليست متحمسة، يشعُر بذلك فورًا؛ وبالنسبة لنفسه، يتبيَّن أن مخزون الرغبة المكبوتة التي اعتمد عليها وهم.

تهمس حين ينتهي. وبإصبع تحك شفتَيه: «ترى ما أقصد؟ لا يدفعنا إلى الأمام، أليس كذلك؟»

هل هي محقة؟ هل ينبغي أن يستوعب هذه الخبرة تمامًا ويودِّع الجنس إلى الأبد، كما يبدو أن إيلينا فعلَت؟ ربما. لكن مجرَّد ضم امرأة في ذراعيه، حتى لو لم تكن سفينةً تعجُّ بالجمال، يبقيه طافيًا.

يردُّ مُهمِهمًا: «لا أتفق معك. في الحقيقة، أعتقد أنك مخطئة تمامًا.» يتوقف. «هل سألْتِ نفسك يومًا إن كان الثمن الذي تدفعينه مقابل هذه الحياة الجديدة، ثمن النسيان، قد لا يكون مرتفعًا جدًّا؟»

لا ترُد، ترتِّب ملابسها الداخلية وتُدير له ظهرها.

رغم أنهما لا يعيشان معًا، يُحب التفكير في نفسه وفي إيلينا، بعد الليلة المشتركة الأولى بوصفهما زوجَين، زوجَين في طور التشكيل، وبالتالي في الولَدين بوصفهما أخوَين أو أخوَين غير شقيقَين. صار من المعتاد أكثر وأكثر أن يتناول الأربعة وجبة المساء معًا؛ وفي عطلات نهاية الأسبوع يذهبون للتسوُّق أو للتنزُّه أو في رحلاتٍ إلى الريف؛ ورغم أنه لم يقضِ هو وإيلينا معًا ليلةً أخرى كاملة، فإنها تسمح له من حين لآخر، حين يبتعد الولدان، بممارسة الجنس معها. يبدأ الاعتياد أكثر على جسمها، ببروز عظام الوركَين وبالثديَين الصغيرَين. إحساسها الجنسي تجاهه ضئيل، وهذا واضح؛ لكنه يحب التفكير في ممارسته للحب بوصفها عملًا صبورًا وطويلًا من أعمال الإحياء، استعادة حياة جسدٍ أنثوي مات بالفعل.

حين تدعوه لممارسة الحب معها، يكون ذلك بدون أدنى مغازلة. تقول، وتُغلِق الباب وتخلع ملابسها: «إذا أحببتَ، يمكن أن نفعلها الآن.»

ربما نفَّرَته هذه الحقيقة مرة، بالضبط مثلما شعَر بالخزي من عدم استجابتها مرة. لكنه يقرِّر ألا ينفر أو يشعُر بالخزى. سوف يقبل ما تعرضه، بأقصى ما يمكن من ترحيب وامتنان.

تُشير عادةً للفعل ببساطة بكلمة نفعلها، لكن أحيانًا، حين تُريد أن تُزعجه، تستخدم كلمة إذابة،[1] ذوبان الجليد: «إذا أحببتَ، يمكن أن تذيبَني.» كانت كلمةً سمح بانزلاقها في

[1] إذابة: بالإسبانية في الأصل.

لحظة استهتار: «تسمحين لي بإذابتك!» أذهلَها مفهوم إعادتها ذائبة إلى الحياة ويُذهِلها الآن مثل هَزْلٍ بلا حدود.

بين الاثنَين تنمو، إن لم تكن حميمية، فإنها صداقةٌ تبدو صُلبةً تمامًا، وجديرةً بالثقة تمامًا. ولا يُمكِن أن يعرف إن كانت الصداقة نمَت بينهما على أية حال، على خلفية صداقة الولدَين والساعات الطويلة التي يقضيانها معًا، أو إن كانت نفعلها أسهمَت بأي قَدْر على الإطلاق.

يسأل نفسه، هل هكذا تنشأ العائلات، هنا في هذا العالم الجديد: تتأسس على الصداقة بدل الحب؟ ليس ظرفًا يألفه، أن يكون مجرد صديقٍ لامرأة. لكنه يستطيع رؤية فوائد الصداقة. يمكن حتى، بشكلٍ غريب، أن يستمتع بها.

يسأل إيلينا: «حدثيني عن والد فيدل.»

– «لا أتذكر الكثير عنه.»

– «لكن لابد أنه كان له والد.»

– «بالطبع.»

– «هل كان الأب يشبهني عمومًا؟»

– «لا أعرف. لا يُمكِن أن أتذكر.»

– «هل يمكن — نظريًّا — أن تعتبري شخصًا مثلي زوجًا؟»

– «شخص مثلك؟ مثلك في أي جوانب؟»

– «هل يمكن أن تتزوجي شخصًا مثلي؟»

– «إذا كانت هذه طريقتك في السؤال إن كان يمكن أن أتزوجك، فالإجابة نعم، يمكن. سيكون أمرًا جيدًا لفيدل وديفيد، للاثنَين. متى تريد أن تفعل ذلك؟ لأن مكتب التسجيل مفتوحٌ فقط أيام العمل. هل يمكنك الحصول على أجازة؟»

– «أنا متأكد من أنني أستطيع. مشرفنا متفهِّم جدًّا.»

بعد هذا العرض الغريب، وهذه الموافقة الغريبة (التي لا يفعل شيئًا حيالها)، يبدأ الشعور ببعضِ الحذَر من جانب إيلينا، وتوتُّرٍ جديدٍ في علاقاتهما. لكنه لا يتراجع عن الطلب. إنه يجد طريقه. إنه يصنع حياةً جديدة.

يسأل في يومٍ آخر: «كيف تشعُرين إذا كان عليَّ أن أرى امرأةً أخرى.»

– «تقصد بكلمة ترى ممارسة الجنس معها؟»

– «ربما.»

٨

– «ومن في عقلك؟»

– «ليست هناك واحدة بشكلٍ خاص. إنني ببساطة أستكشف الاحتمالات.»

– «تستكشف؟ ألم يحِنِ الوقت لتستقر؟ لم تعُد شابًّا.»

يصمت.

– «تسأل كيف أشعر. تريد إجابةً قصيرة أم إجابةً كاملة؟»

– «إجابةً كاملة. الأكمل.»

– «حسنًا جدًّا. صداقتنا كانت رائعة بالنسبة للولدَين، يمكن أن نتفق على هذا. قويَت العلاقة بينهما. يعتبراننا حارسَين، أو حتى حارسًا واحدًا. هكذا لن يكون أمرًا طيبًا لهما أن تنتهي صداقتنا. ولا أرى سببًا يجعلها تنتهي، لمجرد أنك ترى امرأةً أخرى مفترضة.

ومع ذلك، أظن أنك مع هذه المرأة تريد ممارسة التجربة نفسها التي مارسْتَها معي، وأنك في أثناء التجربة سوف تفقد التماس مع فيدل ومعي.

وبالتالي سأعبِّر ببعض الكلمات عن شيءٍ كنتُ أتمنى لو أنكَ فهمتَه بنفسك. أنت تريد رؤية هذه المرأة الأخرى لأنني لا أقدِّم لك الشعور الذي تحتاج إليه، أقصد عواصف العاطفة. الصداقة في ذاتها ليست جيدةً بما يكفي بالنسبة لك. بدون أن تصاحبها عواصف العاطفة تكون ناقصةً بشكلٍ ما.

بالنسبة لي هذا أسلوبٌ قديم في التفكير. في الأسلوب القديم للتفكير، بصرف النظر عما يكون لديك، يُفتقَد دائمًا شيءٌ ما. الاسم الذي تختار أن تُسمِّي به هذا الشيء الإضافي المفتقَد هو العاطفة. لكنني مستعدَّة للرهان على أنك لو قدَّمتُ لك كل العاطفة التي أردتَها — عاطفة هائلة — فسوف تجد على الفور شيئًا جديدًا تفتقده، ينقصك. هذا عدم الرضا الذي لا ينتهي، هذا الحنين لشيءٍ إضافيٍّ مفتقَد، طريقة في التفكير تخلَّصنا جميعًا منها، في رأيي. لا شيء مفتقَد. اللاشيء الذي تعتقد أنك تفتقده وهم. تعيش بوهم.

طلبتَ إجابةً كاملة وقدَّمتُ لك واحدة. هل هي كافية، أم ما زالت تتوق للمزيد؟»

إنه يومٌ دافئ، يوم الإجابة الكاملة. الراديو مفتوح بصوتٍ منخفض؛ وهما مستلقيان على السرير في الشقة، في ملابس كاملة.

يعلِّق: «من جانبي …» لكن إيلينا تقاطعه. تقول: «اسكُتْ! لا مزيد من الكلام، اليوم على الأقل.»

– «لماذا لا؟»

– «لأننا بعد ذلك سنتشاجر، وأنا لا أريد ذلك.»

وهكذا يسكتان، ويستلقيان في صمت جنبًا إلى جنب، يستمعان حينًا إلى النوارس تصيح وهي تلف الريف، وحينًا إلى الولدَين يضحكان معًا في لعبتهما، وحينًا إلى الموسيقى من الراديو، النغم المتواصل الهادئ الذي اعتاد ذات يومٍ أن يهدِّئه لكنه يوتِّره اليوم ببساطة.

ما يريد أن يقوله، من جانبه، إن الحياة هنا هادئة جدًّا بشكلٍ لا يتناسب مع ذوقه، تفتقر تمامًا إلى النجاح والإخفاق، للدراما والتوتر — كثيرًا جدًّا، في الحقيقة مثل الموسيقى في الراديو. مسكِّن:[٢] هل هي كلمةٌ إسبانية؟

يتذكَّر وقد سأل ألفارو ذات يومٍ لماذا لا تُذاع قط أي أخبارٍ في الراديو. استفسر ألفارو: «أخبار ماذا؟» ردَّ: «أخبار ما يدور في العالم.» قال ألفارو: «أوه، هل يدور في العالم شيء؟» كما حدث من قبلُ، كان مستعدًّا للشك في سخرية. لكن لا، لم تكن هناك أيةُ سخرية.

ألفارو لا يتبادل السخرية. ولا إيلينا. إيلينا امرأةٌ ذكية لكنها لا ترى أية ازدواجية في العالم، أي اختلاف بين ما تبدو عليه الأشياء وحقيقتها. امرأةٌ ذكية وامرأةٌ مثيرة للإعجاب أيضًا، تجمع من أكثر المواد ضآلة — الخياطة، دروس الموسيقى، الأعمال المنزلية — حياةً جديدة، حياةً تطلب منها — بعدل؟ — ألا تفتقد شيئًا. الأمر نفسه مع ألفارو وعمال الشحن والتفريغ؛ لا يمكن أن يحدد عندهم أي حنينٍ سري، أو لهفة على نوعٍ آخر من الحياة. إنه الاستثناء الوحيد، غير الراضي، الشاذ. ما العيب فيه؟ هل هي فقط، كما تقول إيلينا، الطريقة القديمة في التفكير والشعور، الطريقة التي لم تمُت فيه بعدُ، لكنها تركُل وترتجف في سكراتها الأخيرة؟

الأشياء ليست لها قيمتها المناسبة هنا؛ هذا ما يودُّ، في النهاية، أن يقوله لإيلينا. الموسيقى التي نسمعها تفتقر للقيمة. ممارستنا للحب تفتقر للقيمة. الطعام الذي نأكله، نظامنا الغذائي الكئيب على الخبز، يفتقر إلى الجوهر — يفتقر إلى جوهر اللحم الحيواني، بكل ثقل إراقة الدماء والتضحية خلفها. كل كلماتنا الحقيقية تفتقر للقيمة، هذه الكلمات الإسبانية التي لا تأتي من قلوبنا.

تصل الموسيقى إلى نهايتها الجميلة. ينهض. يقول: «لا بد أن أذهب. هل تتذكَّرين كيف قلْتِ لي في ذلك اليوم إنك لا تعاني من الذكريات؟»

– «هل عانيْتُ؟»

---

[٢] مسكِّن: بالإسبانية في الأصل.

– «أجل، عانيْتِ. بينما كنا نشاهد كرة القدم في المنتزه. حسنًا، لسْتُ مثلك. أعاني من الذكريات، أو ظلال الذكريات. أعرف أن من المفترض أن ننسى جميعًا بالمرور هنا، وصحيح أنني ليس لديَّ مخزونٌ عميق أستدعيه. لكن الظلال ما زالت تتباطأ. هذا ما أعاني منه. باستثناء أنني لا أستخدم كلمة أعاني. أتمسك بهذه الظلال.»

تقول إيلينا: «رائع. التنوُّع ضروري.»

يندفع فيدل وديفيد إلى الغرفة، متوردَين، يتصبَّبان عرقًا، ويتفجَّران بالحياة. يسأل فيدل: «هل يُوجَد بسكويت؟»

تقول إيلينا: «في البرطمان في الخزانة.»

يختفي الولدان في المطبخ. تقول إيلينا: «هل تقضيان وقتًا طيبًا؟»

يقول فيدل: «نعم.»

تقول إيلينا: «رائع.»

٩

يسأل الولدَ: «كيف تسير دروس الموسيقى؟ هل تستمتع بها؟»

– «مِم. هل تعلم؟ عندما يكبر فيدل سوف يشتري لنفسه كمانًا ضئيلًا، ضئيلًا» — يوضح كيف سيكون الكمان ضئيلًا؛ عرض كفَّين — «ويرتدي ملابس بهلوان ويعزف على الكمان في السيرك. هل يمكن أن نذهب إلى السيرك؟»

– «يمكن أن نذهب جميعًا إلى السيرك حين يأتي إلى البلدة في المرة القادمة. ويمكن أن ندعو ألفارو معنا، وربما يوجينيو أيضًا.»

يتجهَّم الولد: «لا أريد أن يأتي يوجينيو. يقول أشياءَ عني.»

– «قال شيئًا واحدًا فقط، إن فيك شيطانًا، ولم يكن هذا إلا أسلوبًا في الحديث. كان يعني أن بداخلك شرارةً تجعلك رائعًا في الشطرنج. عفريت.»

– «لا أحبه.»

– «أجل، لن ندعو يوجينيو. ماذا تتعلم في دروس الموسيقى إلى جانب السُّلم الموسيقي؟»

– «الغناء. هل تحب أن تسمعني أغني؟»

– «أحب. لم أكن أعرف أن إيلينا تعلِّم الغناء. إنها مدهشةٌ جدًّا.»

إنهما في الباص، متَّجهان من المدينة إلى الريف. ورغم وجود عددٍ آخر من الركاب، لا يخجل الولد من أن يُغنِّي. بصوته النقي النَّضر يغني:

من يركب هكذا متأخرًا البخار والرياح؟
إنه أب مع طفله؛
يحمل الولد في ذراعه، يُطعِمه سُكَّرًا، ويُقبِّله قبلاتٍ دافئة.[١]

---

[١] بالألمانية في الأصل.

– «هذا كل شيء. إنها إنجليزية. هل يمكن أن أتعلم الإنجليزية؟ لم أعُد أريد أن أتحدث الإسبانية. أكره الإسبانية.»

– «تتحدث الإسبانية بشكل جيد جدًّا. وتُغنِّي بشكلٍ جميلٍ أيضًا. ربما تكون مغنِّيًا حين تكبر.»

– «لا. سأكون ساحرًا في سيرك. ماذا تعني، مَنْ يركب هكذا؟»[٢]

– «لا أعرف. لا أتحدث الإنجليزية.»

– «هل يمكن أن أذهب إلى المدرسة؟»

– «عليك أن تنتظر لبعض الوقت، حتى عيد ميلادك القادم. وحينها يمكن أن تذهب إلى المدرسة مع فيدل.»

يهبطان في محطة مكتوب عليها نهاية الخط؛ حيث يستدير الباص عائدًا. الخريطة التي وجدها في محطة الباص توضِّح المسارات والممرَّات إلى الهضاب؛ وخطتُه أن يتبع طريقًا متعرجًا يؤدي إلى بحيرة، وعلى الخريطة بجانبها نجمة، تدل على أنها بقعةٌ جميلة.

إنهما آخر من ينزل من الركاب، والسائران الوحيدان على الممَر. الريف الذي يمُرَّان به خالٍ. رغم أن الأرض تبدو غنية وخصبة، ليست هناك علامة على سكنٍ إنساني.

يقول للولد: «أليس الجو هنا في الريف هادئًا!» رغم أن الخواء يُذهِله في الحقيقة بكآبته وليس بهدوئه. يمكن أن يوضِّح أن من الأفضل أن يكون هناك حيوانات، ماشية أو أغنام أو خنازير، تقوم بأعمالها الحيوانية. أو حتى أرانب تفعل ذلك.

من حين إلى آخر يشاهدان طيورًا تحلِّق، لكنها بعيدة جدًّا وعالية جدًّا في السماء بشكل يحول دون أن يتأكَّد من نوعها.

يصرِّح الولد: «أنا متعَب.»

يفحص الخريطة. يخمِّن أنهما في منتصف الطريق إلى البحرية. يقول: «سأحملك لبعض الوقت، حتى تستردَّ قوتك.» يؤرجح الولد على كتفَيه. «غنِّ بمجرد أن ترى البحيرة. سوف تكون من حيث تأتي المياه التي نشربها. غنِّ إذا رأيْتَها، غنِّ إذا رأيْتَ أي مياه. أو إذا رأيت أي شخصٍ ريفي.»

يُسرِعان. لكن إما أنه أخطأ في قراءة الخريطة أو أن الخريطة نفسها مخطئة؛ لأنه بعد الارتفاع بحدة ثم الانحدار بشدة، ينتهي المسار بدون تحذير عند حائطٍ قرميدي وبوابةٍ

[٢] بالألمانية في الأصل.

صدئة تعرش عليها لبلابة. وبالإضافة إلى ذلك على البوابة لوحة لونها متآكل بفعل الجو. يقرأ: «البنسيون».[٣]

يسأل الولدُ: «ما معنى البنسيون؟»

– «البنسيون منزل، منزل فخم. لكن هذا البنسيون نفسه قد لا يكون إلا طللًا.»

– «هل يمكن أن نلقي نظرة؟»

يحاولان مع البوابة لكنها لا تتزحزح. بالضبط وهما على وشك العودة، يأتي صوتٌ شاحب لضحكة تحملها نسمة. متتبعَين الصوت، شاقَّين طريقهما بين الأشجار الكثيفة، يصلان إلى نقطةٍ ينتهي عندها الحائط القرميد بسياجٍ عالٍ من شبكة من الأسلاك. على الجانب الآخر من السِّياج ملعب تنس، وفي الملعب ثلاثة لاعبين، رجلان وامرأة، يرتدون ملابس بيضاء، الرجلان تيشيرتَين وبنطلونَين طويلَين، والمرأة جيبة طويلة وبلوزة بياقةٍ مرفوعة، وقبَّعة بحافةٍ خضراء.

الرجلان طويلان، عريضا المنكبَين، نحيلا الخصرَين؛ يبدوان أخوَين، وربما توءمَين. المرأة منضمة مع أحدهما ليلعبا ضد الآخر. إنهم لاعبون متمرِّسون، يرى ذلك فورًا، بارعون يتحركون برشاقة. الرجل المفرد رائع جدًّا، يحفظ مركزه بسهولة.

يهمس الولد: «ماذا يفعلون؟»

يردُّ بصوتٍ منخفض: «إنها لعبة. تُسمَّى التنس. تحاول أن تضرب الكرة بعيدًا عن خصمك. مثل إحراز هدف في كرة القدم.»

تصطدم الكرة في السِّياج. تلتفتُّ المرأة لتستردَّها، تراهما. تقول وتبتسم للولد: «أهلًا.»

يتحرَّك بداخله شيء. مَن هذه المرأة؟ ابتسامتها، صوتها، مشيتها — فيها شيءٌ مألوف بصورةٍ غامضة.

يقول، وحلقه جافٌّ: «صباح الخير.»

ينادي رفيقُها: «هيا، أسرعي. نقطة المباراة!»

لا يتم تبادل أية كلمةٍ أخرى. في الحقيقة، حين يمسك رفيقُها بالكرة بعد دقيقة ينظر إليهما بسخط، وكأنه يوضِّح أنهما غير مرحَّب بهما، وحتى بأن يتفرَّجا.

يهمس الولد: «عطشان.»

---

[٣] بالإسبانية في الأصل La Residencia.

يقدِّم له قارورة المياه التي أحضرها.

– «هل معنا أي شيءٍ آخر؟»

يرد هامسًا: «ماذا تريد — عصيرًا؟» ويندم فورًا على توتُّره. من حقيبته يأخذ برتقالًا ويقطع ثقبًا في القشرة. يمصُّ الولد بشراهة.

يسأل: «هل هذا أفضل؟»

يومئ الولد. «هل سنذهب إلى البنسيون؟»

– «لا بد أن هذا هو البنسيون. لا بد أن ملعب التنس جزء منه.»

– «هل يمكن أن ندخل؟»

– «يمكن أن نحاول.»

– تاركَين لاعبي التنس خلفهما، يغطسان بين الأشجار المتشابكة، يتتبعان الجدار، حتى يصلا إلى طريقٍ قذرٍ يؤدي إلى بوابتَين مرتفعتَين من الحديد. خلف القضبان، خلال الأشجار، يمكن أن يلمحا مبنًى فخمًا من الحجر الداكن.

رغم أن البوابتَين مُوصَدتان لكنهما ليستا مغلقتَين بقفل. يمُرَّان خلالهما ويسيران في دربٍ بعمق الكاحل من الأوراق المتساقطة. هناك لوحة عليها سهم يشير إلى مدخلٍ مقوَّس يؤدي إلى فناءٍ في مركزه تمثال من الرخام، صورةٌ مكبَّرة لامرأة أو ربما مَلَك في ملابسَ فضفاضة تحدِّق في الأفق، ممسكةً بشعلةٍ مشتعلة.

يقول صوت: «مساء الخير سيدي. هل يمكن أن أساعدك؟»

المتحدث رجلٌ عجوز، وجهه مجعَّد، وظهره مَحْني. يرتدي زيًّا أسودَ باهتًا؛ ظهر من مكتبٍ صغير أو غرفة في المدخل.

– «أجل. أتينا للتوِّ من المدينة. أتساءل إن كان يمكن أن أتكلم مع أحد السكان، سيدة تلعب التنس في الملعب في الخلف.»

– «وهل تودُّ السيدة المقصودة الحديث معك، يا سيدي؟»

– «أعتقد ذلك. هناك مسألةٌ مهمة أريد مناقشتَها معها. مسألةٌ عائلية. لكن يمكن أن ننتظر حتى تنتهي المباراة؟»

– «واسم السيدة؟»

– «لا أستطيع إخبارك به، لأنني لا أعرفه. لكن يمكن أن أصفَها. يمكن أن أقول إنها في الثلاثين تقريبًا، وزنها متوسِّط، وشعرها أسودُ تردُّه للخلف بعيدًا عن وجهها. إنها بصحبة شابَّين. وترتدي ملابس كلها بيضاء.»

– «في البنسيون عدد من السيدات بهذا المظهر العام، يا سيدي، عددٌ منهن يلعبن التنس. التنس تسليةٌ شعبية تمامًا.»

يهز الولد كمَّه. يهمس: «حدِّثه عن الكلب.»

– «الكلب؟»

يومئ الولد: «الكلب الذي معهم.»

يكرِّر: «يقول صديقي الصغير إن معهم كلبًا.» هو نفسه لا يتذكر أي كلب.

يقول البواب: «آه!» يتراجع إلى عرينه، ويسحب الباب الزجاجي خلفه. في الضوء الشاحب يشاهدانه يُقلِّب في الأوراق. ثم يُمسِك بتليفون ويطلب رقمًا ويُنصِت، يضع السماعة، ويعود: «آسف، سيدي، لا أحد يرُد.»

– «لأنها في الخارج في ملعب التنس. ألا يمكن فقط أن نذهب إلى الملاعب؟»

– «آسف، لكن ذلك غير مسموح به. مرافقُنا محظورة على الزوَّار.»

– «يُمكِن إذن أن ننتظر هنا حتي تُنهي اللعب؟»

– «يمكنكما.»

– «هل يمكن أن نتمشَّى في الحديقة ونحن ننتظر؟»

– «يمكنكما.»

يتجوَّلان في الحديقة الكثيفة الأشجار.

يسأل الولدُ: «مَن السيدة؟»

– «ألم تتعرَّف عليها؟»

يهزُّ الولد رأسه.

– «ألم تشعر بحركةٍ غريبةٍ في صدرك حين تحدَّثَت إلينا، حين قالت أهلًا — هزة في أعماق القلب، وكأنك رأيتَها من قبلُ، في مكانٍ آخر؟»

يهزُّ الولد رأسه بشك.

– «أسأل لأن السيدة قد تكون الشخصية التي نبحث عنها. هذا، على الأقل، ما أشعُر به.»

– «هل ستكون أمي؟»

– «لا أعرف بالتأكيد. علينا أن نسألها.»

يُكمِلان جولة في الحديقة. يعودان إلى غرفة البوَّاب، ينقر على الزجاج. يسأل: «هل تمانع في الاتصال بالسيدة مرةً أخرى؟»

يطلب البوَّاب رقمًا. يُوجَد ردٌّ هذه المرة. يسمعه يقول: «جنتلمان عند البوَّابة ليراك. أجل ... أجل ...» يستدير إليهما: «قلْتَ إنها مسألةٌ عائلية، أليس كذلك، يا سيدي؟»

– «أجل، مسألةٌ عائلية.»

– «والاسم؟»

– «لا أهمية للاسم.»

يُغلِق البوَّاب الباب ويستأنف مكالمته. يظهر في النهاية. يقول: «سوف تراك السيدة، يا سيدي. لكن هناك مشكلةٌ صغيرة. غير مسموح للأطفال بدخول البنسيون. أخشى أنه سيكون على ولدك الصغير الانتظار هنا.»

– «غريب. لماذا لا يُسمَح للأطفال؟»

– «غير مسموح للأطفال بالدخول إلى البنسيون، يا سيدي. تلك هي القاعدة. لا أضع القواعد، أطبِّقها فقط. سيكون عليه البقاء هنا وأنت تقوم بزيارتك العائلية.»

يسأل الولدَ: «هل ستبقى مع الجنتلمان؟ سوف أعود بأسرعِ ما أستطيع.»

يقول الولد: «لا أريد. أريد أن آتيَ معك.»

– «أفهم ذلك. لكنني متأكد من أن السيدة بمجرد أن تسمع أنك تنتظر هنا في الخارج ستخرج وتقابلك. هكذا هل ستضحي تضحيةً كبرى وتنتظر هنا مع الجنتلمان، فقط لبرهةٍ قصيرة؟»

– «هل ستعود؟ هل تعِد؟»

– «بالطبع.»

يصمت الولد، ولا ينظُر في عينه.

يسأل البوَّابَ: «ألا يمكن استثناء هذه الحالة؟ سيكون هادئًا جدًّا، لن يزعج أحدًا.»

– «آسف سيدي، لا استثاءات. أين نكون إذا بدأنا بالاستثناءات؟ بسرعة سيرغب كل شخص بأن يكون استثناء، وحينها لن تكون هناك قواعد، هل ستدخل؟»

يقول للولد: «يمكن أن تلعب في الحديقة.» ويقول للبوَّاب: «يُمكِن أن يلعب في الحديقة، أليس كذلك؟»

– «بالطبع.»

يقول للولد: «اذهب وتسلَّق شجرة. هناك الكثير من الأشجار التي يمكن تسلُّقها. سأعود بسرعة.»

متبعًا تعليمات البوَّاب، يعبُر الباحة، ويمر من مدخلٍ ثانٍ، ويطرق على بابٍ عليه واحد.[٤] ليس هناك ردٌّ. يدخل.

إنه في غرفة انتظار. الحوائط مغطَّاة بورقٍ أبيض، بموتيفة من قيثارة وزنبق بالأخضر الباهت. من مصابيحَ مغطَّاة ينبعث لونٌ أبيض إلى أعلى بتحفظ. هناك أريكة من الجلد الصناعي الأبيض، وكرسيان وثيران. على طاولةٍ صغيرةٍ بجوار الباب نصف دستة من الزجاجات، وأكواب من كل شكل.

يجلس، ينتظر. تمُر الدقائق. ينهض ويحدِّق في الرواق. لا علامة على وجود حياة. بتكاسُل يفحص الزجاجات. شيري بالكريمة، شيري جاف. فيرموت. الكحول ٤٪ من الحجم. أوفيليدو. أين أوفيليدو؟

ثم تظهر فجأة، وما زالت في ملابس التنس، أكثر روعةً مما بدت في الملعب، ممتلئة تقريبًا. تحمل طبقًا، تضعه على الطاولة. تجلس على الأريكة بدون أن تحيِّيَه، وتضع ساقًا على ساق تحت جيبتها الطويلة. تقول: «أردْتَ أن تراني؟»

– «أجل.» يدق قلبه بسرعة. «شكرًا على حضورك. اسمي سيمون. لا تعرفينَني، لا أهمية لي. جئتُ نيابةً عن شخصٍ آخر، باقتراح.»

تقول: «ألن تجلس؟ تأكل شيئًا؟ تشرب كأسًا من الشيري؟»

بيدٍ مرتجفة يصب كأسًا من الشيري ويأخذ سندوتشًا من السندوتشات المثلَّثة الضئيلة الرقيقة. خيار. يجلس أمامها، تحت تأثير الخمر الحلوة. يذهب مباشرة إلى هدفه. يزول التوتُّر، وتأتي الكلمات باندفاع.

– «أحضرْتُ شخصًا إلى هنا. في الحقيقة الطفل الذي رأيْتِه في ملعب التنس. إنه في الخارج، ينتظر. لم يسمح البوَّاب بدخوله؛ لأنه طفل. هل يمكن أن تأتي وتقابليه؟»

– «هل أحضرْتَ طفلًا ليقابلني؟»

– «أجل.» ينهض ويصبُّ لنفسه كأسًا أخرى من الشيري المعتَّق. «آسف — لا بد أنه أمرٌ مرَّ بك، غريبان يصلان بدون سابق إنذار. لكنني لا يمكن أن أصف لك أهمية الأمر. كنا ...»

بدون تنبيه يفتح الباب ويكون الولد نفسه أمامهما، يلهث.

[٤] واحد: بالإسبانية في الأصل.

يشير للولد: «تعالَ هنا. هل تتعرف على السيدة الآن؟» يلتفت إليها. يتجمد وجهُها ذعرًا. «هل يمكن أن يصافحكِ؟» وللولد: «تعالَ، صافِح السيدة.»

يقف الولد متجمِّدًا.

الآن يصل البوَّاب نفسه في المشهد، منزعجًا بوضوح. يقول: «آسف، سيدي، لكن هذا ضد القواعد، كما نبهتُك. لا بد أن أطلب منك أن تغادر.»

يلتفت إلى المرأة متوسلًا. من المؤكَّد أنها لا ينبغي أن تخضع للبوَّاب وقواعده. لكنها لم تتفوَّه بكلمة احتجاج.

يقول للبوَّاب: «ليكن عندك قلب. قطعنا طريقًا طويلًا. ماذا إذا ذهبنا جميعًا إلى الحديقة؟ هل يظل ذلك ضد القواعد؟»

– «لا، يا سيدي. لكن لاحظ أن البوَّابات تُغلَق في الخامسة بالضبط.»

يخاطب المرأة. «هل يمكن أن نخرج إلى الحديقة؟ من فضلك! أعطيني فرصة للتفسير.»

في صمت، يمسك الولد يده، ويعبُر الثلاثةُ الباحةَ إلى الحديقة المتشابكة.

يقول، محاولًا تنقية الجو، ومحاولًا أن يبدو راشدًا عاقلًا: «لا بد أنها كانت بنايةً فخمةً ذات يوم. ومن المؤسف أن الحديقة مهمَلة بهذا الشكل.»

– «لدينا بستانيٌّ واحد فقط بدوامٍ كامل. إنها كبيرة جدًّا بالنسبة له.»

– «وأنت نفسك؟ هل أنت مقيمة هنا منذ وقتٍ طويل؟»

– «منذ بعض الوقت. إذا تتبعنا هذا المسار، سوف نخرج إلى بركة بها سمكٌ ذهبي. قد يحب ابنك ذلك.»

– «في الحقيقة لستُ والده. أعتني به. أنا وصيٌّ من نوعٍ ما. مؤقتًا.»

– «أين والداه؟»

– «والداه ... هذا سبب وجودنا هنا اليوم. الولد ليس له أبوان، ليس بالطريقة المعتادة. كان هناك حادثٌ على متن السفينة في الرحلة إلى هنا. وضاعت رسالة ربما كانت تفسِّر كل شيء. ونتيجةً لذلك أبواه تائهان، أو إنه، بشكلٍ أكثر دقة، تائه. انفَصَل عن أمه، ونُحاوِل العثور عليها. والدُه مسألةٌ أخرى.»

وصلوا إلى البِركة الموعودة، وفيها حقًّا أسماكٌ ذهبية، صغيرة وكبيرة. يركع الولَد على الحافة، مستخدمًا ورقة بردي في محاولة لإغرائها.

يقول، متحدثًا برقَّة وسرعة: «لأكن أكثر دقة. الولد ليس له أم. منذ نزلنا من السفينة ونحن نبحث عنها. هل تفكِّرين في أخذه؟»

– «أخذه؟»

– «أجل، أن تكوني أمًّا له. أن تكوني أمَّه. هل تأخذينه باعتباره ابنَك؟»

– «لا أفهم. في الحقيقة لا أفهم شيئًا على الإطلاق. هل تقترح أن أتبنَّى الولد؟»

– «ليس أن تتبنِّيه. أن تكوني أمه، أمه تمامًا. لكلٍّ منا أمٌّ واحدة فقط. هل يمكن أن تكوني تلك الأم والأم الوحيدة له؟»

حتى تلك النقطة كانت تُنصِت بانتباه. لكنها الآن تبدأ التحديق حولها ببعض العنف، وكأنها تأمل أن يأتي شخص ما — البواب، أو أحد رفيقَيها في التنس — لإنقاذها.

تقول: «ماذا عن أمه الحقيقية؟ أين هي؟ هل ما زالت على قيد الحياة؟»

كان يظن أن الطفل مستغرق جدًّا في الأسماك الذهبية بحيث لا يسمع. لكنه يصرخ الآن فجأة: «ليست ميتة!»

– «أين هي إذن؟»

يصمت الطفل. ويصمت هو أيضًا برهة. ثم يتحدث: «من فضلكِ صدِّقيني — من فضلك خذيها حقيقة — ليست مسألةً بسيطة. الولد بدون أم. لا أستطيع أن أوضِّح لك ما يعنيه هذا لأنني لا أستطيع أن أوضِّحه لنفسي. لكنني أعدُك، إذا قلتِ نعم ببساطة، بدون تروٍّ، بدون إعادة نظر، كل ما سوف يأتي واضحٌ لك، واضحٌ مثل النهار، أو هذا ما أعتقده. وبالتالي: هل تقبلين هذا الطفل ابنًا لك؟»

تحدِّق في رسغها، ليست فيه ساعة. تقول: «الوقت يتأخر. ينتظرني أخواي.» تستدير وتسرع عائدة باتجاه البنسيون، وجيبتُها تحف في العشب.

يجري خلفَها. يقول: «من فضلك! لحظةً واحدة. ها. دعيني أكتب اسمه. اسمه ديفيد. هذا هو الاسم الذي يحمله، الاسم الذي مُنِح له في المعسكر. وهذا هو المكان الذي نعيش فيه، خارج المدينة مباشرة، في القرية الشرقية. من فضلكِ فكِّري في الأمر.» يضغط قصاصةً من الورق في يدها. تنصرف.

يسأل الطفلُ: «ألا تريدني؟»

– «تريدك بالطبع. أنت ولدٌ وسيمٌ وذكي، مَن لا يريدك؟ لكن لا بد أولًا أن تعتاد على الفكرة. وضَعنا البَذرة في عقلها؛ والآن ينبغي أن نصبر ونسمح لها بالنمو. طالما كان كلٌّ منكما يُحب الآخر، من المؤكَّد أن تنمو وتزدهر. تُحب السيدة، أليس كذلك؟ يمكن أن نرى كم هي طيبة ولطيفة.»

يصمت الولد.

وحين يجدان طريقهما عائدَين إلى المحطة يكون الليل قد حلَّ تقريبًا. في الباص ينام الولد في ذراعَيه؛ عليه أن يحمله، نائمًا، من محطة الباص إلى الشقة.

في منتصف الليل يستيقظ من نومٍ عميق. إنه الولد، يقف بجوار سريره، والدموع تتدفَّق على وجهه. ينتحب: «جائع!»

ينهض، يُدفئ بعض الحليب، ويضع الزبد على شريحةٍ من الخبز.

يسأل الولدُ، وفمه ممتلئ: «هل سنعيش هناك؟»

– «في البنسيون؟ لا أعتقد ذلك. لن يكون هناك شيءٌ أفعله. سوف أصبح مثل نحلة تحلِّق حول الخلية في انتظار أوقات الطعام. لكننا يمكن أن نُناقِشَ الأمر في الصباح. هناك الكثير من الوقت.»

– «لا أريد أن أعيش هناك. أريد أن أعيش هنا، معك.»

– «لن يرغمك أحد على أن تعيش حيث لا تريد. والآن لنعُد إلى السرير.»

يجلس مع الطفل، يمسِّد جسمه برقَّة حتى نام. أريد أن أعيش معك. ماذا إذا تحقَّقَت هذه الرغبة بمرارة؟ هل عليه أن يكون أبًا وأمًّا للطفل، أن يربِّيَه بطرق الخير ويظل يعمل طولَ الوقت في أحواض السفن؟

يلعن نفسه داخليًّا. إذا كان فقط عرض حالتهما بشكل أكثر هدوءًا، بشكل أكثر عقلانية! لكن لا، لا بُد أن يتصرف مثل مجنون، منفجرًا في المرأة المسكينة بتوسُّلاته وطلباته. خذي هذا الطفل! أن تكوني أمه، أمه الوحيدة! كان من الأفضل أن يجد طريقةً لإعطائها الولد في ذراعَيها، جسدًا لجسد، لحمًا للحم. الذكريات إذن تُوجَد أعمق مما قد توقظ الفكرة كلها مرةً أخرى، ويكون كل شيءٍ على ما يُرام. لكن للأسف، جاءت مفاجئةً جدًّا لها، هذه اللحظة العظيمة، مثلما جاءته مفاجئة جدًّا. انفجرَت فيه مثل نجم، وأفشلها.

١٠

لكن كما يتضح، لم يضع كل شيء. بمجرد حلول الظهيرة، يصعَد الولد السلالم مندفعًا في حالة إثارةٍ هائلة. يصرخ: «إنهما هنا، إنهما هنا!»

– «مَن هنا؟»

– «الليدي من البنسيون! الليدي التي ستكون أمي! أتَت في سيارة.»

السيدة التي تصل إلى الباب مرتديةً فستانًا رسميًّا أزرق داكنًا، وقبَّعةً غريبةً بعضَ الشيء بدبوسٍ ذهبيٍّ مبهرج، وقفازًا أبيض — لا يصدِّق عينَيه — وكأنها تزور محاميًا، لا تأتي وحدها. إنها بصحبة الشاب الطويل والنحيف الذي واجه باقتدار المتنافسَيْن في ملعب التنس. توضِّح: «أخي دييجو.»

يومئ دييجو له ولا يتفوَّه بكلمة.

يقول لضيفَيه: «اجلسا من فضلكما. إذا كنتما لا تمانعان في استخدام السرير ... لم نشترِ أثاثًا بعدُ. يمكن أن أقدِّم لكما كوبًا من الماء؟ لا؟»

تجلس السيدة من البنسيون بجوار أخيها على السرير؛ تنقر بعصبية على قفَّازها، وتسلِّك حنجرتها. تقول: «هل تكرر علينا ما قلتَه أمسِ؟ ابدأ من البداية، البداية تمامًا.»

يرُد، محاولا أن يبدو متروِّيًا، وفي المقام الأول أن يبدو عاقلًا: «إذا بدأتُ من البداية تمامًا سوف نبقى هنا اليوم كله. اسمحا لي أن أقول ما يلي. أتينا، ديفيد وأنا، إلى هنا، كما يأتي الجميع، من أجل حياةٍ جديدة، بدايةٍ جديدة. ما أريده لديفيد، وما يريده ديفيد أيضًا، حياةٌ طبيعية مثل حياة أي فتًى. لكن — من المنطقي — ليعيش حياةً طبيعية يحتاج إلى أم، يحتاج إلى أن يكون مولودًا لأم، إذا جاز التعبير. هل أنا مُحق، أليس كذلك؟» ويقول ملتفتًا للولد: «هذا ما تريدُه. تريدُ أمك الحقيقية.»

يومئ الولد بقوة.

– «كنتُ متأكدًا دائمًا — لا تسألاني كيف — أنني سأعرف أم ديفيد حين أراها؛ والآن وقد قابلتكِ أعرف أنني كنت محقًّا. لا يمكن أن تكون الصدفة هي التي قادَتْنا إلى البنسيون. لا بد أن يدًا ما كانت تُرشِدنا.»

يرى أن دييجو هو الذي سيكون البندقة التي يصعُب كسرها؛ دييجو لا المرأة، التي لا يعرف اسمها ولا يريد أن يسأل عنه. ما كانت المرأة لتكون هنا لو لم تكن مستعدةً لتغيير رأيها.

يكرر: «يدٌ خفية. حقًّا.»

تخترقه نظرة دييجو. تقول: كذَّاب!

يأخذ نفَسًا عميقًا. «لديكِ شكوك، يمكن أن أرى. كيف يمكن أن يكون هذا الطفل الذي لم تقع عيناي عليه من قبل طفلي؟ تسألين نفسك. أتوسَّل إليك: ضعي شكَّك جانبًا، استمعي إلى ما يقوله قلبُك. انظري إليه. انظري إلى الولد. ماذا يقول قلبُك؟»

لا تردُّ الشابَّة، لا تنظر إلى الولد إطلاقًا، لكنها تلتفت إلى أخيها، وكأنها تقول، هل ترى؟ كما قلتُ لك. استمع إلى اقتراحه الذي لا يصدَّق، هذا الاقتراح المجنون! ماذا أفعل؟

بصوتٍ منخفضٍ يتحدث الأخ: «هل هناك مكانٌ منعزل يمكن أن نذهب إليه، أنت وأنا؟»

– «بالطبع. يمكن أن نخرج.»

يقود دييجو إلى الدور الأرضي، عَبْر الفناء، وعَبْر المرج، إلى دكةٍ في ظل شجرة. يقول: «اجلس.» يتجاهل دييجو الدعوة. يجلس هو. يقول: «كيف يمكن أن أساعدَك؟»

يسند دييجو ساقه على الدكَّة ويميل عليه. «أولًا، من أنت، ولماذا تتعقَّب أختي؟»

– «لا يهمُّ من أنا. أنا لست مهمًّا. أنا خادم. أعتني بالطفل. وأنا لا أتعقَّب أختك. إنني أتعقَّب أم الطفل. هناك فرق.»

– «من الطفل؟ من أين التقطتَه؟ هل هو حفيدك؟ أين والداه؟»

– «ليس حفيدي أو ابني. هو وأنا لسنا أقارب. جمعَتْنا معًا حادثة على السفينة حين فقد وثائق كان يحملها. لكن لماذا ينبغي أن يكون أي شيءٍ من هذا مهمًّا؟ نصل إلى هنا، جميعًا، أنت وأنا وأختك والولد، وننسى الماضي. يتصادف أن يكون الولد في رعايتي. قد لا يكون قدَرًا اخترتُه لنفسي، لكنني أتقبَّله. بمرور الوقت أصبح معتمدًا عليَّ. قوِي الارتباط بيننا. لكن لا يمكن أن أكون كلَّ شيءٍ بالنسبة له. لا يمكن أن أكون أمه.

أختك — آسف، لا أعرف اسمها — هي أمه، أمه الطبيعية. وهي تعرف ذلك من قلبها. لأي شيءٍ آخر تعتقد أنها هنا اليوم؟ على السطح قد تبدو هادئة، لكن تحت السطح أستطيع أن أرى أن هذه الهبة العظيمة، هبة الطفل، تُثيرها.»

– «غير مسموح بالأطفال في البنسيون.»

– «لا يجرؤ أحدٌ على فصل أمٍّ عن ابنها، بصرف النظر عما تقوله اللوائح. وأختك ليست مُضطرَّة للعيش في البنسيون. يمكن أن تأخذ الشقة هنا. إنها شقَّتها. أتنازلُ عنها لها. سوف أعثُر على مكانٍ آخر أقيم فيه.»

يميل دييجو إلى الأمام وكأنه يُدلِي بسر، ويعطيه صفعةً مفاجئةً على رأسه. يُصدَم، محاولًا حماية نفسه، يضرب ضربةً ثانية. ليست ضرباتٍ ثقيلة، لكنها تهزُّه.

يصرخ وينهض: «لماذا تفعل ذلك!»

يهمس دييجو: «لسْتُ أحمق! هل تعتقد أنني أحمق؟» ومرةً أخرى يرفع يده مهدِّدًا.

– «لم أعتبرك أحمق للحظة.» يحتاج إلى استرضاء هذا الشاب، ولا بد أنه منزعج — وكيف لا ينزعج؟ — بهذا التدخُّل الغريب في حياته. «أعترف بأنها قصةٌ غير عادية. لكن استبعِد الفكرةَ من أجل الطفل. إن احتياجاتِه هي الأعظم.»

ليس لتوسُّله أي تأثير؛ يحدِّق دييجو بعدوانية كما كان من قبلُ. يلعب بورقته الأخير. يقول: «هيا، دييجو، انظُر في قلبك! إذا كان في قلبك نيةٌ طيبة، فمن المؤكد أنك لن تُبعِد طفلًا عن أمه!»

يقول دييجو: «ليس من حقِّك أن تشُك في طيب نواياي.»

– «بَرهِنْ عليها إذن! عُد معي وبَرهِن للطفل عن مدى قدرتك على إبداء طيب النية. تعالَ!» وينهض ويأخذ ذراع دييجو.

يرحِّب بهما مشهدٌ غريب. أخت دييجو تركع على السرير وظهرُها لهما، وساقاها حول الولد — وهو يستلقي تمامًا على ظهره تحتها — وفستانها مرفوع بشكل يسمح بنظرة على الفخذَين المدملجَين، الثقيلَين إلى حدٍّ ما. تدندن بصوتٍ عالٍ رقيق: «أين العنكبوت، أين العنكبوت …؟» وأصابعها تزحف من صدره إلى إبزيم حزامه؛ تُزغزِغه، فيهتزُّ في ضحكةٍ لا حيلة له فيها.

يعلن بصوتٍ عالٍ: «عدنا». تندفع من السرير ووجهُها متورِّد.

يقول الولد: «إيناس وأنا نلعب لعبة.»

إيناس! هذا هو اسمها! وفي الاسم الجوهر!

يقول الأخ: «إيناس!» ويشير لها بفظاظة. مسوِّية فستانها، تُسرِع خلفه. من الدهليز تأتي همساتٌ غاضبة.

تسير إيناس عائدة، وأخوها وراءها. تقول: «نريد أن تكرِّر الأمر كله مرةً أخرى.»

– «تريدين أن أكرِّر اقتراحي؟»

– «أجل.»

– «حسنًا جدًّا. أقترح أن تصبحي أم ديفيد. أتنازل عن كل مطالبة به (لديه مطلبٌ مني، لكن هذا أمرٌ مختلف). سوف أوقِّع أية ورقةٍ تضعينها أمامي لتأكيد ذلك. يمكن أن تعيشا أنت وهو معًا كأم وابن. يُمكِن أن يحدُث ذلك في أقرب وقتٍ تحبِّينه.»

يُصدِر دييجو شخرة سخط. يصرخ: «هذا كله هُراء! لا يمكن أن تكوني أم هذا الطفل، له أمٌّ بالفعل، الأم التي ولدَته! بدون إذن أمه لا يمكن أن تتبنِّيه. اسمعيني!»

يتبادل نظرةً صامتة مع إيناس. تقول: «أريده»، لا تُخاطبه لكن تُخاطِب أخاها. تكرِّر: «أريده. لكن لا يمكن أن نبقى في البنسيون.»

– «كما أخبرْتُ أخاك، مرحبًا بانتقالكِ إلى هنا. يمكن أن يحدث هذا اليوم. أنتقل على الفور. ويكون هذا بيتكِ الجديد.»

يقول الولد: «لا أريد أن تذهب.»

– «لن أذهب بعيدًا يا ولدي. أذهب وأُقيم مع إيلينا وفيدل. يمكن أن تأتيَ أنت وأمك للزيارة وقتما تشاء.»

يقول الولد: «أريد أن تبقى هنا.»

– «هذا جميل منك، لكن لا أستطيع أن آتي بينك وبين أمك. من الآن فصاعدًا، تكون أنت وهي معًا. تكونان أسرة. لا يمكن أن أكون جزءًا من هذه العائلة. لكنني سوف أكون مساعدًا، خادمًا ومساعدًا. أعدك.» ويلتفت إلى إيناس: «اتفقنا؟»

– «أجل.» والآن صارت إيناس، وقد استقرَّت على رأي، متعجرفة تمامًا. «سنعود غدًا. سنُحضِر كلبنا. هل سيعترض الجيران على الكلب؟»

– «لن يجرُءوا.»

حين تعود إيناس وأخوها في الصباح التالي، يكون قد نظَّف الأرضية ودَعَك البلاط، وغيَّر الملاءات؛ وحزم أمتعته واستعد للذهاب.

يترأس دييجو الموكب القادم، حاملًا حقيبةً كبيرةً على كتفه. يضعُها على السرير. يعلن بشكلٍ بغيض: «هناك المزيد قادم.» وبالفعل كان هناك: حقيبة أكبر، وكومة من مفارش السرير تشمل لحافًا كبيرًا.

لا يتباطأ سيمون في توديعه. يقول للولد: «كن طيبًا.» ويقول لإيناس: «لا يأكل الخيار. وأبقي النور مشتعلًا حين يذهب إلى السرير، لا يُحب النوم في الظلام.»

لا يصدُر عنها أية إشارة على أنها تسمعه. تقول، وهي تفرك يدَيها معًا: «الجو بارد هنا. هل يكون باردًا دائمًا؟»

– «سوف أشتري مِدْفأةً كهربية. وأحضرها بعد يوم أو اثنَين.» لدييجو يقدِّم يده، ويأخذها دييجو على مضض. ثم يأخذ حزمته ويُسرِع بدون نظرة إلى الوراء.

أعلن أنه سوف يقيم مع إيلينا، لكنه في الحقيقة ليست لديه مثل هذه الخطة. يشُق طريقه إلى أحواض السفن، المهجورة في عطلة نهاية الأسبوع، ويخزن متعلقاته في كوخٍ صغيرٍ مقابل رصيف اثنين حيث يحتفظ الرجال بأمتعتهم. ثم يرجع عائدًا إلى البلوكات ويطرق على باب إيلينا. يقول: «أهلًا، هل يمكن أن نتحدَّث معًا؟»

على الشاي يحدِّد لها التدبير الجديد. «أنا متأكِّد من أن ديفيد سوف يتباهى الآن بأن له أمًّا تعتني به. لم يكن أمرًا طيبًا بالنسبة له أن أربِّيه. كان تحت ضغطٍ شديدٍ جدًّا ليصبح شابًّا. يحتاج الطفل إلى طفولته، ألا تعتقدين ذلك؟»

ترُد إيلينا: «لا أصدِّق أذنيَّ. الطفل ليس مثل الكتكوت يمكن وضعه تحت جناح دجاجةٍ غريبة لتربِّيه. كيف استطعتَ إعطاء ديفيد لواحدة لم تقع عليها عيناك من قبلُ، امرأة ربما تكون تحت تأثير نزوة وسوف تفقد اهتمامها قبل أن ينتهي الأسبوع وترغب في إعادته إليك؟»

– «من فضلك، إيلينا، لا تُصدِري حكمًا على إيناس قبل أن تقابليها. لا تقوم بنزوة؛ على العكس، أعتقد أنها تحت تأثير قوةٍ أكبر منها. أعوِّل عليك لمساعدتنا، لمساعدتها. إنها في مقاطعةٍ مجهولة؛ ليست لديها خبرة بالأمومة.»

– «لا أُصدِر حكمًا على إيناسك هذه. إذا طلبت مساعدة فسوف أقدِّمها. لكنها ليست أم ولدك، وينبغي أن تتوقَّف عن وصفها بذلك.»

– «إيلينا، إنها أمه. وصلْتُ إلى هذه الأرض مجردًا من كل شيء إلا قناعة راسخة. إنني سأعرف أم الولد حين أراها. وفي اللحظة التي رأيتُ فيها إيناس عرفتُ أنها هي.»

– «اتبعتَ حَدْسك؟»

– «أكثر من ذلك. قناعة.»

– «قناعة، حَدْس، ضلالة — ما الفرق حين لا يمكن مناقشتُه؟ هل خطر ببالك أننا إذا عشنا بحَدْسنا لسقط العالم في الفوضى؟»

– «لا أفهم لماذا ينتج ذلك. وما الخطأ في بعض الفوضى من حينٍ إلى آخر إذا كان الخير ينتُج منه؟»

تهزُّ إيلينا كتفيها. «لا أرغب في الدخول في جدال. فات ابنَك درسُ اليوم. ليس الدرس الأول الذي يفوته. إذا كان سيتخلى عن الموسيقى، فأخبرني من فضلك.»

– «لم يعُد لي أن أقرِّر. ومرةً أخرى، ليس ابني، لستُ والده.»

– «حقًّا؟ تُواصِل إنكار ذلك، لكنني أندهش أحيانًا. لن أقول أي شيءٍ آخر. أين ستقضي الليلة؟ في حِضْن أسرتك التي عثرتَ عليها حديثًا؟»

– «لا.»

– «هل تريد أن تنام هنا؟»

ينهض من جوار الطاولة. «أشكرك، لكنني وضعْتُ ترتيباتٍ أخرى.»

مفكِّرًا في أن الحمائم التي تعشعش في المزراب تخدش وتخشخش وتهدل بدون توقف، ينام بشكلٍ جيد تمامًا في تلك الليلة، على سرير من الأجولة في مخبئه الصغير. يمضي بدون فطور، لكنه يبقى قادرًا على العمل يومًا كاملًا ويشعر بأنه في حالةٍ طيبة في نهايته، وإن يكن ضعيفًا بعض الشيء، وشاحبًا بعض الشيء.

يسأل ألفارو عن الولد، ويتأثر جدًّا باهتمام ألفارو، وللحظة يفكر أن يُخبره بالخبر الطيب، خبر العثور على أم الولد. لكن حينذاك، واضعًا في الاعتبار ردَّ فعل إيلينا على الخبر نفسه، يُراجِع نفسه ويحكي كذبة؛ ديفيد أخذَته مدرستُه إلى ملتقًى موسيقيٍّ كبير.

يقول ألفارو، ويبدو مرتابًا: «ملتقًى موسيقي، ما هذا، وأين يُعقَد؟»

يرُد: «ليست لديَّ فكرة»، ويغيِّر الموضوع.

يبدو له أنه سيكون من المؤسف أن يفقد الولد التماس مع ألفارو ولا يرى مرةً أخرى قط صديقة الملك، حصان الجَر. يتمنى، بمجرد أن تقوى علاقة إيناس به، أن تسمح للولد بزيارة أحواض السفن. الماضي ملبَّد بغيوم النسيان بحيث لا يمكن أن يكون متأكدًا من أن ذكرياته صحيحة وليست مجرد قصصٍ يختلقها، لكنه يعرف أنه ما كان ليُحبَّه إذا كان قد سمح له، وهو طفل، بأن يبدأ الصباح في صحبة رجالٍ كبار ويقضي اليوم يساعدهم في تحميل السفن الضخمة وتفريغها. لا يمكن أن تكون جرعة الواقع إلا طيبة بالنسبة للطفل، كما يبدو له، طالما لم تكن الجرعة مفاجئةً جدًّا أو كبيرةً جدًّا.

كان ينوي أن يتصل بمحل البرتقال من أجل الإمدادات، لكنه تأخر جدًّا، وحين يصل إلى المحل يجده مغلقًا. جائعًا، ووحيدًا أيضًا، يطرق مرةً أخرى على باب إيلينا. يفتح فيدل الباب، في بيجامته. يقول: «أهلا، فيدل الصغير، هل يمكن أن أدخل؟»

تجلس إيلينا إلى الطاولة، تخيط. لا ترحِّب به، لا ترفع عينَيها عن عملها.

يقول: «أهلًا. هل هناك خطأ؟ هل حدث شيء؟»

تهزُّ رأسها.

يقول فيدل: «لم يعُد ديفيد يستطيع المجيء إلى هنا. تقول السيدة الجديدة إنه لا يمكن أن يأتي.»

تقول إيلينا: «السيدة الجديدة أعلنَت أن ابنكَ غير مسموحٍ له باللعب مع فيدل.»

– «لكن لماذا؟»

تهزُّ كتفَيها.

يقول: «أعطيها وقتًا لتستقر. الأمومة جديدةٌ عليها. لا بد أن تكون غريبةً بعض الشيء في البداية.»

– «غريبة؟»

– «غريبة في أحكامها. مُفرِطة في الحذَر.»

– «مثل منع ديفيد من اللعب مع أصدقائه؟»

– «لا تعرفك ولا تعرف فيدل. بمجرد أن تعرفك، سوف ترى مدى تأثيرك الطيب.»

– «وكيف تقترح أن تعرفنا؟»

– «أنت وهي لا بد أن تلتقيا صدفة. أنتما جارتان رغم كل شيء.»

– «سوف نرى. هل أكلتَ؟»

– «لا. كانت المحلات مغلقة حين وصلتُ إلى هناك.»

– «تقصد محل البرتقال. محل البرتقال يُغلِق يوم الإثنَين. كان يمكن أن أخبرك بذلك. يمكن أن أقدِّم لك سلطانية شُربة، إن كنتَ لا تُمانِع في تكرار طعام الليلة الماضية. أين تقيمُ الآن؟»

– «لديَّ غرفة قرب أحواض السفن. إنها بدائيةٌ بعض الشيء، لكنها مناسبة حاليًّا.»

تُدفئ إيلينا وعاء من الشُّربة وتقطع له خبزًا. يُحاوِل الأكل ببطء، رغم أن شهيته في الحقيقة شهية ذئب.

تقول: «أخشى أنك لا يمكن أن تبقى الليلة. تعرف لماذا.»

– «بالطبع. لا أطلب أن أبقى. مسكني الجديد مريح تمامًا.»

– «لقد طُردتَ، أليس كذلك؟ من بيتك. هذه هي الحقيقة. أرى ذلك. مسكين. تنفصل عن ابنك، الذي تحبه كثيرًا جدًّا.»

ينهض من على الطاولة. يقول: «لا بد. إنها طبيعة الأشياء. شكرًا على الوجبة.»

– «تعال غدًا مرةً أخرى. سوف أُطعِمك. إنها آخر مرة يمكن أن أفعل فيها ذلك. أُطعِمك وأُواسِيك. رغم أنني أعتقد أنك اقترفتَ خطأً.»

يستأذن. ينبغي أن يذهب مباشرةً إلى بيته الجديد في أحواض السفن. لكنه يتردَّد، ثم يقطع الفِناء ويصعد السلالم، وينقر بهدوء على باب شقته القديمة. ليس هناك بصيص من النور تحت الباب. لا بد أن إيناس ما زالت تنهض. بعد انتظارٍ طويل ينقر مرةً أخرى. يهمس: «إيناس؟»

على بُعد عَرض كَف في الجانب الآخر يسمعها: «من هناك؟»

– «أنا سيمون. هل يمكن أن أدخل؟»

– «ماذا تريد؟»

– «هل يمكن أن أراه؟ دقيقة فقط.»

– «إنه نائم.»

– «لا أريد أن أوقظه. أريد أن أراه فقط.»

صمت. يُحاوِل فتح الباب. إنه مغلَق. بعد لحظة ينطفئ النور.

١١

بالاستيلاء على مقَر في أحواض السفن ربما ينتهك لائحة أو أخرى. لا يهمُّه هذا. لكنه لا يريد أن يعرف ألفارو، لا بد أن ألفارو من طيبة قلبه سيشعر بأنه مضطرٌّ إلى يقدِّم له بيتًا. وهكذا قبل أن يغادر مخزن المعدات كل صباح يهتم بأنه يدسُّ ممتلكاته القليلة بين العوارض الخشبية حتى لا تُرى.

كان الحفاظ على أناقته ونظافته مشكلة. يزور صالة الألعاب الرياضية في البلوكات الشرقية ليأخذ دشًّا؛ يغسل ملابسه بيده ويعلقها على أحبال الغسيل في البلوكات الشرقية. ليست لديه مخاوف بشأن ذلك — فهو ما زال على قائمة السكان — لكن نتيجة الحذر، غير راغب في مقابلة إيناس صدفة، يقوم بزياراته بعد حلول الظلام.

يمضي أسبوع في أثنائه يبذل كل طاقته في العمل. ثم يوم الجمعة، وجيوبه ممتلئة بالنقود، يقرع باب شقَّته القديمة.

تفتح إيناس الباب مبتسمة. تخفض وجهها حين تراه. تقول: «أوه، إنه أنت. نحن في طريقنا للخروج فورًا.»

من خلفها يظهر الولد. في مظهره شيءٌ غريب. لا يقتصر الأمر على ارتداء قميصٍ أبيضَ جديد (في الحقيقة بلوزة أكثر مما هي قميص بواجهة مزخرفة يتدلى فوق بنطلونه). يقف متشبثًا بجيبة إيناس، ولا يستجيب لتحيَّته، يحدِّق فيه بعينَين هائلتَين.

هل حدث شيء؟ هل كان تسليمه لهذه المرأة خطأً جسيمًا؟ ولماذا يحتمل هذه البلوزة البناتي الغريبة — وقد ارتبط كثيرًا بمظهر الفتى، بمعطفه وكابه والبوت برباط؟ لأن البوت اختفى أيضًا، وحل محله حذاء؛ حذاءٌ أزرقُ بشريط بدل الرباط، وأزرار نحاسية على الجانب.

يقول محاولًا الحفاظ على نبرته هادئة: «أنا محظوظ لأني رأيتُك في هذه الحالة. أحضَرْتُ لك المِدفأة الكهربيَّة التي وعَدْتُ بها.»

تنظُر إيناس بعين الريبة إلى مدفأةٍ صغيرة بقضيبٍ واحد يحملها. تقول: «في البنسيون في كل شقة مدفأة مفتوحة. يُحضِر رجل ألواحًا خشبية كل مساء ويُشعِل النار.» تتوقف شاردة. «إنها جميلة.»

– «آسف. لا بد أنه تدهوُر، أن تعيشي في البلوكات.»

يتحول إلى الولد. «هكذا تخرج هذا المساء. وأين أنت ذاهب؟»

لا يرُد الولد مباشرة، لكنه يلقي نظرة على أمه الجديدة وكأنه يقول، أخبريه أنت.

تقول إيناس: «نحن ذاهبان إلى البنسيون لقضاء عطلة نهاية الأسبوع.» وكأنه يؤكِّد كلامها، يأتي دييجو، بخطواتٍ سريعةٍ في الدهليز، مرتديًا ملابس التنس البيضاء.

يقول: «رائع. اعتقدتُ أنهم لا يسمحون بالأطفال في البنسيون. اعتقدْتُ أنها القاعدة.»

يقول دييجو: «إنها القاعدة. لكنه مفتوح في نهاية الأسبوع للأعضاء. لا أحد يراجع.»

تردِّد إيناس: «لا أحد يراجع.»

– «حسنًا، جئت فقط لأرى إن كان كل شيءٍ على ما يُرام، وربما أساعد في التسوُّق. ها أحضرْتُ مساهمةً بسيطة.»

بدون كلمة شكر تقبل إيناس النقود. تقول: «أجل، كل شيءٍ على ما يُرام معنا.» تضغط الطفل بقوة إلى جانبها. «تناولنا غداء رائعًا ثم أخذنا قيلولة، والآن نخرج بالسيارة لنقابل بوليفار، وفي الصباح نلعب التنس ونسبح.»

يقول: «يبدو ذلك مثيرًا. وأرى أن لدينا قميصًا جديدًا رائعًا أيضًا.»

لا يرُد الولد. إيهامه في فمه، لم يكُف عن التحديق فيه بتلكما العينَين الهائلتَين. يقتنع أكثر وأكثر أن هناك شيئًا خطأ.

يسأل: «مَن بوليفار؟»

يتكلم الولد للمرة الأولى: «بوليفار الألساسي.»[١]

تقول إيناس: «الألزاسي.[٢] بوليفار كلبنا.»

---

[١] ينطق الولد كلمة Assación خطأ وتصححها إيناس في الجملة التالية Alsatian.

[٢] الألزاسي: أو كلب الراعي الألماني سلالة من الكلاب كبيرة الحجم، نشأت في ألمانيا.

يقول: «آه أجل، بوليفار. كان معك في ملعب التنس، أليس هو؟ لا أريد أن أكون مثيرًا للمخاوف، يا إيناس، لكن سمعة الكلاب الألزاسية ليست طيبة بالنسبة للأطفال. أتمنى أن تأخذي حذرك.»

– «بوليفار أرقُّ كلبٍ في العالم.»

يعرف أنها لا تُحبه. حتى تلك اللحظة يفترض أن ذلك يرجع إلى أنها مدينةٌ له. لكن لا، الكراهية شخصية أكثر ومباشرة أكثر من ذلك، وبالتالي أكثر صعوبة. يا للأسف! سوف يتعلم الطفل النظر إليه باعتباره عدوًّا، عدوَّ نعيمِ الأم والطفل.

يقول: «أتمنَّى لك وقتًا رائعًا. ربما آتي مرةً أخرى يوم الإثنين. ثم يمكن أن تخبرني بالقصة كاملة. اتفقنا؟»

يومئ الولد.

يقول: «إلى اللقاء.»

تقول إيناس: «إلى اللقاء.» لا يتفوه دييجو بكلمة.

يمشي متثاقلًا عائدًا إلى أحواض السفن وهو يشعر بأن فيه شيئًا انتهى، يشعر وكأنه عجوز. كانت لديه مهمةٌ واحدةٌ كبيرة، والآن انتهت تلك المهمة. سلَّم الولد لأمه. مثل ذكر من ذكور الحشرات المُمِلَّة، وظيفتُه الوحيدة نقلُ بذرته إلى الأنثى، يمكن بالمثل أن يذبل الآن ويموت. لم يبقَ هناك شيء يشيِّد حياته حوله.

يفتقد الولد. يستيقظ الصباح التالي وأمامه عطلة نهاية الأسبوع خاوية وكأنه يستيقظ بعد عمليةٍ جراحية ليجد طرفًا مقطوعًا — طرفًا أو ربما حتى قلبه. يقضي النهار متسكعًا، يقتُل الوقت. يتجول في الأحواض الخالية؛ يتجوَّل جيئة وذهابًا عَبْر المنتزهات؛ حيث مجموعات من الأطفال يُلقُون بالكرات أو يُطيِّرون طياراتٍ ورقية.

يشعر بأن يد الولد، اليد الصغيرة المبلَّلة بالعرق في يده ما زالت حية بوضوح بالنسبة له. لا يعرف إن كان الولد يُحبه، لكن من المؤكَّد أنه كان يحتاج إليه ويثق فيه. الطفل ينتمي لأمه؛ لا يمكن أن ينكر ذلك لحظة. لكن ماذا إذا لم تكن الأم أمًّا جيدة؟ ماذا إذا كانت إيلينا محقة؟ نتيجة أية عقدة للاحتياجات الخاصة فعلَت إيناس هذا، لا يعرف مثقال ذرة من تاريخ امرأة اغتنمَت الفرصة ليكون لها طفلٌ خاص بها؟ ربما هناك حكمة في قانون الطبيعة الذي يقول إن الكائن الجنيني، الكائن قيد التكوين، قبل أن يدخل العالم روحًا حية، لا بُد أن يقضي فترةً ليُولَد في رحِم أمه. ربما، مثل أسابيع الكُمون التي تقضيها أم

الطائر وهي ترقُد على بيضها، فترة من العزلة والاستغراق في الذات ضرورية ليس فقط لحيوانٍ مجهري ليتحول إلى إنسان لكن أيضًا للمرأة لتتحوَّل من عذراء إلى أم.

يمر النهار بشكلٍ ما. يفكِّر في زيارة إيلينا، ثم يغيِّر رأيه في الدقيقة الأخيرة، عاجزًا عن مواجهة الاستجواب المزعج الذي ينتظره هناك. لم يأكل، ليست له شهية. يستقر على سريره من الأجولة، متوترًا، قلقًا.

في الصباح التالي، عند انفلاق الفجر، يكون في محطة الباص. تمُر ساعة قبل أن يصل أول باص. من نهاية الخط يتتبَّع المسار المرتفع إلى البنسيون، إلى ملعب التنس. الملعب مهجور. يجلس منتظرًا.

في العاشرة يصل الأخ الثاني، الأخ الذي لم يسعَد بالتعرُّف عليه بعدُ، يصل في ملابسه البيضاء ويبدأ تجهيز الشبكة. لا يلتفت إلى غريب تحت بصره مباشرة ولا يبعُد عنه ثلاثين خطوة. بعد برهةٍ يظهر باقي الفريق.

يراه الولد على الفور. وركبتاه تحتكَّان معًا (إنه عدَّاءٌ غريب) يندفع عَبْر الملعب. ينادي: «سيمون! سنلعب التنس. هل تريد أن تلعب أيضًا؟»

يُمسِك بأصابع الولد من خلال الشبكة. يقول: «لا أجيد لعب التنس. أحب أن أشاهد. هل تستمتع؟ هل تحصل على ما يكفي من الطعام؟»

يومئ الولد بقوة. «تناولتُ شايًا على الفطور. تقول إيناس إنني كبيرٌ بما يكفي لشرب الشاي.» يستدير وينادي: «أستطيع شرب الشاي، أليس كذلك، يا إيناس؟» ثم وبدون توقُّف يواصل: «وأعطيْتُ بوليفار طعامه وتقول إيناس إننا يمكن أن نأخذ بوليفار لنزهة بعد التنس.»

– «بوليفار الألزاسي؟ من فضلك خذ حذرك من بوليفار. لا تَستثِره.»

– «الألزاسية أفضل كلاب. حين تُمسِك بلص لا تتركه أبدًا. هل تريد أن تتفرج عليَّ وأنا ألعب التنس. لا ألعب بشكلٍ جيد بعدُ، عليَّ أن أتدرب أولًا.» مع ذلك يستدير فجأة ويندفع عائدًا إلى حيث تقف إيناس وأخواها يتشاورون. «هل يمكن أن نتدرب الآن؟»

ألبسوه شورتًا أبيض قصيرًا. وهكذا، مع البلوزة البيضاء، كل ما يرتديه أبيض، باستثناء الحذاء الأزرق بشرائط. لكن مضرب التنس الذي أُعطِيَ له كبيرٌ جدًّا؛ حتى بيدَين يؤرجحه بالكاد.

ينسلُّ بوليفار الألزاسي عَبْر الملعب ويستقر في الظل. بوليفار ذكَر، بكتفَين عريضَين وطوقٍ أسود. لا يختلف في مظهره كثيرًا عن الذئب.

١١

يقول دييجو: «تعالَ هنا، أيها الرجل الكبير.» ويقف بجوار الولد، ويداه تحيطان يدَي الولد وهما تُمسِكان بالمضرب. والأخ الآخر يقذف كرة. يميلان معًا؛ يضربان الكرة بمهارة. يقذف الأخ كرةً أخرى. يضربانها مرةً أخرى. يتراجع دييجو إلى الخلف. يقول لأخته: «ليس هناك ما يمكن أن أعلِّمه له. إنه طبيعي.» يقذف الأخ كرةً ثالثة. يؤرجح الولد المضرب الثقيل ويخطئ الكرة، ويكاد يسقط من المجهود.

تقول إيناس لأخوَيها: «العبا. وسوف نذهب ديفيد وأنا ونُلقي بالكرات.»

بكفاءةٍ كبيرةٍ يضرب الأخوان الكرة جيئة وذهابًا فوق الشبكة، ويختفي الولد وإيناس خلف المبنى الخشبي. وهو، العجوز،[٣] المتفرِّج الصامت، يتم تجاهلُه ببساطة. لم يكن الأمر يحتاج إلى مزيدٍ من الوضوح ليعرف أنه غير مرغوبٍ فيه.

[٣] العجوز: بالإسبانية في الأصل.

١٢

تعهَّد بأن يحتفظ بمحنته لنفسه، لكن حين يسأل ألفارو مرةً أخرى عما حدث للولد («أفتقده — كلنا نفتقده»)، تتدفَّق القصة كلها.

يقول: «تخيَّل! ذهبنا نبحث عن أمه وقد وجدناها. والآن التأم شمل الاثنَين، وهما سعيدان جدًّا معًا. ولسوء الحظ نوع الحياة التي في ذهن إيناس بالنسبة له لا تتضمَّن التسكُّع في أحواض السفن مع الرجال. تتضمَّن ملابسَ لطيفة وسلوكياتٍ طيبة ووجباتٍ منتظمة. وهو أمرٌ رائع جدًّا، على ما أعتقد.»

رائع جدًّا بالطبع. بأي حق يشكو؟

يقول ألفارو: «لا بد أنها كانت صفعةً لك. الصغير متميز. أي شخص يستطيع رؤية ذلك. وكنت أنت وهو قريبَين.»

– «أجل، كنا قريبَين. لكن ليس كما لو كنتُ لن أراه مرةً أخرى. المسألة فقط أن أمه تشعر بأنه هو وهي يمكن أن يستعيدا الارتباط بينهما بسهولةٍ أكبر إذا بقيتُ خارج الصورة لبعض الوقت. وهو، مرةً أخرى، رائع جدًّا.»

يقول ألفارو: «حقًّا. لكن هذا يتجاهل دوافع القلب، أليس كذلك؟»

دوافع القلب؛ من كان يعتقد أن ألفارو يتحدث على هذا النحو؟ رجلٌ قوي وحقيقي. صديق. لماذا لا يُعرِّي قلبه بصراحة لألفارو؟ يسمع نفسه يقول: لكن لا. «ليس لي الحق في أن أثقل على أحد.» مدَّعٍ! «وبالإضافة إلى ذلك، حقوق الطفل تجُبُّ دائمًا حقوق الكبار. أليس هذا مبدأ في القانون؟ حقوق الطفل بوصفه حامل المستقبل.»

ينظر إليه ألفارو نظرة شك: «لم أسمع قط بمثل هذا المبدأ.»

– «قانون الطبيعة إذن. الدم أكثر كثافةً من الماء. ينتمي الطفل لأمه. وخاصة الطفلَ الصغير. بالمقارنة، مطالبي مجرَّدة جدًّا، مُصطَنَعة جدًّا.»

– «يُحبك. تُحبه. هذا ليس مصطنعًا. القانون هو المصطَنَع. ينبغي أن يكون معك. يحتاج إليك.»

– «رائع منك أن تقول ذلك يا ألفارو، لكن هل يحتاج إليَّ حقًّا؟ ربما الحقيقة أنني مَن يحتاج إليه. ربما أعتمد عليه أكثر مما يعتمد عليَّ. من يعرف كيف نختار من نُحبهم على أية حال؟ إنه سرٌّ عظيمٌ تمامًا.»

عصر اليوم لديه زائرٌ مفاجئ؛ فيدل الصغير، الذي يصل إلى أحواض السفن على درَّاجته، يحمل رسالةً موجزةً مكتوبة على عجَل: كنا نتوقَّعك. أتمنى ألا يكون قد أصابك سوء. هل تحب أن تأتي على العَشاء هذا المساء؟ إيلينا.

يقول لفيدل: «قل لأمك شكرًا، سوف آتي.»

يسأل فيدل: «هل هذا شغلك؟»

– «أجل، هذا ما أفعله. أساعد في تحميل السفن وتفريغها مثل هذا الرجل. آسف لأنني لا أستطيع أن آخذك على ظهر السفينة، خطر بعض الشيء. ربما ذات يومٍ حين تكبر.»

– «هل هذه جليون؟»[١]

– «لا، ليست بأشرعة وبالتالي لا يمكن اعتبارها جليونًا. إنها ما نُسمِّيه سفينة تعمل بالفحم. مما يعني أنها تحرق الفحم لتعمل المحركات وتسير. غدًا سوف تشحن فحمًا لرحلة العودة. ويتم هذا على رصيف عشرة، وليس هنا. ولن أشارك. وأنا سعيد بذلك. إنها مهمةٌ مقرفة.»

– «لماذا؟»

– «لأن الفحم يترك غبارًا أسود على كل جزء فيك، بما فيها شعرك. ولأن الفحم ثقيلٌ جدًّا في حمله.»

– «لماذا لا يمكن لديفيد أن يلعب معي؟»

– «ليست المسألة أنه لا يمكن أن يلعب معك يا فيدل. كل ما في الأمر أن أمه تريده لنفسها لبعض الوقت. لم ترَه منذ وقتٍ طويل.»

– «أعتقد أنك قلْتَ إنها لم ترَه قط.»

– «صحيح إلى حد ما. رأته في أحلامها. كانت تعرف أنه سيأتي. كانت تنتظره. والآن أتى، وهي مستمتعة جدًّا. قلبها ممتلئ.»

---

[١] سفينة شراعية كبيرة.

يصمت الولد.

– «فيدل، لا بد أن أعود إلى العمل الآن. أراك أنت وأمك هذا المساء.»

– «هل اسمها إيناس؟»

– «أم ديفيد؟ أجل، اسمها إيناس.»

– «لا أحبها. لديها كلب.»

– «أنت لا تعرفها. بمجرد أن تعرفها سوف تُحبها.»

– «لن أحبها. إنه كلبٌ شرس. أرتعب منه.»

– «رأيتُ الكلب. اسمه بوليفار، وأتفق معك، ينبغي أن تتجنَّبه. إنه ألزاسي. والكلاب الألزاسية لا يمكن التنبؤ بسلوكها. أنا مندهش من أنها أحضرَتْه إلى البلوكات.»

– «هل يعَض؟»

– «ممكن.»

تسأل إيلينا: «أين تقيم بالضبط، الآن وقد تنازلتَ عن شقتك الجميلة؟»

– «أخبرتُك: أخذتُ غرفةً قرب أحواض السفن.»

– «أجل، لكن أين بالضبط؟ في بنسيون؟»

– «لا. لا يهم أين هي أو أي نوعٍ من الغرف. إنها جيدةٌ بما يكفي لأغراضي.»

– «هل فيها وسائل للطبخ؟»

– «لا أحتاج إلى وسائل للطبخ. ما كنتُ لأستخدمها لو كانت عندي.»

– «هكذا تعيش على الخبز والماء. اعتقدتُ أنك ملَلتَ من الخبز والماء.»

– «الخبز دعامة الحياة. مَن لا يريد الخبز. إيلينا من فضلك كُفِّي عن هذا الاستجواب. أنا قادر تمامًا على رعاية نفسي.»

– «أشُك في ذلك. أشك فيه كثيرًا جدًّا. ألا يمكن للناس في مركز الوافدين أن يجدوا لك شقةً جديدة؟»

– «بقَدْر ما يعرف المركز ما زلتُ مقيمًا بسعادة في شقتي القديمة. ليسوا على وشك أن يمنحوني مسكنًا ثانويًّا.»

– «وإيناس — ألم تقل إن لديها غُرفًا في البنسيون؟ لماذا لا تقيم هناك هي والطفل؟»

– «لأنه لا يُسمَح بالأطفال في البنسيون. البنسيون مُنتجَع من نوعٍ ما، بقَدْر ما يُمكِن أن أستنبط.»

– «أعرف البنسيون. زرتُه. هل تعرف أنها أحضرَت كلبًا معها؟ الاحتفاظ بكلبٍ صغيرٍ في شقة أمرٌ مختلف، لكن هذا وولفوند[2] ضخم جدًّا. إنها مسألة غير صحية.»

– «ليس وولفوند، إنه ألزاسي. أعترف، يجعلني عصبيًّا. حذَّرتُ ديفيد منه. وحذَّرتُ فيدل أيضًا.»

– «من المؤكد أنني لا أسمح لفيدل بالاقتراب منه في أي مكان. هل أنت متأكد من أنك فعلتَ الشيء الصحيح، حين أعطيتَ طفلكَ لمثل هذه المرأة؟»

– «لامرأة مع كلب؟»

– «لامرأة في الثلاثين ليس لديها أطفال. لامرأة تقضي وقتها في لعب الرياضة مع الرجال. لامرأة تحتفظ بكلاب.»

– «إيناس تلعب التنس. والكثير من النساء يلعبن التنس. إنها لعبةٌ ممتعة. تحافظ على اللياقة. ولديها كلبٌ واحد فقط.»

– «هل أخبرَتك بأي شيء عن خلفيتها، عن ماضيها؟»

– «لا. لم أسألها.»

– «حسنًا، في رأيي أنكَ لستَ بعقلك، حين تسلِّم طفلك لغريبةٍ كل ما تعرفه عنها ماضٍ مريب.»

– «هذا هُراء، يا إيلينا. إيناس ليس لها ماضٍ، لا شيء مهم. لا أحد منا له ماضٍ. نبدأ من جديد هنا. نبدأ بسجلٍّ فارغ، بسجلٍّ بِكْر. وإيناس ليست غريبة. تعرَّفْتُ عليها بمجرد أن وقعَت عيني عليها، مما يعني أن لديَّ معرفةً سابقةً بها من نوعٍ ما.»

– «تصل إلى هنا بدون ذكريات، بسجل فارغ، ومع ذلك تزعم أنك تتعرَّف على وجوه من الماضي. لا معنى لهذا.»

– «صحيح: ليس لديَّ ذكريات. لكن الصور ما زالت مستمرة، ظلال الصور. لا يمكن أن أفسِّر كيف يحدُث ذلك. يستمرُّ أيضًا شيء أكثر عمقًا، أسمِّيه ذاكرة أن لك ذاكرة. لا أعرف إيناس من الماضي لكن من مكانٍ آخر. وكأن صورةً لها مغروسة فيَّ. ليس لديَّ أي شك بشأنها، لا شكوك. على الأقل، ليس لديَّ شك في أنها الأم الحقيقية للولد.»

– «أي شكوك لديك إذن؟»

– «أتمنى فقط أن تكون جيدةً بالنسبة له.»

[2] سلالة من الكلاب الأيرلندية الضخمة.

١٣

في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم، اليوم الذي أرسلَت فيه إيلينا ابنها ليدعوه، يحدِّد اللحظة التي ربما ينجرف فيها هو وهي، وقد فكَّر في أنهما مثل سفينتَين في محيطٍ هادئ تقريبًا، لكنهما ينجرفان عمومًا كلٌّ منهما باتجاه الآخر، بدآ ينجرفان متباعدَين. ما زال في إيلينا ما يُحبه، وخاصة استعدادها لسماع شكواه. لكن الشعور يقوى بفقدان شيءٍ يجب أن يكون بينهما، وإذا لم تكن إيلينا تشاركه هذا الشعور، إذا كانت تؤمن بأنه ليس هناك شيءٌ مفقود، لا يمكن إذن أن تكون ما هو مفقودٌ في حياته.

يجلس على دكة خارج البلوكات الشرقية، ويكتب رسالةً موجزةً لإيناس.

نشأَت علاقة ودٍّ بيني وبين امرأة تعيش عَبْر الفناء، في البلوك سي. اسمها إيلينا. لها ابن اسمه فيدل صار أقرب أصدقاء ديفيد وله تأثيرٌ دائم عليه؛ لأن لفيدل الصغير قلبًا طيبًا، كما سوف تكتشفين.

كان ديفيد يأخذ دروس موسيقى مع إيلينا. انظري إن كان يمكن أن تُقنِعيه بأن يغني لك. إنه يغنِّي بشكلٍ جميل. إحساسي أنه ينبغي أن يُواصِل دروسه، لكن القرار لك بالطبع.

لديفيد أيضًا علاقةٌ طيبة مع مشرفي في العمل، ألفارو، صديق آخر رائع. وله أصدقاء طيبون يشجِّعونه أيضًا على أن يكون رائعًا، أو هكذا أرى. أن يسير بشكلٍ رائع — أليس هذا ما نرغب فيه نحن الاثنان لديفيد؟

إذا كانت هناك أية طريقة يمكن أن أساعدك فارفعي إصبعًا فقط. أنا في أحواض السفن معظم الأيام، على رصيف اثنين. فيدل سوف يأخذ الرسائل؛ ديفيد أيضًا يعرف الطريق.

يُسقِط الرسالة في صندوق بريد إيناس. لا يتوقع ردًّا وفي الحقيقة لا يتلقى ردًّا. لا يفهم بوضوح طبيعة نوع إيناس بين النساء. هل هي من النساء المستعدات لقبول نصيحةٍ بوُد — على سبيل المثال — أم أنها من النوع الذي يتوتَّر حين يُخبرها الغرباء عن كيفية إدارة حياتها، وتُلقي بالتواصل معهم في الزبالة؟ هل تُراجِع حتى صندوق رسائلها؟

في بدروم البلوك إف في القرية الشرقية، البلوك نفسه الذي يضم الصالة العامة للألعاب الرياضية، منفذ لبيع الخبز اسمه الخاص المئونة. أبوابه مفتوحة صباح أيام العمل من التاسعة حتى الظهر. بالإضافة إلى الخبز والمخبوزات الأخرى، يبيع بأسعارٍ مخفَّضة جدًّا السلع الغذائية الأساسية مثل السكر والمِلْح والدقيق وزيت الطهي.

من المئونة يشتري مخزونًا من الحَسَاء المعلَّب، يحمله عائدًا به إلى مخبئه في أحواض السفن. وجبته المسائية، حين يكون وحده، خبز وحَساء فاصوليا، بارد. يتزايد استخدامه له بدون تغيير.

وحيث إن معظم سكان البلوكات يستخدمون المئونة، يخمِّن أن تستخدمه إيناس أيضًا. تداعبه فكرة التسكُّع حوله ذات صباحٍ على أمل أن يراها هي والولد، لكنه يتراجع. سيكون الأمر مؤذيًا جدًّا إذا صادفَته كامنًا بين الرفوف، يتجسَّس عليها.

لا يريد أن يتحول إلى شبحٍ عاجز أمام هواجسه القديمة. إنه مستعدٌّ لقبول أن أفضل طريقة لإيناس لبناء الثقة مع الطفل هي الاحتفاظ به بعض الوقت لنفسها تمامًا. لكنَّ هناك خوفًا مزعجًا من ألا يستطيع صرف النظر عن أن الطفل قد يكون وحيدًا وتعيسًا، متلهفًا عليه. لا يستطيع أن ينسى النظرة في عين الطفل حين زاره، ممتلئًا بالشك الأبكم. يحن إلى رؤيته كما كان مرةً أخرى، مرتديًا كابه بحافته الصغيرة وبوته الأسود.

من حين إلى آخر يستسلم للإغواء ويتباطأ حول أطراف البلوكات. في إحدى هذه الزيارات يلمَح إيناس تجمع الغسيل من على الحبل. ومع أنه لا يمكن أن يكون متأكدًا، تبدو متعبة، متعبة وربما حزينة. هل تسير الأمور معها بشكلٍ سيِّئ؟

يتعرَّف على ملابس الولد على الحبل، بما فيها البلوزة ذات الواجهة المزخرفة.

وفي زيارةٍ أخرى — والأخيرة كما يتضح — من هذه الزيارات السرية يلاحظ ثلاثي العائلة — إيناس والطفل والكلب — يخرجون من البلوكات ويمرُّون بالمروج في اتجاه المنتزَهات. ما يفاجئه أن الولد، مرتديًا معطفه الرمادي، لا يمشي بل يُدفَع في عربة أطفال. لماذا يحتاج طفل في الخامسة إلى الدفع في عربة؟ لماذا في الواقع يُسمَح بهذا؟

يلحق بهم في الجزء الأكثر وحشيةً في المنتزَهات؛ حيث يعبر جسرٌ خشبيٌّ جدولًا غاصًّا بالحركة. ينادي: «إيناس!»

تقف إيناس وتلتفت. يلتفت الكلب أيضًا، ويميل بأذنَيه، وهو يُسحَب من سلسلته.

يرسم ابتسامة وهو يقترب. «يا لها من صدفة! كنتُ في طريقي إلى المحلات حين رأيتُكُم. كيف تسير الأمور معكم؟» ثم، وبدون أن ينتظر ردَّها، يقول للطفل: «أهلًا، أراك في عربة. مثل أميرٍ صغير.»

يثبِّت الطفل عينَيه عليه ويُغلقُهما. يجتاحه شعور بالسلام. كل شيءٍ على ما يرام. الرابطة بينهما لم تُكسَر. لكن الإبهام في الفم مرةً أخرى. ليست علامةً مبشِّرة. الإبهام في الفم يعني الشعور بعدم الأمان، يعني قلبًا مضطربًا.

تقول إيناس: «نتنزَّه. نحتاج إلى بعض الهواء. الجو في الشقة خانقٌ جدًّا.»

يقول: «أعرف. تصميمها سيِّئ. أترك النافذة مفتوحة ليلًا ونهارًا لأهوِّيها. أقصد، اعتدتُ أن أترك النافذة مفتوحة.»

– «لا أستطيع أن أفعل ذلك. لا أريد أن يُصاب ديفيد بالبرد.»

– «أوه، إنه لا يُصاب بالبرد بسهولة. إنه رفيق قوي — ألستَ كذلك؟»

يومئ الولد. المعطف مزرَّر حتى ذقنه، وبدون شك لن تمُر منه الجراثيم التي تحملها الرياح.

صمتٌ طويل. يودُّ الاقتراب أكثر، لكن الكلب لا يخفِّف من حملقَته الحذِرة.

يلمِّح: «أين حصلت على هذه، هذه العربة؟»

– «في مستودع العائلات.»

– «مستودع العائلات؟»

– «في المدينة مستودع يمكن الحصول منه على أشياء للأطفال. حصلنا له على مهدٍ أيضًا.»

– «مهد؟»

– «مهد بجوانب. بحيث لا يسقط منه.»

– «غريبة. كان ينام في سرير بقَدْر ما يمكن أن أتذكَّر، ولم يسقط قط.»

حتى قبل أن ينتهي، يعرف أنه كان من الخطأ أن يقول ذلك. تضغط إيناس على شفتَيها، وتهزُّ العربة، لتحرِّكها، لكن سلسلة الكلب تشابكَت في العجلات وعليها ألا تجرَحه.

يقول: «آسف، لا أقصد التدخل.»

لا تتفضَّل بالرد.

مستعيدًا الحدث في وقتٍ لاحق، تساءل عما يجعله لا يشعر بإيناس بوصفها امرأة، بأدنى درجة، رغم أنه لا يُوجَد عيب في شكلها. هل لأنها عدوانية جدًّا تجاهه ومنذ البداية؛ أم أنها ببساطة غير جذَّابة؛ لأنها ترفض أن تكون جذّابة، ترفض البَوح بمشاعرها؟ قد تكون في الحقيقية، كما تؤكد إيلينا، عذراء، أو على الأقل من النوع العذري؟ ما كان يعرفه عن العذارى ضاع في سُحُب النسيان. هل هالة العذرية تخنق رغبة الرجل أم على العكس تشحذها؟ يفكِّر في آنا، من مركز إعادة التوطين، وتُذهِله شراسة عذريتها. من المؤكد أنه وجد آنا جذَّابة. ماذا لدى آنا ليس لدى إيناس؟ أم ينبغي أن يُصاغ السؤال بشكلٍ عكسي: ماذا لدى إيناس ليس لدى آنا؟

يخبر إيلينا: «التقيتُ أمس بإيناس والصغير ديفيد. هل ترينَهما كثيرًا؟»

– «أراها حول البلوكات. لم نتحدث. لا أعتقد أنها ترغب في التواصل مع السكان.»

– «أعتقد، إذا اعتاد المرء على الحياة في البنسيون، فلا بد أن يكون العيش في البلوكات صعبًا عليه.»

– «العيش في البنسيون لا يجعلها أفضل منا. بدأنا كلنا من حيث لا ندري، من العدم. إن الهبوط هنا مسألة حظ فقط.»

– «كيف تعتقدين أنها تتعامل مع الأمومة؟»

– «إنها حمائية جدًّا تجاه الطفل. حمائية بصورةٍ مفرطة، في رأيي. تراقبه مثل صقر، ولا تسمح له باللعب مع الأطفال الآخرين. أنت تعرف ذلك. وفيدل لا يفهم. يشعر بالأذى.»

– «آسف. وماذا رأيْتِ أيضًا؟»

– «يقضي أخواها وقتًا طويلًا في الزيارة. لديهما سيارة — سيارة من السيارات الصغيرة التي تسع أربعة أفراد، بسقف يمكن إعادته للخلف، تُسمَّى كابروليه على ما أعتقد. يخرجون جميعًا في السيارة ويعودون بعد حلول الظلام.»

– «والكلب أيضًا؟»

– «والكلب أيضًا. حيثما تذهب إيناس يذهب الكلب. يجعلني أرتجف. إنه متحفز. في أحد الأيام سيهاجم شخصًا ما. أدعو فقط ألا يكون طفلًا. ألا يمكن إقناعها بتكميمه؟»

– «لا تُوجد فرصة لذلك.»

– «حسنًا، أعتقد أن من الجنون أن تحتفظ بكلبٍ شرس حين يكون لديك طفلٌ صغير.»

– «ليس كلبًا شرسًا يا إيلينا، فقط لا يمكن التنبؤ بسلوكه. لا يمكن التنبؤ بسلوكه لكنه وفيٌّ. ويبدو أن هذا أكثر ما يهم إيناس. الإخلاص، ملكة الفضائل.»

– «حقًّا؟ لا أصفه بهذا الشكل. أصفه بأنه فضيلة من المرتبة الوسطى، مثل الاعتدال. من الفضائل التي تبحث عنها في جندي. تدهشني إيناس بوصفها كلبَ حراسة هي نفسها، تحوم حول ديفيد، وتصد الأذى. لماذا اخترْتَ حقًّا امرأة بهذا الشكل؟ كنت أبًا له أفضل مما هي أم.»

– «ليس صحيحًا. لا يمكن لطفل أن يكبر بدون أم. ألم تقولي ذلك أنتِ نفسك: للأم يدينُ الطفل بجوهره، بينما لا يقدِّم الأب إلا الفكرة؟ بمجرد انتقال الفكرة، يمكن الاستغناء عن الأب. وفي هذه الحالة لستُ حتى الأب.»

– «يحتاج الطفل رحم الأم ليأتي إلى العالم. بعد أن يترك الرحم تكون الأم مانحة الحياة قوة مستهلكة بقَدْر ما يكون الأب. ما يحتاج إليه الطفل بعد ذلك الحب والرعاية، ويمكن للرجل أن يقدِّمهما بقَدْر ما تقدِّمهما المرأة. لا تعرف إيناسُكَ شيئًا عن الحب والرعاية. تشبه فتاةً صغيرةً مع دمية — فتاةً صغيرةً غيورًا وأنانية بشكلٍ غير عادي لا تسمح لأحدٍ آخر بلمس لعبتها.»

– «هُراء. أنتِ مستعدة لإدانة إيناس، رغم أنكِ تعرفينها بالكاد.»

– «وأنت؟ كيف عرفتَها قبل أن تسلِّمها شِحنتَك النفيسة؟ فحص مؤهلاتها كأم لم يكن ضروريًّا، كما قلْتَ: يمكنك الاعتماد على الحَدْس. عرفتَ الأمَ الحقيقية في ومضة، في اللحظة التي وقعَت عيناكَ عليها. الحَدْس: أي أساسٍ هذا لتحديد مستقبل طفل؟»

– «تناوَلْنا ذلك من قبلُ يا إيلينا. ما الخطأ في الحَدْس الفِطْري؟ في أي شيءٍ آخر يُمكِن أن نثق في النهاية؟»

– «الحِس العام. المنطق. أي شخصٍ عاقل كان سيُحذِّرك من أن عذراء في الثلاثين اعتادت على حياة الكسل، معزولة عن العالم الحقيقي، يحرُسُها أخوان سفَّاحان، لا يمكن أن تكون أمًّا جديرة بالثقة. وأيضًا، أي شخصٍ عاقل كان سيقوم باستفسارات عن إيناس هذه، ويستكشف ماضيها، ويقيِّم شخصيتها. كان أي شخصٍ عاقل سيفرض فترة اختبار، ليتأكَّد من أنهما يتوافقان معًا، الطفل ومربِّيته.»

– يهزُّ رأسه. «ما زلت تسيئين الفهم. كانت مهمَّتي إعطاء الولد لأمه. وليس إعطاءه لأم، لامرأةٍ اجتازت اختبارًا أو آخر للأمومة. لا يهمُّ إن لم تكن إيناسي بمعاييرك أمًّا جيدةً جدًّا. الحقيقة أنها أمه. إنه مع أمه.»

– «لكن إيناس ليست أمه! لم تتخيَّله! لم تحمِلْه في رحمها! لم تأتِ به إلى العالم بالدَّم والألم! إنها مجرد واحدةٍ التقطتَها في نزوة؛ لأنها في حدود معرفتي ذكَّرَتك بأمك.»

يهزُّ رأسه مرةً أخرى. «في اللحظة التي رأيتُ فيها إيناس، عرَفتُ. إذا لم نثق في الصوت الذي يتحدَّث داخلنا، قائلًا، هذه هي! فلن يكون هناك شيءٌ نثق فيه.»

– «لا تُضحِكني! أصواتٌ داخلية! يخسر الناس مدَّخراتهم في سباقات الخيول طاعةً لأصواتٍ داخلية. يغرق الناس في علاقات حُبٍّ كارثية طاعةً لأصوات داخلية. إن ...»

– «لستُ في حالة حب مع إيناس، إذا كان هذا ما تلمِّحين إليه. بعيدٌ عنه.»

– «قد لا تكون في حالة حب معها لكنك تركِّز عليها بشكلٍ غير منطقي، وهو أسوأ. أنت مقتنعٌ بأنها قدَر طفلك. بينما الحقيقة أن إيناس لا علاقة لها، صوفية أو غيرها، بك أو بولدك. إنها مجرد امرأةٍ عشوائية أسقطْتَ عليها هاجسًا خاصًّا بك. إذا كان مقدَّرًا للطفل، كما تقول، أن يلتئم شملُه مع أمه، لماذا لا يمكنك ترك القدَر يجمعهما معًا؟ لماذا أقحَمتَ نفسك في الفعل؟»

– «لأنه لا يكفي أن أجلس وأنتظر القدَر ليعمل، يا إيلينا، بالضبط كما لا يكفي أن يكون لديك فكرة ثم تجلسين في انتظار أن تتحقَّق. على شخصٍ ما تحقيق الفكرة. شخصٍ يعمل نيابةً عن القدَر.»

– «هذا ما قُلتُ. تصل بفكرةٍ خاصةٍ عن حقيقة أم، ثم تُسقِطه على هذه المرأة.»

– «لم تعُد مناقشةً منطقية يا إيلينا. ما أسمعُه مجرد عَداء، عَداء وتحيُّز وغيرة.»

– «ليس عداءً أو تحيزًا، وزصفه بأنه غيرة أكثر حتى من أن يكون عبثيًّا. أُحاوِل مساعدتك على فهم من أين يأتي حَدْسك المقدس، الذي تثق فيه بما يفوق دليلَ حواسك. يأتي من داخلك. أصله في ماضٍ نسيتَه. لا علاقة له بالولد أو رفاهيته. إذا كان لديك أي اهتمامٍ برفاهية الولد فعليك استعادتُه فورًا. هذه المرأة سيئةٌ بالنسبة له. يتدهوَر تحت رعايتها. إنه تحوِّله إلى رضيع.

– «يمكنك أن تستردَّه اليوم إذا أرَدتَ. يمكنك ببساطة أن تتدخَّل وتأخذه. ليس لها أي حقٍّ قانوني عليه. إنها غريبةٌ تمامًا. يمكنك أن تستردَّ طفلك، ويمكنك أن تسترد شقَّتك، ويمكن للمرأة أن تعود إلى البنسيون، حيث تنتمي— إلى أخوَيها ومباريات التنس. لماذا لا تفعل هذا؟ أم أنك خائف جدًّا — خائف من أخوَيها، خائف من الكلب؟»

– «إيلينا، توقَّفي. من فضلك توقَّفي. أجل أنا مرعوب من أخوَيها. نعم أنا قَلِقٌ من كلبها. لكن ليس هذا ما يجعلني أرفُض استرداد الطفل. أرفُض ذلك، هذا كل ما في الأمر.

ماذا تعتقدين أن عليَّ أن أفعل في هذا البلد حيث لا أعرفُ أحدًا، حيث لا يمكن أن أعبِّر عن مشاعر قلبي لأن كل العلاقات الإنسانية يجب أن تتم بإسبانية المبتدئين؟ هل أتيتُ إلى هنا لأحمل حقائبَ ثقيلةً كل يوم مثل بهيمة الأحمال؟ لا، أتيتُ لأُحضِر الطفل لأمه، وقد تم ذلك الآن.»

تضحك. «إسبانيتك تتحسَّن حين تغضب. ربما ينبغي أن تغضب معظم الأحيان. وبشأن إيناس دعنا نتفق على ألا نتفق. وبالنسبة للبقية، الحقيقة أننا لسنا، أنت وأنا، هنا لنعيش حياةً سعيدةً ومُرْضية. نحن هنا من أجل طفلَينا. قد لا نشعر بالراحة حين نتحدث الإسبانية، لكن ديفيد وفيدل سوف يشعُران. ستكون لغتهما الأم. سوف يتحدَّثانها مثل السكان الأصليين، من القلب. ولا تسخَر من العمل الذي تقوم به في أحواض السفن. وصلتَ إلى هذه البلاد عاريًا، بدون أي شيءٍ تقدمه إلا عمل يدَيك. كان يمكن أن تُبعَد، لكنك لم تُبعَد؛ تم الترحيبُ بك. كان يمكن أن تُترَك تحت النجوم، لكنك لم تُترَك؛ مُنِحتَ سقفًا فوق رأسك. لديك الكثير لتكون شاكرًا.»

يصمت. ويتكلم في النهاية. «هل هذه نهاية الموعظة؟»

– «نعم.»

١٤

الساعة الرابعة، وآخر الأجولة من سفينة الشحن على رصيف اثنَين تكدَّس على العربة. تقف الملك وصاحبتُها في سَرجَيهما وتمضغان بهدوء من أجولة علفهما.

يفرد ألفارو ذراعَيه ويبتسم له. ويقول: «انتهت مهمةٌ أخرى. مما يجعلك تشعر بارتياح، أليس كذلك؟»

– «على ما أعتقد. لكن لا يسعني إلا أن أسأل نفسي لماذا تحتاج المدينة كل هذه الحبوب، أسبوعًا بعد أسبوع.»

– «إنه طعام. لا يمكن العمل بدون طعام. وهو ليس من أجل نوفيلا فقط. إنه من أجل المنطقة النائية أيضًا. هذا ما يعنيه أن تكون ميناء؛ لديك منطقةٌ نائية عليك خدمتُها.»

– «لكن، لماذا كل هذه الكميَّة، في النهاية؟ تجلب السفنُ الحبوبَ من عَبْر البحار ونفرِّغها من السفن ويطحنُها آخرون ويخبزونها، وفي النهاية تؤكل وتتحول إلى — ماذا أسمِّيه؟ — فضلات، والفضلات تتدفق عائدةً إلى البحر. ماذا في ذلك يشعرك بارتياح؟ كيف ينسجم هذا مع صورةٍ أكبر؟ لا أرى صورةً أكبر، أي تصميم أكثر شموخًا. إنه مجرد استهلاك.»

– «مزاجك سيِّئ اليوم! من المؤكَّد أن المرء لا يحتاج إلى تصميمٍ شامخ ليبرِّر أنه جزء من الحياة. الحياة جيدة في ذاتها؛ المساعدة في تدفُّق الطعام ليتمكَّن رفاقك من العيش أمرٌ جيِّد بشكلٍ مضاعف. كيف يمكن الجدَل في هذا؟ على أية حال، ماذا لديك ضد الخبز؟ تذكَّر ما قاله الشاعر: الخبز هو الطريق الذي تدخل من خلاله الشمس إلى أجسامنا.»

– «لا أريد أن أجادل، يا ألفارو، لكن بشكلٍ موضوعي كل ما أفعله، كل ما نفعله نحن عُمَّال الأرصفة، نقل بضائع من النقطة «أ» إلى النقطة «ب»، جوالًا بعد آخر، يومًا بعد

يوم. يختلف الأمر إذا عرقنا من أجل سببٍ أسمى، لكن الأكل لنعيش ونعيش لنأكل — تلك طريقة البكتيريا، وليس الـ...»

– «ليس ماذا؟»

– «ليس الإنسان. ليس ذروة الخلق.»

– تكرس عادة راحات وقت الغداء للخلاف الفلسفي — هل نموت أم نتقمَّص إلى ما لا نهاية؟ هل تدور الكواكب البعيدة حول الشمس أم تدور حول بعضها البعض بالتبادُل؟ هل هذا أفضل العوالم الممكنة؟ — لكن اليوم، بدلَ أن يشُقوا طريقهم إلى بيوتهم، يتدافع عددٌ من العمال لسماع المناقشة. الآن يَلتفِت إليهم ألفارو. «ما رأيُكُم يا رفاق؟ هل نحتاج إلى خطةٍ عظيمة، كما يطلُب صديقنا، أم أنه جيدٌ بما يكفي بالنسبة لنا القيام بوظيفتنا والقيام بها بشكلٍ جيد؟»

يخيِّم الصمت. من البداية عامَل الرجال سيمون باحترام. إنه بالنسبة لبعضهم كبيرٌ بما يكفي لأن يكون أباهم. لكنهم يحترمون مُشرفَهم أيضًا، وحتى يُبجِّلونه. من الواضح أنهم لا يريدون أن يأخذوا جانبًا.

يقول أحدُهم — يوجينيو في الحقيقة: «إذا كنتَ لا تُحب العمل الذي تقوم به، إذا كنتَ لا تعتقد أنه جيد، أي عمل تُحب القيام به بدلًا منه؟ هل تُحب العمل في مكتب؟ هل تعتقد أن العمل في مكتب عمل أفضل بالنسبة للرجل؟ أو ربما العمل في مصنع؟»

يرُد: «لا. بشكلٍ قاطع لا. من فضلك لا تُسئْ فهمي. في ذاته هذا عملٌ جيد نقوم به هنا، عملٌ شريف. لكن ليس هذا ما نُناقِشه ألفارو وأنا. كنا نُناقِش هدف أعمالنا، الهدف النهائي. لا أفكِّر في الاستخفاف بالعمل الذي نقوم به. على العكس، إنه يعني الكثير بالنسبة لي. في الحقيقة.» — يفقد الخيط لكن هذا لا يهم — «ليس هناك مكانٌ يمكن أن أكون فيه إلا هنا، أعمل بجانبكم. في الوقت الذي قضيتُه هنا لم أشعر إلا بدعم الرِّفاق وحب الرِّفاق. وقد جعل أيامي مشرقة. جعلها ممكنة ...»

يقاطعه يوجينيو بنفاد صبر: «من المؤكد إذن أنك أجبتَ على سؤالك. تخيَّل أنك بلا عمل. تخيَّل أنك تقضي أيامك تجلس على دكةٍ عامة ولا تفعل شيئًا، منتظرًا مرور الساعات، بدون أصدقاء حولك تشاركهم مِزحة، بدون أن تدعمَك مَودَّة الرفاق. بدون عمل، ومشاركة العمل، الرفقة غير ممكِنة، لا تصبح أساسية.» يلتفت ويحدِّق حوله. «أليس كذلك يا رفاق؟»

هناك هَمهَمة اتفاق.

يرُد، محاولًا تغيير المسار، وإن يكن بدون اقتناع: «وماذا عن كرة القدم. بالتأكيد كنا سنحب بعضَنا البعض وندعم بعضَنا البعض لو كنا جميعًا ننتمي إلى فريق كرة قدم،

نلعب معًا، ونكسب معًا، ونخسر معًا. إذا كان حب الرفاق هو الخير النهائي، لماذا نحتاج إلى نقل هذه الأجولة الثقيلة من الحبوب، لماذا لا نركُل فقط كرة قدم؟»

يقول ألفارو: «لأنك لا يمكن أن تعيش بكرة القدم وحدها. لكي تلعب كرة قدم لا بد أن تكون حيًّا؛ ولكي تكون حيًّا لا بد أن تأكل. من خلال عملنا هنا نمكِّن الناس من أن يعيشوا.» يهزُّ رأسه. «كلما فكَّرت أكثر في الأمر تزداد قناعتي بأن العمل لا يمكن أن يُقارَن بكرة القدم، ينتمي الاثنان لعالَمين فلسفيَّين مختلفَين. لا يمكن أن أرى، لا يمكن أن أرى حقًّا، لماذا نريد الاستخفافَ بعملنا بهذه الطريقة.»

كل العيون عليه. يخيِّم صمتٌ شديد.

– «صدِّقني، لا أقصد الاستخفاف بعملنا. لأبرهن على صدقي، سوف آتي إلى العمل صباح الغد مبكرًا ساعة، وأقصِّر راحة غَدائي أيضًا. سوف أنقل أجولةً يوميًّا بعدَد ما ينقله أي رجل هنا. لكنني سوف أستمر أسأل: لماذا نقوم بذلك؟ لماذا هذا؟»

يتقدَّم ألفارو، يُلقي بذراعٍ قوية حوله. ويقول: «في العمل لن تكون المآثر البطولية ضرورية، يا صديقي. نعرف أين قلبك، لا تحتاج إلى أن تبرهن على صدقك.» ويأتي الرجال الآخرون أيضًا ليضربوه على ظهره ويحتضنونه. يبتسم للجميع، وتملأ الدموع عينيه؛ لا يستطيع التوقُّف عن الابتسام.

يقول ألفارو، وهو ما زال يقبض على يده: «ألم تَرَ مخزننا الرئيسي بعدُ، هل رأيتَه؟»

– «لا.»

– «إنه مرفقٌ رائع، إن كان لي أن أقول هذا بنفسي. لماذا لا تزوره؟ يمكن أن تذهب الآن مباشرة، إذا أحبَبتَ.» يلتفت إلى السائق، وينحني على مقعده منتظرًا انتهاء مناقشة العمال. «يمكن لرفيقنا أن يسير بك إلى المخزن، ألا يمكنه؟ أجل، بالطبع يمكنه. تعال!» — يساعده على الصعود بجانب السائق — «ربما تقدِّر عملَنا بشكلٍ أفضل بمجرد أن تُلقيَ نظرة على المخزن.»

المخزن بعيد عن الأرصفة أكثر مما توقَّع، على الضفة الجنوبية عند المنحنى حيث يبدأ النهر يضيق. بسرعةٍ كبيرة — مع السائق سوط لكنه لا يستخدمه، يُقعقِع فقط للفرسَين من حينٍ لآخر ليشجِّعهما — يستغرق الأمر ساعةً تقريبًا ليصل إلى هناك، وقتًا لم تصدُر كلمة خلاله.

يقف المخزن وحيدًا في حقل. إنه واسع، كبيرٌ بحجم ملعب كرة قدم، ومرتفعٌ ارتفاعَ منزل من طابقَين، بأبوابٍ منزلقةٍ هائلة تمُر من خلالها عربةٌ محمَّلة بسهولة.

يبدو أن يوم العمل انتهى؛ لأنه لم يكن هناك أحد يقوم بالتفريغ. بينما يناور السائق بالعربة بجانب منصة التحميل ويفُك أطقُم الفرسَين، يتجوَّل عميقًا في المبنى الضخم. ينفُذ النور من فجوات في الجدار والسقف ويكشف أجولةً مكدَّسة بارتفاع أمتار، جبل على جبل من الحبوب يمتد إلى الخلف في التجاويف المظلمة. بتكاسُل يحاول الحساب، لكنه يفقد المسار. مليون جوال على الأقل، ربما عدة ملايين. هل يمكن أن يكون في نوفيلا طحَّانون بما يكفي لطحن كل هذه الحبوب، وخبَّازون بما يكفي لخبزه، وأفواه بما يكفي لاستهلاكه؟

هناك صريرٌ جافٌّ تحت الأقدام: حبوبٌ مسكوبة. شيءٌ ناعم يرتطم بكاحله، وبشكل لا إرادي يركله. صرخة؛ وفجأة يدرك همسةً خافتة حوله، مثل صخَب تدفُّق المياه. يصرخ. الأرض من حوله تعج بالحياة. فئران! فئران في كل مكان!

ينادي وهو يعود مسرعًا مواجهًا السائق والبواب: «هناك فئران في المكان كله. هناك حبوب على الأرضية كلها، ولديكم طاعون الفئران. مرعب!»

يُبادِل الاثنان نظرة. يقول البوَّاب: «أجل، بالتأكيد لدينا نصيبنا من الفئران. والجرذان أيضًا. أكثر مما يمكن أن تعُد.»

– «ولا تفعلون شيئًا لها؟ إنه شيء غير صحي! إنها تُعشِّش في الطعام، وتلوِّثه!»

يهزُّ البوَّاب كتفَيه. «ماذا تريد أن نفعل؟ حيث تُوجد الحبوب تُوجد القوارض. هذا هو العالم. حاولنا إحضار قِطط، لكن الفئران لم تعُد تخشاها، وهناك الكثير جدًّا منها على أية حال.»

– «هذه ليست مناقشة. يمكن إحضار مصائد. يمكن وضع سمٍّ. يمكن تبخير المبنى.»

– «لا يمكن ضخُّ غازاتٍ سامة في مخزن طعام — افهم! والآن، إذا كنت لا تمانع، أريد إغلاق المخزن.»

أول شيء في الصباح التالي يثير المسألة مع ألفارو. «تفتخر بالمخزن، لكن هل ذهبتَ إليه بنفسك من قبلُ؟ إنه يغصُّ بالفئران. ماذا هناك يمكن أن تزهوَ به في عمل لتغذية مجموعة من الهوام؟ ليس عبثيًّا فقط، إنه جنون.»

يبتسم له ألفارو ابتسامة غيظٍ حميد. «أينما تُوجَد سفن تُوجد فئران. أينما تُوجد مستودعات تُوجد فئران؛ حيث يزدهر جنسنا تزدهر الفئران أيضًا. الفئران مخلوقاتٌ ذكية. يمكن أن تقول إنها ظلنا. أجل، تستهلك بعض الحبوب التي نفرغُها. أجل، هناك تلفٌ في المستودع. لكنَّ هناك تلفًا طول الطريق؛ في الحقول، في القطارات، في السفن، في المستودعات، في مخازن المخابز. لا معنى للانزعاج بسبب التلَف. التلَف جزء من الحياة.»

– «بالضبط لأن التلف جزء من الحياة لا يعني أننا لا يمكن أن نحاربه! لماذا تخزين الحبوب بالطن، بآلاف الأطنان، في عرائشَ موبوءةٍ بالفئران؟ لماذا لا يتم استيراد ما يكفي احتياجاتنا بالضبط، من شهرٍ لآخر؟ ولماذا لا يمكن أن تكون عملية النقل بالسفن كلها منظَّمة بشكلٍ أكثر كفاءة؟ لماذا نستخدم الجياد وعربات الكارو حين يمكن استخدام شاحنات؟ لماذا تأتي الحبوب في أجولة وتحمل على ظهور الرجال؟ لماذا لا يُمكِن صبُّها ببساطة في المخزن في الطرف الآخر، ودفعُها من هذا الطرف خلال أنبوبة؟»

يفكِّر ألفارو كثيرًا قبل أن يرُد: «في اعتقادك ماذا نصبح جميعًا، يا سيمون، إذا ضُخَّت الحبوب بالجملة كما تقترح؟ ماذا يصبح الفرَسان؟ ماذا يصبح الملك؟»

يرُد: «لن يكون لنا عملٌ هنا في أحواض السفن. أعترف. لكن بدلًا منه نجد وظائف تجميع المضخَّات أو قيادة الشاحنات. نحصُل جميعًا على عمل، كما في السابق، يكون فقط نوعًا مختلفًا من العمل، يتطلَّب الذكاء، ليس فقط القوة الوحشية.»

– «هكذا تودُّ تحريرنا من حياة العمل البهيمي. تريد أن نترك الأرصفة ونجد نوعًا آخر من العمل، حيث لا نقدر على حمل حمولة على أكتافنا، ونشعر بسنابل الحبوب في الجوال تميل وهي تأخذ شكل جسمنا، ونسمع حفيفَها؛ حيث نفقد التماس مع الشيء نفسه — مع الطعام الذي يُطعِمنا ويمنحنا الحياة.

– «لماذا نكون متأكِّدين جدًّا بأننا نحتاج إلى إنقاذ، يا سيمون؟ هل تعتقد أننا نعيش حياة عمال الشحن والتفريغ لأننا أغبياءُ جدًّا بحيث لا نفعل شيئًا آخر — أغبياء جدًّا بحيث لا نجمع مضخَّة أو نقود شاحنة؟ بالطبع لا. تعرفنا الآن. أنت صديقنا، رفيقنا. لسنا أغبياء. إذا كنا نحتاج إلى إنقاذ، لكنا أنقذنا أنفسنا الآن. لا، ليس نحن الأغبياء، المنطق الذكي الذي تعتمد عليه هو الغبي، يقدِّم لك إجابات خاطئة. هذا حوضنا، رصيفنا — صحيح؟» ينظر يسارًا ويمينًا؛ يهمهم الرجال بموافقتهم. «ليس هناك مكانٌ للمهارة هنا، فقط للشيء نفسه.»

لا يصدِّق أذنيه. لا يصدِّق أن الشخص الذي يطلق هذا الهُراء الظلامي هو صديقه ألفارو. ويبدو أن بقية الطاقم يسيرون خلفه بصلابة — شباب أذكياء يناقش معهم يوميًّا الحقيقة والمظهر، الصواب والخطأ. لو لم يكن مُولَعًا بهم لانصرف ببساطة — لانصرفَ وتركَهم لأعمالهم العقيمة. لكنهم رفاقُه الذين يتمنَّون له الخير، ومن واجبه أن يحاول إقناعهم بأنهم يتبعون المسار الخطأ.

يقول: «استمع إلى نفسك يا ألفارو. الشيء نفسه. هل تعتقد أن الشيء يبقى نفسه إلى الأبد، بدون تغيير؟ لا. كل شيء يتدفق. هل نسيتَ ذلك حين عبرتَ المحيط لتأتي إلى

هنا؟ مياه المحيط تتدفق وفي التدفُّق تتغيَّر. لا يمكن أن تنزل المياه نفسها مرتَين. كما يعيش السمك في البحر، نعيش في الزمن ولا بد أن نتغير مع الزمن. وبصرف النظر عن مدى صلابة التزامنا بالتقاليد المبجَّلة لشحن السفن وتفريغها، سوف يجتاحنا التغيير في النهاية. التغيير مثل المد المرتفع. يمكنك أن تبني حواجز، لكنه سوف يتسرب دائمًا من الشقوق.»

وقد اقترب الآن الرجال ليشكلوا نصف دائرة حول ألفارو وحوله. في سلوكهم لا يمكن أن يحدِّد أية عدوانية. على العكس، يشعُر أنه يُحَث بهدوء، يُحَث ليعبِّر عن نفسه بأفضل شكل.

يقول: «لا أحاول إنقاذكم. لا أتميَّز بشيء، لا أزعم أنني مخلِّص أحد. مثلكم عبرتُ المحيط. ومثلكم لم أجلب أي تاريخ معي. أي تاريخ كان لي تركتُه خلفي. أنا ببساطة رجلٌ جديد في أرضٍ جديدة، وهذا أمرٌ طيب. لكنني لم أتخلَّ عن فكرة التاريخ، فكرة التغيُّر بدون بداية أو نهاية. لا يُمكِن أن نتحرر من الأفكار حتى بمرور الزمن. الأفكار في كل مكان. العالم ممتلئ بها. بدونها لن يكون هناك عالم؛ لأنه لن يكون هناك وجود.

فكرة العدل، على سبيل المثال. نرغب جميعًا في العيش في ظل توزيعٍ عادل، توزيع يجلب فيه الكَدحُ الشريفُ المكافأةَ المناسبة؛ وهي رغبة طيبة، طيبة ومثيرة للإعجاب. لكن ما نفعلُه هنا في أحواض السفن لن يساعد على تحقيق هذا التوزيع. ما نفعله هنا لا يتعدى عرضًا للعمل البطولي. وهذا العرض يعتمد على جيش من الفئران ليستمر — فئران سوف تعمل ليلًا ونهارًا في التهام هذه الأطنان من الحبوب التي نُفرغُها لتوفِّر مكانًا في عريشةٍ لمزيد من الحبوب. بدون الفئران تنكشف عبثية عملنا.» يتوقف. يصمت الرجال. يقول: «ألا ترون ذلك؟ هل أنتم عميان؟»

يتلفَّت ألفارو حوله. يقول: «روح الأجورا.[١] من يرُد على صديقنا الفصيح؟»

يرفع أحد العمال الشباب يده. يومئ ألفارو له.

يقول الشاب، متحدثًا بطلاقة وثقة مثل طالبٍ متفوق: «يستدعي صديقُنا مفهوم الواقع بطريقةٍ مشوَّشة. لنوضح تشوُّشَه، دعنا نقارن التاريخ بالمناخ. يمكن أن نتفق على أن المُناخ الذي نعيش فيه أكبر منا. لا أحد منا يستطيع أن يفضي بما سيكون عليه المناخ.

[١] ساحة عامة، في اليونان القديمة، تُستخدَم للاجتماعات والأسواق.

لكن ليست خاصيةً أكبر منا ما يجعل المناخ واقعًا. المناخ واقع لأن له ظواهرَ واقعية. وتشمل تلك الظواهر الريح والمطر. وبالتالي حين تُمطر نبتَل؛ وحين تهبُّ الريح تتطاير قبَّعاتنا. المطر والريح مؤقَّتان، واقعان من الدرجة الثانية، يمكن إدراكهما بحواسنا. فوقهما في التدرج الهرمي للواقع يتربَّع المناخ.

لننظر الآن للتاريخ. إذا كان التاريخ، مثل المناخ، واقعًا أعلى، يكون للتاريخ ظواهر نستطيع الشعور بها من خلال حواسنا. لكن أين هذه الظواهر؟»

يتلفَّت حوله. «من منا طيَّر التاريخ قبَّعته؟» يخيِّم الصمت. «لا أحد. لأن التاريخ ليست له ظواهر. لأن التاريخ ليس واقعًا. لأن التاريخ مجرد قصةٍ ملفَّقة.»

– «لنكن أكثر دقة» — المتحدث هو يوجينيو، الذي أراد أمس أن يعرف إن كان يفضِّل العمل في مكتب — «لأن التاريخ ليست له ظواهر في الحاضر. التاريخ مجرد نمطٍ نراه فيما مضى. ليست له سلطةٌ ليصل إلى الحاضر.

– «يقول صديقنا سيمون إننا ينبغي أن نحصل على آلات تقوم لنا بعملنا؛ لأن التاريخ يقضي بذلك. لكن ليس التاريخ هو الذي يدعونا للتخلي عن عملنا الشريف، إنه الكسل وإغواء الكسل. الكسل واقع بطريقةٍ لا تنطبق على التاريخ. يمكن أن نشعُر به بحواسنا. يمكن أن نشعُر بظواهره كل مرة نستلقي فيها على العشب ونغلق عيوننا ونقسم بأننا لن ننهض مرةً أخرى، حتى حين تنطلق الصفَّارة، متعتُنا حلوةٌ جدًّا. أيٌّ منَّا سيقول، وهو يتسكَّع على العشب في يومٍ مشمس، يمكن أن أشعر بالتاريخ في عظامي يقول لي لا تنهض؟ لا. إنه الكسل الذي نشعُر به في عظامنا. لهذا لدينا التعبير: ليس في جسمه عَظْمةٌ كَسُول.»

ويوجينيو يتحدث تزداد استثارته. ربما خوفًا من ألا يتوقف أبدًا، يقاطعه رفاقه بنوبة تصفيق. يتوقف، وينتهز ألفارو الفرصة. يقول: «لا أعرف إن كان صديقنا سيمون يريد أن يرُد. يرفض صديقنا أعمالنا هنا لأنها عرضٌ عديم الفائدة، وهي ملاحظة قد يجدها بعضنا مؤذية. إذا فقط أنكر الملاحظة، أو بمزيد من التفكير ودَّ سحبها أو إصلاحها، فأنا على يقين من أن اللفتة ستكون موضع تقدير.»

دوره. المد ضده، بوضوح. هل لديه الإرادة ليقاوم؟

يقول: «بالطبع أسحب ملاحظتي المتهورة، وأعتذر علاوةً على ذلك عن أي أذًى قد تكون تسبَّبَت فيه. بالنسبة للتاريخ، كل ما يمكن أن أقولَه إننا بينما قد نرفض اليوم الاهتمام به، فإنه لا يمكن رفضه للأبد. وبالتالي لديَّ اقتراحٌ أقدِّمه. لنجتمع مرةً أخرى على هذا الرصيف في خلال عشر سنوات، أو حتى خمس سنوات، لنرى إن كانت الحبوب

ما زالت تُفرَّغ بالأيدي وتخزن في أجولة في سقيفةٍ مفتوحة قوتًا لأعدائنا الفئران. تخميني يقول لن يحدث ذلك.»

يقول ألفارو: «وماذا إذا تبين أنك مخطئ. إن كنا لا نزال نفرِّغ الحبوب بالضبط كما نفرِّغها اليوم، هل تسلِّم بأن التاريخ ليس واقعًا؟»

يرُد: «سأسلِّم. أحني رأسي لقوة الواقع. أدعوه للإذعان لحكم التاريخ.»

١٥

لبعض الوقت، بعد حديثه ضد الفئران، يجد الجو في العمل غير مريح. رغم أن رفاقه عطوفون كما كانوا دائمًا، يخيِّم السكوت حين يكون قريبًا.

وفي الحقيقة، وهو ينظر إلى الخلف على هبَّته، يحمرُّ وجهه خجلًا. كيف استطاع التقليل من شأن العمل الذي يفتخر به أصدقاؤه، العمل الذي يمتنُّ لأنه يُسمَح له بالمشاركة فيه؟

لكن الأمور بعد ذلك تصبح أسهل تدريجيًّا. في راحةٍ صباحية يأتي إليه يوجينيو، ويقدِّم جوالًا من الورق. يقول: بسكويت. خذ واحدة. خذ اثنتَين. هدية من جار.» وحين يعبِّر عن إعجابه (البسكويت لذيذ، يمكن أن يتذوق طعم الزنجبيل فيه وربما القرفة أيضًا)، يضيف يوجينيو: «نعرف كنت أفكر فيما قلتَ في ذلك اليوم، وربما يكون لديك هدف. لماذا ينبغي أن نطعم الفئران وهي لا تفعل شيئًا لإطعامنا؟ يأكل بعض الناس الفئران، لكنني لا آكلها بالتأكيد. هل تأكلها؟»

يقول: «لا. وأنا أيضًا لا آكل الفئران. أفضِّل بسكويتك أكثر.»

عند نهاية يوم العمل يعود يوجينيو إلى الموضوع. يقول: «انزعجتَ لأننا قد نكون آذينا مشاعرك. صدِّقني، ليس هناك عداء. نشعر جميعًا بأقصى ودٍّ تجاهك.»

يرُد: «لا أشعر بالأذى إطلاقًا. كان بيننا خلافٌ فلسفي، هذا كل ما في الأمر.»

يوافق يوجينيو: «خلافٌ فلسفي. أنت تعيش في البلوكات الشرقية، أليس كذلك؟ أسير معك حتى محطة الباص.» وليحافظ على حكاية أنه يعيش في البلوكات كان عليه أن يرافق يوجينيو إلى محطة الباص.

يقول ليوجينيو وهما ينتظران الباص رقم ٦: «هناك سؤال كان يشغلني. إنه غير فلسفي تمامًا. كيف تقضي أنت والرجال الآخرون وقت فراغكم؟ أعرف أن الكثير منكم

يهتمون بكرة القدم، لكن ماذا عن الأمسيات؟ لا يبدو أن لديكم زوجات أو أبناء. هل لديكم صديقات؟ هل تذهبون إلى نوادٍ؟ يُخبرني ألفارو بأن هناك أنديةً يمكن الانضمام إليها.»

يتغيَّر لون يوجينيو: «لا أعرف أي شيء عن النوادي. أذهب إلى المعهد أساسًا.»

– «حدِّثني عنه. سمعتُ عن المعهد، لكن ليست لديَّ فكرة عما يجري هناك.»

– «يقدِّم المعهد دروسًا. يقدِّم محاضراتٍ وأفلامًا ومجموعات نِقاش. ينبغي أن تنضم إليه. سوف تستمتع به. ليس للصغار فقط، هناك الكثير من الكبار أيضًا، وهو مجاني. تعرف كيف تذهب إلى هناك؟»

– «لا.»

– «في الشارع الجديد، قُرب التقاطع الكبير. مبنًى أبيضُ كبيرٌ بأبوابٍ زجاجية. ربما مرَرتَ بها كثيرًا بدون أن تعرف. تعالَ مساءَ الغد. يمكنك الانضمام إلى مجموعتنا.»

– «حسنًا.»

كما يتبيَّن، الفصل المسجل فيه يوجينيو، مع ثلاثةٍ آخرين من عُمَّال الشحن والتفريغ، في الفلسفة. يأخذ مقعدًا في الصف الخلفي، بعيدًا عن رفاقه، بحيث يمكن أن يتسلل إذا أصابه الملَل.

تصل المدرِّسة ويخيِّم الصمت. إنها امرأة في منتصف العمر، ترتدي ملابس تفتقر إلى الأناقة، في نظره، شعرها رماديٌّ مقصوصٌ جدًّا وبدون مكياج. تقول: «مساء الخير. لنستأنف ما توقَّفنا عنده الأسبوع الماضي، ونُواصِل استكشافَنا للطاولة — وقريبها المقرَّب الكرسي. كما تتذكَّرون، كنا نُناقِش مختلف أنواع الموائد الموجودة في العالم، ومختلف أنواع الكراسي. كنا نتساءل عن الوحدة خلف كل الاختلاف، وما يجعل كل الموائد موائد، وكل الكراسي كراسي.»

بهدوء ينهض ويتسلَّل من الغرفة.

الدهليز خاوٍ باستثناء شخصٍ بروبٍ أبيضَ طويل يُسرِع باتجاهه. والشخص يقترب يرى أنه ليس إلا آنا من المركز. ينادي: «آنا!» ترُد آنا: «أهلًا — آسفة لا يمكن أن أقف، أنا متأخرة.» لكنها تتوقف بعد ذلك: «أعرفكَ، أليس كذلك؟ نسيتُ اسمك.»

– «سيمون. التقَينا في المركز. كان معي ولدٌ صغير. بكرمٍ منحتِنا مأوًى في أول ليلةٍ لنا في نوفيلا.»

– «بالطبع! كيف حالُ ابنك؟»

الروبُ الأبيضُ في الحقيقة برنسُ حمَّامٍ أبيض من قماش الفوط؛ قدماها حافيتان. ملابسُ غريبة. هل في المعهد حمَّام سباحة؟

تُلاحِظ نظرتَه المرتبكة وتَضحَك. تقول: «أنا موديل. أعمل موديل ليلتَين أسبوعيًّا. لفصل حي.»

– «فصل حي؟»

– «فصل رسم. رسم الأشخاص. أنا موديل الفصل.» تَفرِد ذراعَيها كما لو كانت تتثاءب. تفتح ثنية الروب عند عنقها؛ يلمح ثديَين أُعجِب بهما كثيرًا. «ينبغي أن تُسرِع. إذا كنتَ تريد أن تتعلم ما يتعلق بالجسد، ليست هناك طريقة أفضل.» وبعد ذلك، قبل أن يستطيع التغلُّب على ارتباكه: «إلى اللقاء — أنا متأخرة. تحياتي لابنك.»

يتجوَّل في الدهليز الخاوي. المعهد أكبر مما خمَّن من الخارج. من خلف بابٍ مغلَق تأتي موسيقى، امرأة تُغنِّي بأسًى بمصاحبة قيثارة. يتوقَّف أمام لوحة إعلانات. قائمةٌ طويلة من الفصول الدراسية يتم تقديمها. رسمٌ معماري. محاسبة. حسابُ التفاضل والتكامل. فصلًا بعد فصل في الإسبانية؛ الإسبانية للمبتدئين (اثنا عشر قسمًا)، الإسبانية المتوسطة (خمسة أقسام)، الإسبانية المتقدمة، التعبير الإسباني، المحادثة الإسبانية. ينبغي أن يأتيَ إلى هنا بدلًا من الصراع مع اللغة بمفرده. لا يرى أدبًا إسبانيًّا. لكن ربما يقع الأدب تحت الإسبانية المتقدمة.

لا تُوجَد فصولُ لغاتٍ أخرى. لا برتغالية. لا كاتالونية. لا جاليكية. لا باسكية. لا إسبرانتو. لا فولابوك.[١]

يبحث عن رسم الأشخاص. ها هو: رسم الأشخاص، من الإثنين إلى الجمعة ٧–٩ مساء، الأحد ٢–٤ مساء؛ التسجيل بقسم ١٢؛ القسم ١ مغلق، القسم ٢ مغلق، القسم ٣ مغلق. من الواضح أنه فصل شعبي.

فن الخط. الحِيَاكة. صناعة السِّلال. تنسيق الزهور. صناعة الفخَّار. فن الدُّمى.

الفلسفة. مبادئ الفلسفة. الفلسفة؛ موضوعات مختارة. فلسفة العمل. الفلسفة والحياة اليومية.

يدُق الجرس معلنًا الساعة. يخرج الدارسون إلى الدهليز، في البداية تقاطُر ثم سيل، ليسوا شبابًا فقط ولكن أيضًا أناسٌ في عمره وأكبر، بالضبط كما قال يوجينيو. لا غرابة في

[١] الإسبرانتو والفولابوك: لغتان مصطنَعتان ابتُكرَت الأولى في ١٨٨٧م، وابتكر الثانيةَ رجلُ الدين الألماني يوهان سكلير، كوسيلةٍ دوليةٍ للاتصال، اعتمادًا على جذور مجموعة من اللغات الأوروبية.

أن تكون المدينة مثل مَشرحةٍ بعد حلول الظلام! الجميع هنا في المعهد، يُحسِّنون أوضاعهم. الجميع مشغولون بأن يكونوا مواطنين أفضل، أشخاصًا أفضل، باستثنائه.

يناديه صوت. إنه يوجينيو، يلوِّح له من بين المد البشري. «تعالَ! نحن ذاهبون لنحصل على شيءٍ نأكله! تعالَ وانضَم إلينا!»

يتَتبَّع يوجينيو ويهبط مجموعةَ سلالم إلى كافتيريا ساطعة الإضاءة. هناك صفوفٌ طويلة من الناس ينتظرون تقديمَ الخدمة لهم. يخدمُ نفسه ويأخذ طبَقًا وأدواتِ مائدة.

يقول يوجينيو: «اليوم الأربعاء، وهو ما يعني أنها مكرونة. هل تُحب المكرونة؟»

– «نعم، أحِبُّها.»

يأتي دورهما. يمُد طبَقَه وتضع يدٌ على المنضدة وجبةً كبيرةً من الإسباكيتي فيه. وتُضِيف يدٌ ثانية كميةً من الصلصة. يقول يوجينيو: «خُذ لفَّة خبزٍ أيضًا. إذا كنتَ تريدُ أن تمتلئ.»

– «أين ندفَع؟»

– «لا ندفَع. إنها مجَّانية.»

يجدان طاولة وينضَم إليهما العُمَّال الشباب الآخرون.

يسألهم: «كيف كان فصلُكم؟ هل استوعبتُم ما الكرسي؟»

كان يقصد المزاح، لكن الشباب يحدِّقون فيه بانشداه.

يقول أحدهم في النهاية: «ألا تعرف ما الكرسي. انظر. إنك تجلس على واحد.» ينظر إلى رِفاقه. ينفجرون جميعًا في الضحك.

يُحاوِل الانضمامَ إليهم، ليظهر أنه يتمتَّع بروحٍ رياضية. يقول: قصدتُ، هل اكتشفتم مكوِّناته ... لا أعرف كيف أعبِّر ...»

يقول يوجينيو: «جوهر الكرسي. كرسيك» — يشير باتجاه الكرسي — «يجسِّد جوهر الكرسي، أو يشارك فيه، أو يحقِّقه، كما تُحب مدرستنا أن تقول. هكذا تعرف أنه كرسيٌ وليس طاولة.»

يضيف رفيقه: «أو جِذْعًا.»

يقول سيمون: «هل قالت لكم مدرستكم حين يطلب رجل أن يعرف أن الكرسي كرسي، أن تركل الكرسي موضع السؤال، وتقول، هكذا، يا سيدي، أعرفه؟»

يقول يوجينيو: «لا. لكن ليس هكذا تعرف أن الكرسي كرسي. هكذا تعرف أنه موضوع. موضوع الركل.»

يصمت. الحقيقة هي أنه ليس في مكانه في هذا المعهد. يجعل التفلسُف صَبْره ينفَد. لا يبالي بالكراسي أو جوهرها.

تخلو الإسباكيتي من التوابل. صلصة الطمام مجرد طماطمَ معصورة، ودافئة. يتلفَّت حوله بحثًا عن ملَّاحة، لكن لا يُوجَد. وليس هناك فلفل. لكن الإسباكتي تغيير على الأقل. أفضل من الخبز الأبدي.

يسأل يوجينيو: «وهكذا — أي فصولٍ تفكِّر في التسجيل فيها؟»

– «لم أقرِّر بعدُ. ألقيتُ نظرةً على القائمة. مجموعة كبيرة من العروض. فكَّرتُ في رسم الأشخاص، لكنَّني أرى أنه مكتمل.»

– «لن تنضَم إلى صفِّنا إذن. يا له من أمرٍ مؤسف! صارت المناقشة مشوِّقة أكثر بعد خروجك. تحدَّثنا عن اللانهاية ومخاطر اللانهاية. ماذا إن كان، بعد الكرسي النموذجي، كرسي نموذجي أكثر، وهكذا إلى ما لا نهاية؟ لكن رسم الأشخاص مشوِّق أيضًا. يُمكِن أن تأخذ الرسم في هذا الفصل الدراسي — الرسم العادي. ثم تكون لك الأفضلية في رسم الأشخاص في الفصل الدراسي التالي.»

يُوضِّح فتًى آخر: «رسمُ الأشخاص جماهيريٌّ جدًّا. يريد الناس معرفة الجسَد.»

يبحث عن مفارقة، لكن لا تُوجَد مفارقة، كما لا يُوجَد ملح.

يسأل: «إذا كنتَ تريدُ معرفةَ الجسم البشري، ألا يكون فصلٌ في التشريح أفضل؟»

لا يُوافِق الفتي. «يحدِّثك التشريح عن أجزاء الجسم فقط. إذا كنتَ تريدُ معرفة الكل تحتاج إلى أن تأخذ شيئًا مثل رسم الأشخاص أو الموديل.»

– «بالكل تعني ...؟»

– «أقصد أولًا الجسد بوصفه جسدًا، ثم الجسد في شكله النموذجي.»

– «ألا تعلِّمك الخبرة العادية ذلك؟ أقصد، ألا يعلِّمك قضاء بضع ليالٍ مع امرأةٍ كل ما تحتاج إلى معرفته عن الجسد بوصفه جسدًا؟»

يخجل الولد وينظر حوله طلبًا للمساعدة. يلعَن نفسه. هذه النكات الغبية التي يتفوَّه بها!

يواصل: «وبالنسبة للجسد في شكله النموذجي، ربما يكون علينا انتظار الآخرة لنراه.»

يدفع الإسباكيتي جانبًا وقد أكل نصفَها. كثيرة جدًّا بالنسبة له، ثقيلة جدًّا. يقول: «لا بد أن أذهب. طابت ليلتكم. أراكم في أحواض السفن غدًا.»

– «طابت ليلتك.» لا يبذلون أي جهد لإبقائه. وبحق. كيف يبدو لهم حتمًا، لهؤلاء الشبان الرائعين، المجدِّين، المثاليين، الأبرياء؟ ماذا يمكن أن يتعلموا من البخار الخانق الذي يُطلِقه؟

يسأل ألفارو: «كيف حالُ ولدك؟ نفتقده. هل وجدتَ له مَدْرسة؟»

– «لم يبلغ سنَّ المدرسة بعدُ. إنه مع أمه. لا تريده أن يقضي وقتًا طويلًا جدًّا معي. تقول إن عواطفه ستبقى مقسَّمة طالما كان هناك راشدان يؤكِّدان حقَّهما فيه.»

– «لكن هناك دائمًا راشدان يؤكِّدان حقَّهما فينا؛ أبونا وأمنا. لسنا نَحلًا أو نَملًا.»

– «ربما يكون الأمر كذلك. لكنني على أية حال لستُ والد ديفيد. أمُّه هي الأم لكنني لستُ الأب. هناك اختلاف. ألفارو، إنه موضوعٌ مؤلم. هل يمكن أن نتركه؟»

يُمسِك ألفارو بذراعه. «ديفيد ليس ولدًا عاديًّا. صدِّقني، راقبتُه، أعرف ما أتحدَّث عنه. هل أنت متأكِّد من أنك تعمل لمصلحته؟»

– «سلَّمتُه لأمه. إنه في رعايتها. لماذا تقول إنه ليس ولدًا عاديًّا؟»

– «تقول إنك سلَّمتَه، لكن هل يريد حقًّا أن يُسلَّم؟ لماذا تخلَّت عنه أمُّه في البداية؟»

– «لم تتخلَّ عنه. افترقا هو وهي. لبعض الوقت عاشا في مجالَين مختلفَين. ساعدتُه في العثور عليها، والتأم شملهما. الآن بينهما علاقةٌ طبيعية، علاقة أم وابن. بينما لم تكن العلاقة بينه وبيني طبيعية. هذا كل ما في الأمر.»

– «إذا كانت علاقته بك ليست طبيعية، فماذا تكون؟»

– «مجرَّدة. علاقتُه معي مجرَّدة. علاقة مع شخصٍ يرعاه في المجرَّد لكنه ليس عليه واجبٌ طبيعي لرعايته. ماذا قصدتَ بأنه لم يكن ولدًا عاديًّا؟»

يهزُّ ألفارو رأسه. «طبيعية، مجرَّدة ... لا معنى لهذا بالنسبة لي. كيف تعتقد أن الأم والأب يأتيان معًا في البداية — أمَّ طفل المستقبل وأباه؟ لأن كلًّا منهما يدين للآخر بواجبٍ طبيعي؟ بالطبع لا. يتقاطع مساراهما صدفة، ويقعان في الحب. ماذا يمكن أن يكون أقل طبيعية، وأكثر اعتباطية، من ذلك؟ نتيجة وضعهما العشوائي يأتي كائنٌ جديدٌ إلى العالم، روحٌ جديدة. مَن، في هذه القصة، يدين لمن؟ لا أعرف، وأنا متأكد من أنك أيضًا لا تعرف.

اعتدتُ أن أراقبك أنت وولدك معًا، يا سيمون، واستطعتُ أن أرى؛ إنه يثق فيك تمامًا. يُحبك. وتُحبه. لماذا إذن تخلَّيتَ عنه؟ لماذا انفصلتَ عنه.»

– «لم أنفصل عنه. أمه فصلَته عني، وهذا حقها. لو كان لي أن اختار، لبقي معي. لكن لا يمكن أن أختار. ليس لي الحق في الاختيار. ليست لي حقوق في هذه المسألة.»

١٥

يصمت ألفارو، ويبدو أنه يستغرق في نفسه. يقول في النهاية: «أخبرني أين يمكن أن أجد هذه المرأة. أودُّ أن أتحدث معها.»

– «احذَر. لها أخٌ شرِّير جدًّا. لا ينبغي أن تشتبك معه. في الحقيقة لها أخوان، أحدهما شرِّير مثل الآخر.»

يقول ألفارو: «أستطيع أن أحرصَ على نفسي. أين أجدها؟»

– «اسمها إيناس، وقد أخذَت شقَّتي القديمة في البلوكات الشرقية؛ البلوك بي، رقم ٢٠٢ في الطابق الثاني. لا تقل إني أرسلتُك؛ لأن ذلك يُمكِن ألا يكون صحيحًا. لا أرسلك. ليست فكرتي إطلاقًا، إنها فكرتُك.»

– «لا تقلق، سأوضِّح لها أنها فكرتي، وأنه لا علاقة لك بها.»

في اليوم التالي، في أثناء راحة منتصف اليوم. يشير ألفارو له. يقول بدون مقدِّمات: «تحدَّثتُ مع إيناسك. تقبل أن ترى الولد، لكن ليس بعدُ. في نهاية الشهر.»

– «خبرٌ رائع! كيف أقنعتَها؟»

يلوِّح ألفارو بيدٍ رافضة: «لا يهم كيف. تقول إنك يمكن أن تأخذَه في نُزهات. سوف تُخبرك بالموعد. سألَت عن رقم تليفونك. لم أكن أعرفُه فأعطيتُها رقم تليفوني. قلتُ إنني سأنقل الرسائل.»

– «لا أستطيع التعبير عن مدى امتناني. أكِّدْ لها من فضلك أنني لن أفسد الولد — أعني أنني لن أفسد علاقتَه بها.»

١٦

يأتي الاستدعاء من إيناس أسرع من المتوقَّع. في الصباح التالي مباشرةً يطلبه ألفارو. يقول: «في شقتك طارئ. هاتفَتْني إيناس وأنا أغادر البيت. طلبَت مني الحضور، لكنني أبلغتُها بأنني ليس لديَّ وقت. لا تنزعج، لا علاقة للأمر بولدك، السباكة فقط. سوف تحتاج أدوات. خذ صندوق الأدوات من السقيفة. أسرع. إنها قلقة جدًّا.»

تُقابِله إيناس عند الباب، مرتدية (لماذا؟ — ليس يومًا باردًا) معطفًا ثقيلًا. إنها قَلِقة، حانقة تمامًا. تقول إن المرحاض مكسور. جاء مشرف المبنى لفحصه، لكنه رفض عمل أي شيءٍ حيال ذلك لأنها (كما قال) ليست المستأجرة القانونية، وهو لا يعرفها (كما قال) تمامًا. اتصلَت بأخوَيها في البنسيون، خذلاها بالاعتذارات؛ لأنهما شديدا الحساسية (تقول بمرارة) بحيث لا يوسِّخان أيديَهما. وهكذا في هذا الصباح، كملاذٍ أخير، اتصلَت بزميله ألفارو، وهو عامل لا بد أن يعرف في السباكة. والآن ليس ألفارو بل هو.

تتكلم وتتكلم، وهي تمشي بغضب حول غرفة المعيشة. نقَص وزنها منذ رآها آخر مرة. في زاويتَي فمها خطوطٌ شاحبة. يُنصِت صامتًا؛ لكنَّ عينَيه على الولد، الذي يجلس في السرير — هل استيقظ للتو؟ — يحدِّق فيه غير مصدِّق، وكأنه عاد من أرض الموتى.

يبتسم للولد. أهلًا! يعبُر بصمت.

يُخرِج الولد إبهامه من فمه ولا يتكلم. شعره مجعَّد بشكلٍ طبيعي، وقد تُرك طويلًا. يرتدي بيجامةً زرقاء شاحبة مزيَّنة بتصميم باللون الأحمر لفيلة تقفز وأفراس النهر.

لم تتوقَّف إيناس عن الكلام. تقول: «كانت في المرحاض مشاكلُ منذ انتقَلنا إلى هنا. لن أستغرب إذا لامنا الناس في الشقة التي تحتنا. طلبتُ من المشرف فحص الدور الأرضي، لكنه حتى لم يستمع إليَّ. لم أقابل قطُّ مثل هذا الرجل الوقح. لا يهتم بأنك يمكن أن تشم رائحة النتَن بالفعل من الدهليز.»

تتحدث إيناس عن الصرف الصحي بدون حرج. يصدمه حديثُها ويستغربه؛ إن لم يكن حميمًا، فالمسألة حسَّاسة على الأقل. هل تعتبره ببساطة عاملًا يأتي للقيام بعملٍ لها، شخصًا لن تقع عيناها عليه مرةً أخرى قط؛ أم أنها تثرثر لتُخفِي الانزعاج؟

يعبُر الغرفة، يفتح النافذة، ويميل للخارج. أنبوبة الطرد من المرحاض تؤدِّي مباشرةً إلى خط صرفٍ صحي إلى أسفل الجدار الخارجي. تحته بثلاثة أمتار أنبوبة الطرد من شقة الدور الأرضي. يسأل: «هل تحدَّثتِ مع الناس في رقم ١٠٢؟ إن كان الخط كلُّه مسدودًا، سيكون عندهم نفس مشكلتك. لكن اسمحي لي بإلقاء نظرةٍ على المرحاض أولًا، فقط إن كان العيبُ واضحًا.» يلتفِت إلى الولد. «هل تساعدني؟ أليس هذا وقت استيقاظك، أيها الكسول! انظر إلى ارتفاع الشمس في السماء!»

يتلوَّى الولد ويبتسم له بسرور. ينشرح قلبه. كم يُحب هذا الطفل! يقول: «تعالَ هنا! من المؤكَّد أنك لست كبيرًا جدًّا بحيث لا تمنحني قُبلة؟»

يقفز الولد من السرير ويندفع ليحضنه. يتنفَّس بعمق الروائح اللبنية غير المغسولة. يقول: «أنا معجب ببيجامتك الجديدة. هل نذهب ونفحص؟»

قاعدة المرحاض ممتلئة تقريبًا إلى حافتها بالماء والنفايات. في صندوق الأدوات الذي أتى به لفة من السلك الصُّلب. يثني طرف السلك على شكل خطَّاف، ويجسُّ بشكلٍ عمياني عنق القاعدة، ويُخرِج لفَّة ورق مرحاض. يسأل الولد: «هل لديكم قصرية؟» يسأل الولد: «وعاء للتبول؟» يُومئ. يُسرِع الولد ويعود وهو يحمل قصرية غرفة مكسُوَّة بقطعة من القماش. وبعد لحظة تندفع إيناس وتخطف القصرية وتخرج بدون أن تتفوه بكلمة.

يقول للولد: «ابحث لي عن جوال بلاستيك. تأكَّد من أنه ليس به ثقوب.»

يصطاد كتلةً كبيرة من الورق من الأنبوبة المسدودة، لكن مستوى الماء لا يهبط. يقول للولد: «البَسْ لنذهب إلى الدور الأرضي.» ويقول لإيناس: «إذا لم يكن في البيت في ١٠٢ أحد فسوف أحاوِل فتح الخزان في المستوى الأرضي. وإذا كان الانسداد بعد تلك النقطة، فلن أستطيع القيام بأي شيء حِياله. ستكون مسئولية السلطة المحلية. لكن لنرَ.» يتوقف: «بالمناسبة، يمكن أن يحدُث شيءٌ مثل هذا لأي شخص. ليست غلطة أحد. إنه مجرد سوء حظ.»

يحاول جعل الأمور أبسط بالنسبة لإيناس، ويتمنى أن تعرف ذلك. لكنَّ عينَيها لا تلتقي بعينَيه. إنها مرتبكة، وغاضبة؛ أكثر مما يمكن أن يخمِّن.

برفقة الولد يطرق على باب الشقة ١٠٢. بعد انتظارٍ طويل يسحب التِّرباس ويفتح الباب فتحةً ضيقة. فيما يشبه العتمة يمكن أن يتبيَّن شخصًا قاتمًا، لا يمكن أن يعرف إن كان رجلًا أو امرأة.

يقول: «صباح الخير. آسف للإزعاج. أنا من الشقة التي فوقكم، ولدينا مرحاضٌ مسدود. أتساءل إن كنتم تواجهون مشكلةً مماثلة.»

يُفتَح الباب أكثر. إنها امرأة، عجوز محنية، لون عينَيها رماديٌّ باهت يوحي بأنها لا ترى.

تكرر: «صباح الخير. مرحاضكم. هل تواجهون أية مشكلة مع مرحاضكم؟ إي انسداد؟»[١]

لا رد. تقف ساكنةً تمامًا، يتجه وجهُها مستفهمًا تجاهه. هل تُعانِي من الصمَم بالإضافة إلى العمى؟

يتقدم الولد. يقول: «يا جدة.»[٢] تمُد العجوز يدَها وتملِّس على شعره، وتستكشف وجهه. للحظة يضغَط بثقةٍ عليها؛ ثم ينسل إلى الشقَّة. ويعود بعد لحطة. يقول: «إنه نظيف. مرحاضُهم نظيف.»

يقول، وينحني: «شكرًا لك سنيورا. شكرًا لك على مساعدتك. آسف لإزعاجك.» وللولد: «مرحاضهم نظيف، وبالتالي — وبالتالي ماذا؟»

يقطِّب الولد.

– «هنا، في الدور الأرضي، تتدفق المياه بحُرية. هناك، في الدور العلوي» — يشير إلى مجموعة السلالم — «المياه لا تتدفَّق. وبالتالي ماذا؟ وبالتالي أين تكون الأنابيب مسدودة؟»

يقول الولد بثقة: «في الدور العلوي.»

– «رائع! وبالتالي أين ينبغي أن نذهب لإصلاحه: إلى الدور العلوي أم الأرضي؟»

– «الدور العلوي.»

– «ونذهب إلى الدور العلوي لأن المياه تتدفق بأية طريقة، إلى أعلى أم إلى أسفل؟»

– «إلى أسفل.»

– «دائمًا؟»

[١] يالإسبانية في الأصل.

[٢] بالإسبانية في الأصل.

– «دائمًا. تتدفق إلى أسفل دائمًا. وأحيانًا إلى أعلى.»

– «لا. لا تتدفق إلى أعلى قط. إلى أسفل دائمًا. هذه طبيعة المياه. السؤال هو كيف تصل المياه إلى الأدوار العليا إلى شقتنا بدون أن تتعارض مع طبيعتها؟ كيف يحدُث هذا حين نفتح الحنفية أو ننظِّف المرحاض، تتدفق المياه من أجلنا؟»

– «لأنها تتدفق من أجلنا.»

– «لا. ليست الإجابة الصحيحة. لأضع السؤال بشكلٍ مختلف. كيف تصل المياه إلى شقتنا بدون أن تتدفق إلى أعلى؟»

– «من السماء. تسقُط من السماء إلى الحنفيات.»

– «صحيح. تسقط المياه من السماء». يقول، ويرفع إصبعًا تحذيريًّا: «لكن، لكن كيف تصل المياه إلى السماء؟»

فلسفة الطبيعة. لنرَ، يفكِّر، مقدار فلسفة الطبيعة في هذا الطفل.

يقول الطفل: «لأن السماء تتنفس» — يسحب نفسًا عميقًا ويحبسه، وابتسامةٌ على وجهه، ابتسامة بهجةٍ ذهنيةٍ خالصة، ثم يُخرِجه فجأة — «وتُخرِج السماء النفس.»

يغلق الباب. يسمع قرقعة ترباس تنطلق.

– «هل حدَّثَتك إيناس عن ذلك — عن تنفُّس السموات؟»

– «لا.»

– «هل فكَّرتَ فيه بنفسك؟»

– «نعم.»

– «ومَن في السموات يشهق ويزفر ويصنع المطر؟»

يصمتُ الولد. يركِّز بشدة. وفي النهاية يهزُّ رأسه.

– «ألا تعرف؟»

– «لا أتذكَّر.»

– «لا تُبالِ. لنذهَب ونخبِر أمَّك بالأخبار.»

الأدوات التي أحضَرها عديمة الفائدة. فقط السلك البدائي يمكن أن يفيد.

يقترح على إيناس: «لماذا لا تخرجان أنتما — الاثنَين — في نزهة. ما سأفعله ليس مثيرًا جدًّا. لا أجد سببًا يجعل صديقنا الصغير يتعرَّض له.»

تقول إيناس: «أفضِّل أن أستدعي سبَّاكًا حقيقيًّا.»

– «إذا لم أتمكن من القيام بالمهمة فسوف أذهب وأعثُر لك على سبَّاكٍ حقيقي، أعِدُك. بطريقة أو أخرى سوف يتم إصلاحُ مرحاضك.»

يقول الولد: «لا أريد أن أخرج للنزهة. أريد أن أساعدك.»

– «شكرًا، يا ولدي، أقدِّر ذلك. لكنه ليس عملًا يحتاج إلى مساعدة.»

– «يُمكِن أن أقدِّم لك أفكارًا.»

يتبادل نظرة مع إيناس. يمُر بينهما شيءٌ غير معلَن. ابني الذكي! تقول النظرة.

يقول: «صحيح. أفكارك جيدة. لكن للأسف، المرحاض ليس مستقبلًا للأفكار. المراحيض ليست جزءًا من عالم الأفكار، إنها مجرد أشياءَ بشِعة، والعمل معها ليس إلا عملًا بشعًا. وبالتالي اذهب للنزهة مع أمك حتى أنتهي من هذه المهمة.»

يقول الولد: «لماذا لا يمكن أن أبقى؟ إنه مجرد براز.»

في صوت الولد نبرةٌ جديدة، نبرة تحدٍّ لا يُحبها. في طريقه للغرور، كل هذا الثناء.

يقول: «المراحيض مجرد مراحيض، لكن البراز ليس مجرد براز. هناك أشياءُ معيَّنة ليست نفسها بالضبط، ليست نفسها طول الوقت. البراز أحدها.»

تسحب إيناس يد الولد. تتَّقِد غضبًا. تقول: «تعالَ!»

يهزُّ الولد رأسه. يقول: «إنه برازي. أريد أن أبقى!»

– «إنه برازك. لكنك أفرغته. تخلَّصتَ منه. لم يعُد ملكَك. لم يعُد لك حقٌّ فيه.»

تتذمَّر إيناس وتنسحب إلى المطبخ.

يُواصِل: «بمجرد أن يصل إلى أنابيب الصرف لا يكون برازَ أحد. في المجاري يختلط ببرازِ الآخرين جميعًا ويصبح برازًا عامًّا.»

– «لماذا تعترض إيناس إذن؟»

إيناس. هل هذا ما يُناديها به: ليست مامي، ليست أمي؟

– «إنها مرتبكة. لا يحب الناس الحديث عن البراز. إنه كريه الرائحة. البراز ممتلئ بالبكتيريا. البراز ليس جيدًا بالنسبة لك.»

– «لماذا؟»

– «لماذا ماذا؟»

– «إنه برازها أيضًا. لماذا تعترض؟»

– «ليست معترضة، إنها حسَّاسة فقط. بعض الناس حسَّاسون، هذه طبيعتهم، لا يمكن أن تسأل لماذا. لكن ليست هناك حاجة إلى أن تكون حسَّاسًا؛ لأنه، كما قلتُ لك، من نقطةٍ معيَّنة ليس براز أحد بشكلٍ خاص، إنه مجرد براز. تحدث مع أي سبَّاك وسوف يُخبرك بالكلام نفسه. السبَّاك لا ينظر إلى البراز ويقول لنفسه، يا له من رائع، من يظن

أن السيد «س» أو السيدة «ص» لها براز من هذا! إنه مثل الحانوتي. الحانوتي لا يقول لنفسه، يا له من رائع! ...» يتوقَّف. يفكِّر: إنني أنساق، أتكلم كثيرًا جدًّا.

يسأل الولد: «ما الحانوتي؟»

– «الحانوتي يقوم برعاية أجساد الموتى. إنه مثل السبَّاك. يرى أن أجساد الموتى تُرسَل إلى المكان المناسب.»

والآن سوف تسأل، ما جسد الميت؟

يسأل الولدُ: «ما أجساد الموتى؟»

– «أجساد الموتى أجساد ابتُلِيَت بالموت، لم يعُد لها فائدة بالنسبة لنا. لكن ليس علينا الانزعاج بشأن الموت. بعد الموت هناك دائمًا حياةٌ أخرى. رأيتَ ذلك. نحن البشر محظوظون من تلك الناحية. لا نُشبِه البراز، الذي يبقى ويختلط مرةً أخرى بالأرض.»

– «ماذا نُشبِه؟»

– «ماذا نُشبِه إذا كنا لا نُشبِه البراز؟ نحن مثل الأفكار. الأفكار لا تموت أبدًا. سوف تتعلم ذلك في المدرسة.»

– «لكننا نصنع برازًا.»

– «صحيح. نشترك مع المثالي في بعض سماته لكننا أيضًا نصنع البراز. هذا لأن طبيعتنا مزدوجة. لا أعرف كيف أعبِّر عن الأمر بشكلٍ أبسط.»

يصمت الولد. يفكِّر: دَعْه يفكِّر في الأمر. يركع بجانب قاعدة المرحاض، ويطوي كمه إلى أعلى بقَدْر المستطاع. يقول: «اذهب لنزهة مع أمك. هيا.»

يقول الولد: «والحانوتي؟»

– «الحانوتي؟ رعاية الموتى مجرد وظيفةٍ مثل أية وظيفةٍ أخرى. الحانوتي لا يختلف عنا. هو أيضًا طبيعتُه مزدوجة.»

– «هل يمكن أن أراه؟»

– «ليس الآن. لدينا أشياءُ أخرى علينا القيام بها الآن. في المرة القادمة حين نذهب إلى المدينة سوف أرى إن كان يمكن أن نجد محل حانوتي. ثم يُمكِن أن تلقي نظرة.»

– «هل يمكن أن نُلقيَ نظرة على الأجساد الميتة؟»

– «لا، بالتأكيد لا. الموت مسألةٌ خاصة. رعاية الموتى مهنةٌ متحفِّظة. لا يعرض الحانوتية أجساد الموتى على الجمهور. والآن يكفي ما تحدَّثنا به عن الموضوع.» يجسُّ بالسلك في مؤخرة القاعدة. بشكلٍ ما لا بد أن يتبع السلك شكل حرف إس لوصلة القاعدة.

إذا لم يكن الانسداد في وصلة القاعدة، فلا بد أن يكون في الوصلة الخارجية. وإذا كان الحال كذلك، فإنه ليست لديه فكرة عن كيفية إصلاحه. سيكون عليه الاستسلام والعثور على سبَّاك. أو فكرة سبَّاك.

يقترب الماء، وما زالت كُتل براز إيناس تطفو فيه، على يده، ورسغه وساعده. يدفع السلك بطول الانحناءة التي على شكل حرف إس. يفكِّر: صابونٌ مضاد للبكتيريا، سوف أحتاج إلى أن أغتسل بعد ذلك بصابونٍ مضاد للبكتيريا، وأنظِّف بالفرشاة بدقة تحت الأظافر؛ لأن البراز مجرد براز؛ لأن البكتيريا مجرد بكتيريا.

لا يشعر أنه مثل كائنٍ بطبيعةٍ مزدوجة. يبدو رجلًا يبحث عن انسدادٍ في أنبوبةِ صرف، مستخدمًا أدواتٍ بدائية. يسحب ذراعه، يسحب السلك. انفرد الخطَّاف في الطرف. يصنع خطَّافًا مرةً أخرى.

يقول الولد: «يمكن أن تستخدم شوكة.»

– «الشوكة قصيرةٌ جدًّا.»

– «يمكن أن تستخدم الشوكة الطويلة التي في المطبخ. يمكن أن تثنيها.»

– «وضِّح لي ما تقصده.»

يُهرول الولد، ويعود بالشوكة الطويلة، وكانت في الشقة حين وصلا، ولم يكن لها استخدام عنده قط. يقول الولد: «يمكنك ثَنيُها إذا كنت قويًّا.»

يثني الشوكة إلى خطَّاف ويدفعها بطول الانحناءة التي على شكل حرف إس حتى لم يعُد من الممكن دفعُها أكثر. وهو يحاول سحب الشوكة يشعُر بقوة المقاومة. في البداية ببطء، ثم بسرعةٍ أكبر، يظهر الانسداد؛ حشوة من القماش ببطانة من البلاستيك. يتراجع الماء في القاعدة. يسحب السلسلة. تهدر المياه النظيفة. ينتظر، يسحب السلسلة مرةً أخرى. الأنبوبة نظيفة. كل شيءٍ على ما يُرام.

يقول لإيناس: «وجدتُ هذه.» يُمسِك بالحشوة، وما زالت تنقِّط. «هل تعرفينها؟»

تخجل، وهي تقف أمامه مثل مذنبة، لا تعرف أين تنظر.

– «هل هذا ما تفعلينه عادة — تدفعينها في المرحاض؟ ألم يقُل لك أحد لا تفعلي ذلك أبدًا؟»

تهزُّ رأسها. تحمرُّ وجنتاها, يسحب الولد جيبتها بقَلَق. يقول: «إيناس!» تُربِّت على يده في ذهول. تهمس: «لا شيء يا حبيبي.»

يغلق باب الحمام، يخلع قميصه الوسخ، ويغسله في الحوض. لا يُوجَد صابونٌ مضادٌّ للبكتيريا، مجرد صابون من المئونة، يستخدمه الجميع. يعصر القميص، يشطفه، يعصره

مرةً أخرى. عليه أن يرتدي قميصًا مبتلًّا. يغسل ذراعَيه، ويغسل إبطَيه، ويجفِّف نفسه. قد لا يكون نظيفًا كما يتمنى، لكنه على الأقل لا تفوح منه رائحة براز.

تجلس إيناس على السرير والولد ملتصق بصدرها مثل رضيع، يتأرجح ذهابًا وإيابًا. الولد شبه نائم، وسيل من اللعاب يخرج من فمه. يهمس: «أذهب الآن. اتصلي بي مرةً أخرى إذا احتجتِ إليَّ.»

ما يُدهِشه في زيارة إنياس، حين يفكِّر فيها بعد ذلك، كم كانت حدثًا غريبًا في حياته، كم كانت غير متوقَّعة. مَن كان يظن، في اللحظة التي شاهد فيها هذه الشابة في ملعب التنس، هادئة جدًّا، ورزينة جدًّا، أن يأتيَ يومٌ يكون عليه أن يغسل برازها مِن على جسمه! ماذا يفعلون بذلك في المعهد؟ هل لدى السيدة ذات الشعر الرمادي كلمة عن ذلك: برازية البراز؟

١٧

تقول إيلينا: «إذا كان التنفيس ما تبحث عنه، إذا كان التنفيس سوف يجعل حياتَك أسهل، هناك أماكنُ يُمكِن للرجل أن يذهب إليها. ألم يخبرك أصدقاؤك بها، أصدقاؤك الذكور؟»

– «التفريج ليست كلمةً مناسبة. ماذا تقصدين بها بالضبط؟»

– «التفريج الجنسي. إذا كان التفريج الجنسي ما تبحث عنه، ليس من الضرورة أن أكون المنفذ الوحيد الذي تستنجد به.»

يقول بصرامة: «آسف. لم أكن أدرِك أنكِ تنظرين إلى الأمر بهذه الطريقة.»

– «لا تعتَبِرها إساءة. إنها حقيقة الحياة؛ يحتاج الرجال إلى التفريج، نعرف ذلك جميعًا. أخبِرك فقط بما يمكن أن تفعلَه حياله. هناك أماكن يمكن أن تذهب إليها. اسأل أصدقاءك في أحواض السفن، أو إن كنتَ مرتبكًا جدًّا فاسأل في مركز إعادة التوطين.»

– «هل تتحدَّثين عن المواخير؟»

– «سمِّها مواخيرَ إذا أحبَبتَ، لكن مما أسمعه ليس هناك شيءٌ خسيس بشأنها، إنها نظيفة تمامًا وممتعة.»

– «هل ترتدي الفتيات القائمات بالعمل زيًّا؟»

تنظر إليه بسخرية.

– «أقصد، هل يرتدين زيًّا موحدًا مثل الممرضات؟ وملابسَ داخليةَ موحَّدة؟»

– «هذا ما سوف تكتشفه بنفسك.»

– «وهي مهنةٌ مقبولة، العمل في ماخور؟» يعرف أنه يستثيرها بأسئلته، لكن المزاج يسيطر عليه مرةً أخرى، المزاج المُستهتر المُر الذي أصابه منذ تخلى عن الطفل. «هل هو شيءٌ يمكن أن تفعله وتحفظ رأسها مرفوعًا بين الملأ؟»

تقول: «ليست لديَّ فكرة. اذهَب واكتشِف. والآن ينبغي أن تعذرني، أنتظر طالبًا.»

كان في الحقيقة يكذب حين أخبر إيلينا بأنه لا يعرف شيئًا عن الأماكن التي يمكن أن يذهب الرجال إليها. ذكَر ألفارو مؤخرًا ناديًا للرجال ليس بعيدًا عن أحواض السفن اسمه صالون الراحة.[١]

من شقة إيلينا يذهب مباشرةً إلى صالون الراحة. مركز الترفيه والاستجمام، تقول لوحةٌ محفورة في المدخل. ساعات الفتح ٢ مساء إلى ٢ صباحًا. مغلق يوم الإثنين. الحق في الالتحاق محفوظ. العضوية بالطلب. وبحروفٍ أصغر: استشارة شخصية. تفريج التوتر. علاج طبيعي.

يفتح الباب. إنه في ردهةٍ خاوية. بطول أحد الجدران أريكةٌ مبطَّنة. المكتب، مكتوب عليه استقبال، خاوٍ إلا من تليفون. يأخذ مقعدًا وينتظر.

بعد بُرهةٍ طويلة تخرج، من غرفةٍ خلفية، امرأةٌ في منتصف العمر. تقول: «آسفة لانتظارك. كيف يمكن أن أساعدك؟»

– «أريد أن أصبح عضوًا.»

– «بالتأكيد. أطلب منك فقط ملء هذَين النموذَجين، وأحتاج إثبات الهوية.» تعطيه حافظةَ أوراقٍ وقلمًا.

ينظر إلى النموذج الأول. الاسم، العنوان، العمر، الوظيفة. يعلق: «لا بد أنه يأتيك بحَّارة من السفن. هل عليهم ملء النموذجَين أيضًا؟»

تسأل المرأة: «هل أنت بحَّار؟»

– «لا، أعمل في أحواض السفن لكنني لست بحَّارًا. أذكر البحَّارة لأنهم يكونون على الشاطئ لليلة أو اثنتَين فقط. هل ينبغي أن يصبحوا أعضاء إذا قاموا بزيارتكم؟»

– «ينبغي أن تُقبَل عضوًا لتستخدم المرفق.»

– «وكم يستغرق القبول؟»

– «القبول لا يستغرق وقتًا طويلًا. لكن بعد ذلك لا بد أن تقضي فترةً مع معالج.»

– «لا بد أن أقضي فترة؟»

– «لا بد أن تُقبَل على قائمة أحد معالجينا. قد يستغرق ذلك وقتًا. إن قوائمهم ممتلئة غالبًا.»

---

[١] صالون الراحة: بالإسبانية في الأصل.

– «وهكذا إن كنتُ أحد البحَّارة الذين كنتُ أتحدث عنهم، بحَّارًا يقضي فقط ليلةً أو اثنتَين على الشاطئ، فلا فائدة من القدوم إلى هنا. ستكون سفينتي قد عادت إلى أعالي البحار بحلول الوقت الذي يُمكِن أن أحصُل فيه على موعد.»

– «صالون الراحة ليس هنا لمصلحة البحَّارة يا سيدي. للبحَّارة مرافقُهم الخاصة في المكان الذي أتَوا منه.»

– «قد تكون لهم مرافقهم الخاصة في وطنهم، لكن لا يمكنهم استخدامها؛ لأنهم هنا، لا هناك.»

– «أجل بالفعل: لدينا مرافقنا، ولديهم مرافقهم.»

– «أفهم. إذا كنتِ لا تمانعين من أن أقول ذلك، تتحدَّثين مثل خريجة المعهد — معهد الدراسات الإضافية، أظن أنه يُسمَّى كذلك — في المدينة.»

– «حقًّا؟»

– «أجل. من أحد فصوله الفلسفية. ربما المنطق. أو البلاغة.»

– «لا. لستُ خريجة المعهد. الآن: هل قرَّرتَ؟ هل ستقدِّم الطلب؟ إذا كان كذلك، من فضلك هيا املأ النموذجَين.»

يسبِّب له النموذج الثاني إزعاجًا أكثر من الأول. عنوانه، طلب مُعالِجٍ شخصي. استخدم المساحة أسفله لوصف نفسك وما تحتاج إليه.

يكتب: «أنا رجلٌ عادي باحتياجاتٍ عادية. أي إن احتياجاتي ليست باهظة. إلى وقتٍ قريب كنت وصيًّا طول الوقت على طفل. منذ تخلَّيتُ عن الطفل (منهيًا الوصاية) وأنا وحيدٌ بشكلٍ ما. لا أعرف ماذا أفعل مع نفسي.» يكرر نفسه. لأنه يستخدم قلمًا جافًّا. لو كان معه قلم رصاصٍ وأستيكة لقدَّم نفسه بشكلٍ أكثر اختصارًا. أجد نفسي في حاجة إلى أذنٍ صديقة، لأفضي بمكنون نفسي. لي صديقةٌ مقربة، لكن ذهنها في مكان آخر مؤخرًا. علاقاتي معها تفتقر إلى الحميمية الحقيقية. أرى أن المرء لا يمكن أن يفضي بمكنون نفسه إلا في ظروف الحميمية.»

ماذا أيضًا؟

يكتب: «أنا جائعٌ للجمال. الجمال الأنثوي. جائعٌ بشكلٍ ما. أتوقُ للجَمال، وهو من خبرتي يوقظ الرعب والامتنان أيضًا — الامتنان لروعة حظ المرء بأن يضُم في ذراعَيه امرأةً جميلة.»

يفكِّر في شطب كل الفقرة عن الجمال، لكنه لا يشطبها. إذا كان سيتم الحكم عليه، فليكن على حركات قلبه وليس وضوح فكره. أو منطقه.

يختم بقوة: «وهذا لا يعني أنني لستُ رجلًا، له احتياجاتُ رجل.»

ما هذا الهُراء؟![٢] ما هذا الخليط المشوَّش؟! ما هذا التشوش المعنوي؟!

يسلِّم النموذجَين. تتمعَّن فيهما موظفة الاستقبال — لا تتظاهر بأنها لا تتمعَّن — من البداية إلى النهاية. هي وهو وحيدان في غرفة الانتظار. ليس وقتًا مزدحمًا من اليوم. الجمال يُوقِظ الرعب؛ هل يلاحظ ابتسامةً شاحبة حين تأتي إلى ذلك التصريح؟ هل هي موظَّفة استقبال نقية وبسيطة، أم أن لها خلفيَّتها الخاصة في الامتنان والرعب؟

تقول: «عليك أن تعلِّم على خانة طول الجلسات؛ ٣٠ دقيقة، ٤٥ دقيقة، ٦٠ دقيقة، ٩٠ دقيقة. أيَّ طولٍ تفضِّل؟»

– «لنقُل أقصى حد للتفريج: تسعين دقيقة.»

– «ربما يكون عليك الانتظار لبعض الوقت للحصول على جلسة تسعين دقيقة. بسبب الجدول. ومع ذلك، سأضعك في أول جلسةٍ طويلة. يمكنك أن تغيِّر ذلك في وقتٍ لاحق، ينبغي أن تقرِّر ذلك، شكرًا، هذا كل ما في الأمر. سنكون على اتصال. سوف نكتب لنُخبِرك بتوقيت موعدك الأول.»

– «إجراءٌ دقيق. يمكن أن أفهم سبب عدم الترحيب بالبحَّارة.»

– «أجل، الصالون ليس معدًّا لاستقبال العابرين. لكن أن تكون عابرًا في ذاتها حالة عابرة. الشخص العابر هنا سيكون في وطنه الذي يأتي منه، بالضبط كما أن الشخص الذي وطنُه هنا سيكون عابرًا في مكانٍ آخر.»

يقول: بالتعريف.[٣] منطقُكم لا تشوبُه شائبة. سأنتظر رسالتكم.»

في النموذج أعطى عنوانه على شقة إيلينا. تمُر الأيام. يُراجِع إيلينا: ليست هناك رسالةٌ له.

يعود إلى الصالون. كانت موظَّفة الاستقبال نفسها في الخدمة. يقول: «هل تذكِّرينني. كنتُ هنا الأسبوع قبل الماضي. قلتِ إنكم ستتصلون بي. لم يتصل بي أحد.»

تقول: «أُلقِي نظرة. اسمك ...؟» تفتح خزانة الملفات وتُخرج ملفًّا. «ليست هناك مشكلة في الطلب نفسه كما أرى. يبدو أن التأخير في أن نزوِّجك من المعالج المناسب.»

---

[٢] بالإسبانية في الأصل.

[٣] باللاتينية في الأصل.

– «تزوِّجونني؟ ربما لم أعبِّر عن نفسي بوضوح. تجاهَلي ما كتبتُه عن الجمال وهلُم جرًّا. أنا لا أبحث عن توافُقٍ مثالي، أنا ببساطة أبحث عن صحبة، صحبة أنثوية.»

– «أفهمُ. سوف أستعلم عن الأمر. امنَحني بضعة أيام.»

تمُر الأيام. لا رسالة. كان ينبغي ألا يستخدم كلمة مرعب. أية امرأةٍ شابة تُحاوِل كسب بضعة ريالاتٍ إضافية تريد أن تُرغَم على مثل هذه المسئولية؟ قد تكون الحقيقة جيدة، لكن الأقل من الحقيقة أفضل أحيانًا. وهكذا: لماذا تكتب طلبًا لعضوية صالون الراحة؟ الإجابة: لأنني جديدٌ في البلدة وأفتقرُ إلى التواصل. سؤال: أي نوعٍ من المعالج تبحث عنه؟ الإجابة: شابةٌ جميلة. سؤال: ما طول الجلسات التي تريدها؟ الإجابة: ثلاثون دقيقة ستكون كافية.

يبدو أن يوجينيو ينوي توضيح أن اختلافهما حول الفئران والتاريخ وتنظيم العمل على رصيف الميناء لم يترك أيةَ مشاعرَ سيئة. في معظم الأحيان، حين يتركان العمل، يجد يوجينيو يتتبَّع خطواته ويكرِّر تمثيلية اللحاق بالباص رقم ٦ إلى البلوكات.

يسأل يوجينيو في إحدى جولاتهما إلى محطة الباص: «ألم تستقرَّ بعدُ على رأيٍ بشأن المعهد. هل تعتقد أنك سوف تسجل؟»

– «لم أفكِّر مؤخرًا في المعهد كثيرًا. كنتُ أحاوِل التسجيل في مركزٍ للترفيه.»

– «مركز للترفيه؟ تقصد مثل صالون الراحة؟ لماذا تريد أن تلتحق بمركزٍ للترفيه؟»

– «ألا تستخدمها أنت وأصدقاؤك؟ ماذا تفعلون بشأن — ماذا أسمِّيها؟ — الرغبات الجسدية؟»

– «الرغبات الجسدية؟ رغبات الجسد؟ كنا نناقشها في الفصل. هل تودُّ أن تسمع النتيجة التي توصَّلنا إليها؟»

– «من فضلك.»

– «بدأنا بملاحظة أن الرغبات المعنية ليس لها هدفٌ محدَّد؛ أي إنها لا تدفعنا تجاه امرأةٍ معيَّنة لكن تجاه المرأة في المجرَّد، المثال النسوي. وهكذا حين نلجأ، لنهدئ الرغبة، إلى ما يُسمَّى مركزًا للترفيه، ننتهك الدافع في الحقيقة. لماذا؟ لأن ظواهر المثال المعروضة في مثل هذه الأماكن نُسَخٌ وضيعة؛ والاتحاد مع نسخةٍ وضيعةٍ يمكن فقط أن يترك الباحث مُحبَطًا وحزينًا.»

يحاول أن يتخيل يوجينيو، هذا الشاب الجاد بنظَّارته الرزينة، في ذراعَي نسخةٍ وضيعة. يرُد: «تلوم المرأة التي تُقابِلها في الصالون على إحباطك، لكن عليك التفكير في

الرغبة نفسها. إذا كان لطبيعة الرغبة أن تصل إلى ما يتجاوزها، هل ينبغي أن نندهش لأنها لا يتم إشباعها؟ ألم تقُل لكم مدرِّستكم في المعهد إن معانقة نُسخٍ وضيعة قد تكون خطوةً ضرورية في الصعود باتجاه الخيِّر والحقيقي والجميل؟»

يصمت يوجينيو.

– «فكِّر في الأمر. اسأل نفسك أين نكون لو لم تكن هناك أشياء مثل السلالم. ها هو باصي. إلى الغد يا صديقي.»

يسأل إيلينا: «هل هناك خطأ فيَّ لا أدركه؟ أشير إلى النادي الذي حاوَلتُ الانضمام إليه. لماذا يرفضونني في اعتقادك؟ يمكن أن تكوني صريحة.»

في آخر ضوءٍ بنفسجي في المساء يجلس هو وهي بجوار النافذة يشاهدان طيور السنونو تندفع وتغطس. رفيقان؛ هذا ما صارا إليه، بمرور الوقت. رفيقان[٤] باتفاقٍ متبادَل. زواج رفقة؛ إذا عرضَه، هل توافق إيلينا؟ العيش مع إيلينا وفيدل في شقتهما من المؤكَّد أنه سيكون مريحًا أكثر مما يفعلُه في سقيفته المنعزلة في أحواض السفن.

تقول إيلينا: «لا يمكن أن تكونَ متأكدًا من أنهم رفضوك. ربما تكون لديهم قائمةُ انتظار طويلة. ومع ذلك يُدهِشني إصرارك عليهم. لماذا لا تحاول مع نادٍ آخر؟ أو لماذا لا تنسحب ببساطة؟»

– «أنسحب؟»

– «تنسحب من الجنس. أنت كبيرٌ بما يكفي لأن تفعل ذلك. كبير بما يكفي لأن تبحث عن إشباعك في مكانٍ آخر.»

يهزُّ رأسه. «ليس بعدُ يا إيلينا. مغامرة أخرى، فشل آخر، ثم ربما أفكِّر في الاعتزال. لم تجيبي على سؤالي. هل فيَّ شيء ينفِّر الناس؟ الطريقة التي أتكلم بها، على سبيل المثال: هل تصُد الناس؟ هل إسبانيَّتي خطأ تمامًا؟»

– «لغتك الإسبانية ليست مثالية، لكنها تتحسَّن كل يوم. أسمع كثيرًا من الوافدين الجدُد. لغتهم الإسبانية ليست جيدة مثل لغتك.»

– «جميلٌ منك أن تقولي ذلك، لكن الحقيقة هي أنني لا أملك أذنًا جيدة. لا أتبيَّن غالبًا ما يقوله الناس، وأُضطَر إلى اللجوء للتخمين. المرأة في النادي، على سبيل المثال، اعتقدتُ

---

[٤] بالإسبانية في الأصل.

أنها تقول إنها تريد أن تزوِّجني من إحدى الفتيات العاملات هناك؛ لكن ربما أسأتُ فهمها. قلتُ لها إنني لا أسعى إلى عروس، فنظرَت إليَّ كما لو كنتُ مجنونًا.»

تصمت إيلينا.

يواصل: «الأمر نفسه مع يوجينيو. أبدأ الاعتقاد بأن في حديثي شيئًا يميِّزني بوصفي رجلًا يتعلق بالأساليب القديمة، رجلًا لم ينسَ.»

تقول إيلينا: «النسيان يستغرق وقتًا. بمجرد أن تنسى حقًّا، يتراجع إحساسك بعدم الأمان ويصبح كل شيء أسهل.»

– «أتطلع إلى ذلك اليوم المبارك. اليوم الذي يتم فيه الترحيب بي في صالون الراحة أو صالون الاسترخاء وكل الصالونات الأخرى في نوفيلا.»

تنظر إيلينا إليه بحدة. «أو يمكن أن تتشبَّث بذكرياتك، إذا كان هذا ما تفضِّله. لكن حينها لا تأتِ إليَّ شاكيًا.»

– «من فضلك إيلينا، لا تُسيئي فهمي. لا أضع أية قيمة لذكرياتي القديمة المُرهِقة. أتفق معك؛ ليست إلا عبئًا. لا، إنه شيءٌ آخر ما أتردَّد في التخلي عنه؛ ليس الذكريات نفسها، بل الإحساس بالإقامة في جسدٍ من الماضي، جسد منقوع في الماضي. هل تفهمين ذلك؟»

تقول إيلينا: «الحياة الجديدة حياةٌ جديدة، وليست حياةً قديمة مرةً أخرى في وسطٍ جديد. انظر إلى فيدل ...»

يقاطعها: «لكن ما جدوى الحياة الجديدة إذا لم تبدِّلنا، لم تغيِّرنا، كما لم يحدث لي بالتأكيد؟»

تمنحُه وقتًا ليقول المزيد، لكنه يتوقَّف.

تقول: «انظر إلى فيدل. انظر إلى ديفيد. ليسا ابنَي الذاكرة. يعيش الأطفال في الحاضر، لا الماضي. لماذا لا تقتدي بهم؟ بدل أن تنتظر أن تتغير، لماذا لا تحاول أن تكون مثل طفل مرةً أخرى؟»

١٨

يقوم هو والولد بنزهة في المنتزهات، في أولِ جولةٍ تسمح بها إيناس. انقشعَت الكآبة عن قلبه، في خطوته حيوية. حين يكون مع الطفل يبدو أن السنوات تتساقط.

يسأل: «وكيف حال بوليفار؟»

– «بوليفار هرب.»

– «هرب! مدهش! كنتُ أعتقد أنه مخلصٌ لك ولإيناس.»

– «بوليفار لا يُحبني. يُحب إيناس فقط.»

– «لكن من المؤكَّد أنك يمكن أن تحب أكثر من شخصٍ واحد.»

– «بوليفار يحب إيناس. إنه كلب.»

– «أنت ابن إيناس، لكنك لا تُحب إيناس فقط. تُحبني أيضًا. تحب دييجو وستيفانو. تحب ألفارو.»

– «لا، لا أحب.»

– «يؤسفني أن أسمع ذلك. وهكذا رحل بوليفارو. أين تعتقد أنه ذهب؟»

– «عاد. إيناس وضعَت طعامه في الخارج وعاد. والآن لا تسمح له بالخروج إطلاقًا.»

– «أنا متأكد من أنه غير معتادٍ فقط على بيته الجديد.»

– «تقول إيناس لأنه يشم رائحة كلبات. يريد الزواج من كلبة.»

– «أجل، هذه إحدى مصائب الاحتفاظ بكلبٍ ذكَر — يريد أن يكون مع كلبات. هذه طريقة الطبيعة. إذا لم تعُد الكلاب والكلبات ترغب في التزاوج، فلن تُولد جِراء، وبعد بعض الوقت لن تكون هناك كلابٌ إطلاقًا؛ لذا قد يكون من الأفضل السماح لبوليفار بقليلٍ من الحرية. ماذا عن نومك؟ هل تنام جيدًا؟ هل اختفت الأحلام السيئة؟»

– «حلمتُ بالسفينة.»

– «أية سفينة؟»

– «السفينة الكبيرة؛ حيث رأينا الرجل بالقبعة. القرصان.»

– «الربَّان، وليس القرصان. وبم حلمتَ.»

– «غرقَت.»

– «غرقَت؟ وماذا حدث بعد ذلك؟»

– «لا أعرف. لا أتذكَّر. جاء السمك.»

– «حسنًا. سأخبرك بما حدث. أُنقِذنا، أنت وأنا. كان لا بد أننا أُنقِذنا، وإلا فكيف يمكن أن نكون هنا الآن؟ وبالتالي فهو مجرد حُلمٍ سيِّئ. السمك لا يأكل الناس على أية حال. السمك غير مؤذٍ. السمك طيب.»

حان وقت الرجوع. الشمس تغرب، والنجوم الأولى تظهر.

– «هل ترى هذين النجمَين؛ حيث أشير — النجمَين الساطعَين؟ إنهما توءمان، يُسمَّيان كذلك لأنهما معًا دائمًا. والنجم الذي هناك، فوق الأفق بالضبط، المحمر — إنه نجم المساء، أول نجم يظهر حين تغرب الشمس.»

– «هل التوءمان أخوان؟»

– «أجل. نسيتُ اسمَيهما، كانا فيما مضى شهيرَين، شهرَين جدًّا حتى تحوَّلا إلى نجمَين. ربما تتذكَّر إيناس القصة. هل تحكي إيناس قصصًا لك؟»

– «تحكي لي قصصَ قبل النوم.»

– «رائع. بمجرد أن تتعلم القرءة بنفسك، لن تعتمد على إيناس أو عليٍّ أو على أي شخصٍ آخر. سوف تكون قادرًا على قراءة كل القصص في العالم.»

– «أستطيع القراءة، لا أريد فقط. أحب أن تحكي إيناس لي قصصًا.»

– «أليس هذا ضيق أفق؟ القراءة تفتح لك نوافذَ جديدة. أي نوعٍ من القصص تحكي لك إيناس؟»

– «قصص الأخ الثالث.»

– «قصص الأخ الثالث؟ لا أعرف أيةَ واحدةٍ منها. عَمَّ تحكي؟»

يقف الولد، يشبِّك يدَيه أمامه، ويحدِّق بعيدًا، ويبدأ الكلام.

– «في سالف العصر والأوان كان هناك ثلاثة إخوة، وكان الشتاء والثلوج تتساقط وقالت الأم، الإخوة الثلاثة، الإخوة الثلاثة، أشعر بألمٍ هائلٍ في داخلي وأخشى أن أموت إن لم يعثُر أحدكم على المرأة الحكيمة التي تحمي العشب النفيس للعلاج.

فقال الأخ الأول، أمي، أمي، سوف أجد المرأة الحكيمة. وارتدى عباءته وخرج في الثلج وقابل ثعلبًا فقال له الثعلب، أين أنت ذاهب يا أخ؟ وقال الأخ، أبحث عن المرأة الحكيمة التي تحرس العشب النفيس للعلاج، وليس لديَّ وقتٌ للحديث معك يا ثعلب. فقال الثعلب، أعطني طعامًا وسوف أدلُّك على الطريق، وقال الأخ، ابعد عن طريقي يا ثعلب، وركل الثعلب ومضى في الغابة ولم يسمع أحدٌ عنه مرةً أخرى.

ثم قالت الأم، أيها الأخوان، أيها الأخوان، أشعر بألمٍ هائل في داخلي وسأموت إن لم يذهب أحدكما ويجد المرأة الحكيمة التي تحرس العشب النفيس للعلاج.

فقال الأخ الثاني، أمي، أمي، سوف أذهب. وارتدى عباءته وخرج في الثلج وقابل ثعلبًا وقال الثعلب أعطني طعامًا وسوف أدلك على الطريق إلى المرأة الحكيمة، وقال الأخ، ابعد عن طريقي يا ثعلب، وركله ومضى في الغابة ولم يسمع أحد عنه مرةً أخرى.

ثم قالت الأم، أيها الأخ الثالث، أيها الأخ الثالث، أشعر بألمٍ هائل في داخلي وسأموت إن لم تُحضِر لي العشب النفيس للعلاج.

فقال الأخ الثالث، لا تخافي أبدًا يا أمي، سوف أجد المرأة الحكيمة وأعود بالعشب النفيس للعلاج. وخرج في الثلج وقابل دبًّا وقال الدُّب، أعطني طعامًا وسوف أدلك على الطريق إلى المرأة الحكيمة. وقال الأخ الثالث، بسعادة يا دب، سأعطيك ما تطلب. فقال الدب، أعطني قلبك لألتهمه. وقال الأخ الثالث، بسعادة سأعطيك قلبي. وهكذا أعطى الدب قلبه والتَهمَه الدب.

ثم دله الدُّب على مسارٍ سري، ووصل إلى منزل المرأة الحكيمة وطرَق على الباب فقالت المرأة الحكيمة، لماذا تنزف أيها الأخ الثالث؟ فقال الأخ الثالث، أعطيتُ قلبي للدب ليلتهمه ليدُلَّني على الطريق؛ لأنني لا بد أن أعود بالعشب النفيس للعلاج الذي سيشفي أمي.

ثم قالت المرأة الحكيمة، خُذ، ها هي العشبة النفيسة للعلاج واسمها إسكامل، ولأن لديك ولاء وقد تخلَّيتَ عن قلبك ليُلتَهَم، سوف تُشفى أمك. اتبع قطرات الدم وأنت عائد في الغابة وسوف تجد طريقك إلى البيت.

ثم وجد الأخ الثالث طريقه إلى البيت وقال لأمه، خذي، يا أمي، ها هو عشب إسكامل، والآن إلى اللقاء، لا بد أن أتركك لأن الدُّب التهم قلبي. وتذوَّقَت الأم عشب إسكامل فشُفيَت على الفور، وقالت، يا بني، يا بني، أرى أنك تسطَع بنورٍ هائل، إنها الفضيلة، كان يسطع بنورٍ هائل ورفع إلى السماء.»

– «و؟»

– «هذا كل شيء. هذه نهاية القصة.
هكذا تحوَّل الأخ الأخير إلى نجم وتُرِكَت الأم وحدَها.»
يصمت الولد.

– «لا تعجبني هذه القصة. النهاية حزينة جدًّا. على أية حال، لا يمكن أن تكون الأخ الثالث وتُرفَع إلى السماء مثل نجم لأنك الأخ الواحد والوحيد وبالتالي الأخ الأول.»

– «تقول إيناس إنني يمكن أن يكون لي أخوةٌ آخرون.»

– «تقول! ومن أين يأتي هؤلاء الإخوة؟ هل تتوقَّع أن أُحضِرهم إليها مثلما أحضرْتُك؟»

– «تقول إنها ستُخرِجهم من بطنها.»

– «حسنًا، لا يمكن لامرأة أن تصنع أطفالًا وحدها، سوف تحتاج إلى أبٍ يساعدها، لا بد أنها تعرف ذلك. إنه قانون الطبيعة، القانون الذي نخضع له كما تخضع الكلاب والثعالب والدِّببة. لكن حتى إذا كان لها أبناءٌ آخرون، فستبقى الابنَ الأول، ليس الثاني أو الثالث.»

صوت الولد مُفعَم بالغضب: «لا! أريد أن أكون الابن الثالث! قلْتُ لإيناس وقالت نعم. قالت إنني يمكن أن أعود إلى بطنها وأخرج مرةً أخرى.»

– «إيناس قالت ذلك؟»

– «أجل.»

– «حسنًا، إذا نجحتَ في ذلك فستكون معجزة. لم أسمع قط عن ولدٍ كبيرٍ مثلك يعود إلى بطن أمه، ناهيك عن الخروج مرةً أخرى. لا بد أن إيناس كانت تقصد شيئًا آخر. ربما كانت تُحاوِل أن تقول أن تقول إنك ستكون دائمًا حبيبها المفضَّل.»

– «لا أريد أن أكون الحبيب المفضَّل، أريد أن أكون الابن الثالث! لقد وعدَتني!»

– «يا ديفيد، يأتي واحد قبل اثنين واثنان قبل ثلاثة. يمكن لإيناس أن تقدِّم وعودًا حتى تنفَد طاقتُها لكنها لا يُمكِن أن تغيِّر ذلك. واحد–اثنان–ثلاثة. إنه قانونٌ أقوى حتى من قانون الطبيعة. يُسمَّى قانون الأرقام. على أية حال، تريد فقط أن تكون الابن الثالث؛ لأن الابن الثالث بطل هذه القصص التي تحكيها لك. هناك قصصٌ أخرى كثيرة يكون البطل فيها الابن الأكبر، وليس الابن الثالث. وحتى لا يكون فيها ثلاثة أبناء. يمكن أن يكون فيها ابنٌ واحد فقط، ولا يُضطَر إلى أن يُلتَهم قلبه. ويمكن أن يكون للأم ابنة ولا يكون لها أبناء. هناك الكثير، أنواعٌ كثيرة من القصص، وأنواعٌ كثيرة من الأبطال. إذا تعلَّمتَ أن تقرأ فسوف تكتشف ذلك بنفسك.»

– «أستطيع القراءة، لا أريد فقط. لا أحب القراءة.»

– «ذلك ليس جميلًا. بالإضافة إلى أنك ستبلغ عامك السادس في أحد هذه الأيام، وحين تبلغ السادسة سيكون عليك الذهاب إلى المدرسة.»

– «تقول إيناس ليس من الضروري أن أذهب إلى المدرسة. تقول إنني كَنزُها. تقول إنني يمكن أن أتعلَّم بنفسي في البيت.»

– «أوافق على أنك كَنزُها. إنها محظوظةٌ جدًّا لأنها وجدَتك. لكن هل أنت متأكد من أنك تريد البقاء في البيت مع إيناس طول الوقت؟ إذا ذهبتَ إلى المدرسة فسوف تلتقي بأطفالٍ آخرين في سنك. وتستطيع أن تتعلم القراءة بشكلٍ صحيح.»

– «تقول إيناس إنني لن أحظى باهتمامٍ خاص في المدرسة.»

– «اهتمام خاص! ماذا يعني ذلك؟»

– «تقول إيناس إنني لا بد أن أحظى باهتمامٍ خاص لأنني ذكي جدًّا. تقول في المدرسة لا يحظى الأطفال الأذكياء باهتمامٍ خاص وبالتالي يُصَابون بالملل.»

– «وما الذي يجعلك تعتقد أنك ذكي جدًّا؟»

– «أعرف كل الأرقام. هل تريد أن تسمعها؟ أعرف ١٣٤ وأعرف ٧ وأعرف» — يسحب نفَسًا عميقًا — «٤٦٢٣٥٥١ وأعرف ٨٨٨ وأعرف ٩٢ وأعرف ...»

– «توقف! هذه ليست معرفة الأرقام يا ديفيد. معرفة الأرقام تعني أن تكون لديك القدرة على العَد. تعني معرفة ترتيب الأرقام — أيُّ أرقام تأتي أولًا وأيها تأتي بعدها — الانتقال من رقم إلى آخر في قفزةٍ واحدة، بدون عد كل الخطوات بينها. تسمية الأرقام تختلف عن أن تكون ماهرًا في الأرقام. يمكنك أن تقف هنا وتُسمِّي الأرقام طول اليوم ولا تصل إلى نهايتها؛ لأن الأرقام لا نهاية لها. ألا تعرف ذلك؟ ألم تُخبرك إيناس؟»

– «ليس صحيحًا؟»

– «أي شيء ليس صحيحًا؟ أن الأرقام لا نهاية لها؟ إنه لا أحد يستطيع تسميتها كلها؟»

– «يمكن أن أسمِّيها كلها.»

– «حسنًا جدًّا. تقول إنك تعرف ٨٨٨. ما الرقم التالي لرقم ٨٨٨؟»

– «٩٢.»

– «خطأ. الرقم التالي ٨٨٩. أيٌّ من الرقمين أكبر، ٨٨٨ أم ٨٨٩؟»

– «٨٨٨.»

– «خطأ. ٨٨٩ أكبر لأن ٨٨٩ يأتي بعد ٨٨٨.»

– «كيف تعرف؟ لم تزرها أبدًا.»

– «ماذا تعني تزورها؟ بالطبع لم أزُر ٨٨٨. لا أحتاج إلى أن أكون هناك لأعرف أن ٨٨٨ أصغر من ٨٨٩. لماذا؟ لأنني تعلَّمتُ كيف تتشكَّل الأرقام. تعلمت قواعد الحساب. حين تذهب إلى المدرسة سوف تتعلم القواعد أيضًا، وحينها لن تكون الأرقام مثل» — يصطاد الكلمة — «العُقدة في حياتك.»

لا يستجيب الولد، لكنه ينظر إليه بدون انفعال. لا يعتقد لحظةً أنه لم يستوعب كلماته. لا، استوعبها كلها؛ استوعبها ورفضها. لماذا يرفض هذا الطفل، الذكي جدًّا، المستعد تمامًا لشق طريقه في العالم، أن يفهم؟

يقول: «زُرتَ كل الأرقام، كما تقول لي. قل لي إذن الرقم الأخير، آخر رقم في كل الأرقام. فقط لا تقل إنه أوميجا.[١] أوميجا لا تُحسَب.»

– «ما أوميجا؟»

– «لا تُبالِ. فقط لا تقُل أوميجا. قل لي الرقم الأخير، آخر الأرقام.»

يُغلِق الولد عينيه ويسحَب نفَسًا عميقًا. يركِّز بشدة. تتحرَّك شفتاه، ولا يتفوَّه بكلمة.

يستقر طائران على غصنٍ فوقهما، يُهمهِمان معًا، استعدادًا للبيات.

لأول مرة يخطر بباله أنه قد لا يكون طفلًا ذكيًّا — في العالم الكثير جدًّا من الأطفال الأذكياء — لكنه شيءٌ آخر، شيء لا يجد كلمةً تصفه في هذه اللحظة. يمُد يده ويُصافِح الولد مصافحةً خفيفة. يقول: «يكفي. يكفي العَد.»

يتحرَّك الولد فجأة. يفتح عينَيه، يفقد وجهُه استغراقه، نظرته البعيدة ويتلوي. يصرخ بصوتٍ غريبٍ عالي النبرة: «لا تلمسني. تجعلني أنسى! لماذا تجعلني أنسى؟ أكرهك!»

يقول لإيناس: «إذا كنتِ لا تريدين أن يذهب إلى المدرسة، فاسمحي لي على الأقل أن أعلِّمه القراءة، سوف يتعلمها بسرعة.»

في المركز الاجتماعي في البلوكات الشرقية مكتبةٌ صغيرة بها رفَّان من الكُتب؛ علم نفسك النجارة، فن الكروشية، مائة وصفة طعام للصيف ووصفة، وهلُم جرًّا. لكن مقلوبًا على وجهه تحت الكتب الأخرى وظهرُه ممزَّق، يُوجَد دون كيخوته مصوَّرًا للأطفال.

بانتصارٍ يعرض ما يجده على إيناس.

[١] أوميجا: آخر الحروف الأبجدية.

تسأل: «مَن دون كيخوته؟»

– «فارس بدروع، من الأيام الخوالي.» يفتح الكتاب على الصورة الأولى؛ رجلٌ طويل وهزيل بلحيةٍ خفيفة، يرتدي بدلةً من الدروع على صهوة فرس يبدو مجهدًا؛ بجانبه زميلٌ بدين على حمار. أمامهما طريق يتعرج عن بُعد. يقول: «إنها كوميديا. سوف تُمتِعك. لا أحد يغرق، ولا أحد يُقتَل، ولا حصان حتى.»

يستقر عند النافذة والولد على ركبته. «أنت وأنا سنقرأ هذا الكتاب معًا، صفحة يوميًّا، وأحيانًا صفحتَين. في البداية أقرأ القصة بصوتٍ عالٍ، ثم نتناولها كلمة كلمة، وننظر كيف تُوضَع الكلمات معًا. اتفقنا؟»

يومئ الولد.

– «كان هناك رجل يعيش في لامانشا — لامانشا في إسبانيا؛ حيث جاءت اللغة الإسبانية أصلًا — رجل لم يعد شابًّا لكنه ليس عجوزًا بعدُ، ذات يوم خطرَت في رأسه فكرة أن يصبح فارسًا. وهكذا أخذ بدلةً صدئة من الدروع معلَّقة على الحائط، وارتداها، وصفَّر لحصانه، وكان اسمه روثينانت، ودعا صديقه سنشو، وقال له: سنشو أفكِّر في امتطاء الحصان بحثًا عن مغامرات فروسية — هل تنضم إليَّ؟ انظر هناك سنشو وهناك سنشو مرةً أخرى، الكلمة نفسها تبدأ بحرف إس كبير. حاوِل أن تتذكَّر كيف تبدو.»

يسأل الولد: «ما المغامرات الفروسية؟»

– «مغامرات الفارس.[٢] ينقذ سيداتٍ جميلاتٍ في محنة. يُحارِب غيلانًا ومرَدة. سوف ترى. الكتاب زاخرٌ بمُغامرات الفروسية.

الآن، دون كيخوته وصديقه سنشو — انظر، دون كيخوته بحرف كيو معقوف وسنشو مرةً أخرى — لم يكونا قد ابتعدا حين شاهدا ماردًا هائلا، يقف على جانب الطريق، بما لا يقل عن أربع أذرع تنتهي بأربع قبضاتٍ هائلة، يلوِّح للمسافرين متوعدًا.

يقول دون كيخوته، انظر يا سنشو، مغامرتنا الأولى. لن ينجو أي عابرٍ حتى أقهر هذا المارد.

نظر سنشو لصديقه بحَيْرة. وقال: لا أرى أيَّ مارد. لا أرى إلا طاحونة هواء بأربعة أشرعة تدور في الريح.»

يسأل الولدُ: «ما طاحونة الهواء؟»

[٢] الفارس: في الأصل بالإسبانية ثم بالإنجليزية.

– «انظر إلى الصورة. الأذرع الضخمة هي الأشرعة الأربعة لطاحونة الهواء. والأشرعة تلفُّ في الريح، تُدير عجلة، والعجلة تُدير حجرًا كبيرًا داخل الطاحونة، يُسمَّى حجر الطاحونة، وحجر الطاحونة يطحن القمح إلى دقيق بحيث يمكن للخبَّاز أن يصنع لنا خبزًا لنأكله.»

يقول الولد: «لكنها ليست حقًّا طاحونة هواء، أليس كذلك؟ استَمِر.»

– «يقول دون كيخوته: قد يكون ما تراه طاحونة هواء يا سنشو، لكن ذلك فقط لأنك مفتون بمالدوتا الساحرة. لو كانت عيناك صافيتَين، لرأيت ماردًا بأربع أذرعٍ يقف في الطريق مباعدًا بين ساقَيه. هل تريد أن تعرف ما الساحرة؟»

– «أعرف الساحرات. استَمِر.»

– «مع هذه الكلمات استَلَّ دون كيخوته رمحه وضرب بمهمازه على خاصرتَي روثينانت واندفع إلى المارد. بإحدى قبضاته الأربع كسر المارد بسهولةٍ رمح دون كيخوتة. ضحك، ها ها ها، أيها الفارس الرثُّ المسكين، هل تعتقد حقًّا بأنك يمكن أن تهزمني؟

ثم استل دون كيخوته سيفه واندفع مرةً أخرى. لكن المارد بالسهولة نفسها، بقبضته الثانية، أبعَد السيف، مع الفارس وحصانه.

كافحَت روثينانت لتقف على أقدامها، لكن بالنسبة لدون كيخوته، عانى من ضربة على الرأس وداخ تمامًا. يقول دون كيخوته: سنشو، وا حسرتاه! إذا لم يُوضَع بلسم الشفاء على جروحي بيد خليلتي دولثينيا الجميلة، وأخشى أنني لن أعيش لأرى فجرًا آخر. يرُد سنشو: هُراء، سموك، إنها مجرد كدمة في الرأس، سوف تكون بخيرٍ تمامًا بمجرد أن أُبعِدَك عن طاحونة الهواء هذه. يقول دون كيخوته: ليست طاحونة هواء لكنها مارد يا سنشو. يقول سنشو: بمجرد أن أُبعِدَك عن المارد.»

يسأل الولدُ: «لماذا لا يحارب سنشو أيضًا المارد؟»

– «لأن سنشو ليس فارسًا. ليس فارسًا؛ وبالتالي ليس لديه سيف أو رمح، فقط سكين جيب لتقشير البطاطس. كل ما يمكن أن يفعله — كما نرى غدًا — أن يحمل دون كيخوته على حماره وينقله إلى أقرب نُزُل ليستريح ويتعافى.»

– «لكن لماذا لا يطعن سنشو المارد؟»

– «لأن سنشو يعرف أن المارد طاحونة هواء في الحقيقة، ولا يمكنك أن تحارب طاحونة هواء. طاحونة الهواء ليست شيئًا حيًّا.»

– «ليست طاحونة هواء، إنه مارد! إنه طاحونة هواء في الصورة فقط.»

يضع الكتاب. ويقول: «ديفيد، دون كيخوته كتابٌ غير عادي. بالنسبة للسيدة في المكتبة التي أعارته لنا يبدو كتابًا بسيطًا للأطفال، لكنه في الحقيقة ليس بسيطًا إطلاقًا. يعرض لنا العالم من خلال زوجَين من العيون، عينَي دون كيخوته وعينَي سنشو. وهو بالنسبة لدون كيخوته مارد يحاربه. وطاحونة هواء بالنسبة لسنشو. يتفق معظمنا — ليس أنت، ربما، بل معظمنا رغم ذلك — مع سنشو على أنها طاحونة هواء. ومن هؤلاء الفنان الذي رسمَ صورةَ طاحونة هواء. ومنهم أيضًا الرجل الذي كتب الكتاب.»

– «مَن كتب الكتاب؟»

– «رجل اسمه بنينجيلي.»[٣]

– «هل يعيش في المكتبة؟»

– «لا أعتقد ذلك. ليس مستحيلًا، لكن أقول إنه غير محتمل. بالتأكيد لم ألاحظه هناك. من السهل التعرُّف عليه. إنه يرتدي روبًا طويلًا وعمامة على رأسه.»

– «لماذا نقرأ كتاب بنجيلي؟»[٤]

– «بنينجيلي. لأنني صادفتُه في المكتبة. لأنني اعتقدتُ أنك قد تستمتع به. لأنه مفيد بالنسبة للغتك الإسبانية. ماذا تريد أن تعرف أيضًا؟»

يصمت الولد.

– «لنتوقف هنا ونواصل غدًا مع المُغامرة الثانية لدون كيخوته وسنشو. بحلول الغد أتوقَّع أن تستطيع تحديد سنشو بحرف إس كبير ودون كيخوته بحرف كيو معقوف.»

– «ليست مُغامرات دون كيخوته وسنشو. إنها مُغامرات دون كيخوته.»

---

[٣] بنينجيلي Benengeli شخصية مؤرخٍ مسلم من ابتكار ثربانتس في دون كيخوته.

[٤] بنجيلي: ينطق الطفل الاسم خطأً.

١٩

وصلَت إلى أحواض السفن واحدةٌ من أكبر سفن الشحن، يُسمِّيها ألفارو سفينة شحن ببطنَين، بمقدمة ومؤخرة. ينقسم عمال الأحواض إلى طاقمَين. ينضَم سيمون إلى طاقم المقدمة.

في منتصف الصباح في أول أيام التفريغ، في المخزن، يسمع ضجةً على سطح السفينة ودوِيَّ صافرة. يقول أحد رفاقه: «إشارة الحريق. لنخرُج بسرعة!»

يشمُّ رائحة الدخان وهما يصعدان السُّلم. يتصاعد من مخزن المُؤخِّرة.

يجأر ألفارو من موضعه على جانب الجسر بجوار ربَّان السفينة: «ليخرُج الجميع! الجميع إلى الشاطئ!»

بمجرَّد أن يسحب عمَّال الشحن والتفريغ سلالمهم يسحب طاقم السفينة الأغطية على الفتحة الضخمة.

يسأل: «ألن يُطفِئوا النار؟»

يرد زميله: «إنهم يخنقونها. سوف تُخمَد في خلال ساعة أو اثنتَين. لكن الحمولة ستفسَد، لا شك في ذلك. ربما أيضًا نرميها للسمك.»

يجتمع العمَّال على رصيف الميناء. يبدأ ألفارو النداء على القائمة: «أدريان ... أجوستين ... ألكسندر ...» تأتي الردود: «هنا ... هنا ... هنا ...» حتى يصل إلى مارسيانو. «مارسيانو ...» صمت. «هل رأى أحدكم مارسيانو؟» صمت. من الفتحة المسدودة يندفع الدخان إلى الهواء الساكن.

يسحب البحَّارة الأغطية مرةً أخرى. في التَّوِّ يغطِّيهم دخانٌ رماديٌّ كثيف.

يأمر ربَّان السفينة: «أغلقوا!» ولألفارو: «إذا كان رجُلُكَ هناك فقد انتهى.»

يقول ألفارو: «لن نتركه. سأنزل.»

– «لن تنزل طالما كنتَ المسئول.»

في الظهيرة يُعاد فتح غطاء الفتحة الخلفية لفترةٍ وجيزة. الدخان كثيفٌ كما كان. يأمر الكابتن بغَمر المخزن. يتم صرف عمَّال الأحواض.

يحكي أحداث اليوم لإيناس. يقول: «بالنسبة لمارسيانو، لن نعرف بالتأكيد حتى ينظِّفوا المخزن في الصباح.»

يسأل الولد وهو يدخل في أثناء المُحادثة: «ما الذي لا تعرفونه عن مارسيانو؟ ماذا حدث له؟»

– «تخميني أنه نام. كان مستهترًا واستنشَق قَدْرًا كبيرًا جدًّا من الدخان. إذا استنشَقتَ قَدْرًا كبيرًا جدًّا من الدخان تضعُف وتدوخ وتنام.»

– «وبعد ذلك؟»

– «وبعد ذلك أخشى أن أقول لن تستيقظ مرةً أخرى في هذه الحياة.»

– «تموت؟»

– «أجل، تموت.»

تقول إيناس: «إذا مات فسوف يمضي إلى الحياة الأخرى. وبالتالي لا حاجة للقلق بشأنه. حان وقت حمَّامك. هيا.»

– «هل يمكن أن يحمِّيَني سيمون؟»

لم ير الولد عاريًا منذ فترةٍ طويلة. يلاحظ ببهجة أن جسمه ممتلئ.

يقول، وهو يشطف آخر الصابون عنه ويلفُّه بفوطة: «قف. دعنا نجفِّف بسرعة، ثم يمكن أن ترتدي بيجامتك.»

يقول الولد: «أريد أن تجفِّفني إيناس.»

يُبلغ إيناس: «يريدك أن تجفِّفيه. لستُ جيدًا بما يكفي.»

ممدَّدًا في سريره، يسمح الولد لإيناس بالاعتناء به، بتجفيف ما بين أصابع قدمَيه، وفي الفرْجة بين ساقَيه. إبهامه في فمه؛ وعيناه مخدَّرتان بمتعةٍ هائلة تتابعانها بكسل.

تعفرُه ببودرة التلك وكأنه رضيع، وتساعده على ارتداء بيجامته.

إنه وقت النوم، لكنه لن يترك قصة مارسيانو تفوته. يقول: «ربما لا يكون ميتًا. هل يمكن أن نذهب ونُلقي نظرة، إيناس وأنت وأنا؟ لن أتنفَّس أي دخان، أَعِد. هل يُمكِن؟»

– «لا معنى لهذا يا ديفيد. فات أوان إنقاذ مارسيانو. ومخزن السفينة ممتلئ بالمياه على أية حال.»

– «لم يفت الأوان! يمكِن أن أسبح في المياه وأنقِذه، مثل عجل البحر. أستطيع أن أسبح في أي مكان، لقد أخبرتُكَ، إنني فنَّان الهروب.»[١]

– «لا يا ولدي، السباحة في مخزنٍ مغمورٍ خطيرةٌ جدًّا، حتى بالنسبة لفنَّان الهروب. يمكن أن تُحاصَر ولا تعود أبدًا. بالإضافة إلى ذلك، فنَّانو الهروب لا ينقذون الآخرين، ينقذون أنفسهم. وأنت لست عجل بحر. لم تتعلم السباحة. حان الوقت لتفهم أن المرء لا يكون سبَّاحًا أو فنان هروب بمجرد التمني. يستغرق الأمر سنواتٍ من التدريب. على أية حال، لا يريد مارسيانو الإنقاذ، والعودة إلى هذه الحياة. وجد مارسيانو السلام. ربما يعبُر البحار في هذه اللحظة نفسها، ويتطلع إلى الحياة التالية. سوف تكون مُغامرةً عظيمةً بالنسبة له، أن يبدأ من جديد، ناسيًا كل شيء. لا يريد أن يكون عامل شحن وتفريغ بعد ذلك، وأن يحمل أجولةً ثقيلةً على كتفَيه. يمكن أن يكون طائرًا. يمكن أن يكون أي شيء كما يُحب.»

– «أو عجل بحر.»

– «طائرًا أو عجل بحر. أو ربما حوتًا ضخمًا جدًّا. ليست هناك حدود لما يمكن أن يكون في الحياة التالية.»

– «هل ستذهب أنت وأنا إلى الحياة التالية؟»

– «إذا متنا فقط. ولن نموت. سنعيش وقتًا طويلًا.»

– «مثل الأبطال. الأبطال لا يموتون، أليس كذلك؟»

– «لا، الأبطال لا يموتون.»

– «هل سنُضطَر إلى الحديث بالإسبانية في الحياة التالية؟»

– «لا بالتأكيد. من الناحية الأخرى، قد نُضطَر إلى تعلُّم الصينية.»

– «وإيناس؟ هل ستأتي إيناس أيضًا؟»

– «هذا ما تقرِّره هي. لكنني متأكد من أنك إذا ذهبتَ إلى الحياة التالية، فسوف تتبعُك إيناس. إنها تحبك كثيرًا جدًّا.»

– «هل سنرى مارسيانو؟»

– «بدون شك. ومع ذلك، قد لا نتعرف عليه. قد نعتقد أننا رأينا طائرًا أو عجل بحر أو حوتًا. ومارسيانو — مارسيانو سيعتقد أنه يرى فرس النهر بينما ما يراه في الحقيقة أنت.»

---

[١] فنان الهروب: شخص يسلي الجمهور بربطه ووضعه في مكانٍ خطيرٍ ثم يهرب منه.

– «لا، أقصد مارسيانو الحقيقي، في أحواض السفن. هل سنرى مارسيانو الحقيقي؟»

– «بمجرد تجفيف المخزن سيرسل الكابتن الرِّجال ليأتوا بجسد مارسيانو. لكن مارسيانو الحقيقي لن يكون بيننا بعد ذلك.»

– «هل يمكن أن أراه؟»

– «ليس مارسيانو الحقيقي. مارسيانو الحقيقي غير مرئي لنا. وبالنسبة للجسد، الجسد الذي فرَّ منه مارسيانو، حين نذهب فيه إلى أحواض السفن يكون قد أخذ بعيدًا. سيفعل الرجال ذلك مع أول نور، وأنت ما زلت نائمًا.»

– «أُخِذ إلى أين؟»

– «أُخِذ ليُدفَن.»

– «لكن ماذا إن لم يكن ميتًا؟ ماذا إذا دفنوه وهو ليس ميتًا؟»

– «لن يحدث هذا. الناس الذين يدفنون الميت، حفَّارو القبور، حريصون على ألا يدفنوا شخصًا إذا كان حيًّا. يسمعون نبض القلب. يسمعون التنفُّس. لن يدفنوه إذا سمعوا حتى أضعف نبضة قلب. وبالتالي لا حاجة للقلق. مارسيانو في سلام ...»

– «لا، أنت لا تفهم! ماذا إذا كان بطنه ممتلئًا بالدخان لكنه ليس ميتًا حقًّا؟»

– «رئتاه. نتنفَّس من رئتَينا، وليس من بطوننا. إذا أخذ مارسيانو الدخان في رئتَيه يكون ميتًا بالتأكيد.»

– «ليس صحيحًا! قلتَ ذلك للتو! هل يمكن أن نذهب إلى أحواض السفن قبل أن يصل حفَّارو القبور إلى هناك؟ هل يمكن أن نذهب الآن؟»

– «الآن، في الظلام؟ لا، لا يمكن بالتأكيد. لماذا أنت توَّاق جدًّا لرؤية مارسيانو، يا ولدي؟ الجسد الميت ليس مهمًّا. الروح هي المهمَّة. روح مارسيانو هي مارسيانو الحقيقي؛ والروح في طريقها إلى العالم التالي.»

– «أريد أن أرى مارسيانو! أريد أن أشفط الدخان منه! لا أريد أن يُدفَن!»

– «ديفيد، لو كنا نستطيع إعادة مارسيانو بشفط الدخان من رئتَيه، لفعل البحَّارة ذلك منذ وقتٍ طويل، أعدُك. البحَّارة يحبُّوننا، ويحملون لنا المودَّة. لكنك لا تستطيع إعادة الناس إلى الحياة بشفط الدخان من رِئاتهم، لا تستطيع بعد أن يموتوا. هذا أحد قوانين الطبيعة. بمجرد أن تكون ميتًا تكون ميتًا. الجسد لا يعود إلى الحياة. الروح فقط تستمرُّ في الحياة؛ روح مارسيانو، روحي، روحك.»

– «ليس صحيحًا! ليست لي روح! أريد أن أنقذ مارسيانو!»

– «لن أسمح بهذا. سوف نذهب جميعًا إلى جنازة مارسيانو، وفي الجنازة تسنح لك الفرصة، مثل كل الآخرين، في أن تُقبِّله قبلة الوداع. هذا ما سيكون، وهذه هي النهاية. لن أناقش موتَ مارسيانو أكثر من هذا.»

– «لا تملك أن تقرِّر لي ما يفعل! لستَ أبي! سأسأل إيناس!»

– «يمكن أن أؤكد لك أن إيناس لن تذهب معك إلى أحواض السفن في الظلام. افهم. أعرف أنك تريد إنقاذ الناس، وهذا رائع، لكن الناس لا يريدون إنقاذهم أحيانًا. دع مارسيانو في حاله. مارسيانو رحَل. لنتذكَّر الأشياء الطيبة بشأنه، ونتركه وشأنه. هيا الآن: إيناس تنتظرك لتحكي لك قصة قبل النوم.»

حين يتقدم للعمل في الصباح التالي، كان الشفط من المخزن الخلفي قد اكتمل تقريبًا. في خلال ساعة استطاع فريقٌ من البحَّارة النزول؛ وبعد ذلك بوقتٍ قصير، وعمال الأحواض يشاهدون في صمت من على رصيف الميناء، يحمل جسَد زميلهم الراحل، مربوطًا على نقَّالة، إلى ظهر السفينة.

يخطب فيهم ألفارو. يقول: «في خلال يومٍ أو اثنَين ستكون هناك فرصة لوداعٍ لائقٍ لصديقنا، يا رجال. والآن إلى العمل كالمعتاد. في المخزن فوضى رهيبة، وعلينا تنظيفُه.»

يقضي العمال بقية اليوم في المخزن، وأقدامهم في الماء، محاطين بالرائحة الحادة المنبعثة من الرماد المبلَّل. انفجَرَت كل أجولة الحبوب؛ ومهمتهم جرفُ كل هذه الفوضى اللزجة في دِلاء وتوصيلها بالتتابع إلى ظهر السفينة، ومن هناك تُلقى في الماء. إنه عملٌ تعيس، يتم في صمت في مكان الموت. حين يتذكَّره في شقة إيناس في ذلك المساء، يكون مُنهَكًا وكئيبًا.

يقول لإيناس: «أليس لديكِ أي شيء يُشرب، هل لديك؟»

– «آسفة، ليس لديَّ أي شيء، سأصنع لك بعض الشاي.»

يستغرق الولد في كتابه وهو منبطح على السرير. وقد نسي مارسيانو.

يحيِّيه: «أهلًا. كيف حال دون كيخوتة اليوم؟ ماذا سيفعل؟»

يتجاهل سؤاله. ويسأل وهو يشير: «كيف تُنطق هذه الكلمة؟»

– «تُنطق مغامرات،[٢] بحرف إيه كبير. «مغامرات دون كيخوته.»

---

[٢] بالإسبانية في الأصل Aventuras.

– «وهذه الكلمة؟»

– «خيالي،[٣] بحرف إف. وتلك الكلمة — هل تذكر حرف كيو الكبير؟ — كيخوته. يمكن دائمًا أن تتعرف على كيخوته بحرف كيو الكبير. أعتقد أنكَ قلتَ لي إنك تعرف الحروف.»

– «لا أريد أن أقرأ حروفًا. أريد أن أقرأ القصة.»

– «هذا غير ممكن. القصة مكوَّنة من كلمات، والكلمات مكوَّنة من حروف. بدون حروف لن تكون هناك قصة، أو دون كيخوته. لا بد أن تعرف الحروف.»

– «أرني كلمة خيالي.»

يضع سبابة الولد على الكلمة: «هذه.» الأظافر نظيفة ومقصوصة بعناية؛ بينما يده، وكان من المعتاد أن تكون ناعمة ونظيفة، مشقَّقة وقذرة، بوسخٍ يملأ الشقوق.»

يُغلِق الولد عينيه بشدة، يحبس نفَسه، ويفتح عينَيه. «خيالي.»

– «ممتاز. تعلَّمتَ التعرف على كلمة خيالي. هناك طريقتان لتعلُّم القراءة، يا ديفيد. الطريقة الأولى أن تتعلم الكلمات كلمةً كلمة، كما تفعل. والطريقة الأخرى، وهي أسرع، أن تتعلم الحروف التي تتكوَّن منها الكلمات. هناك سبعة وعشرون حرفًا فقط. بمجرد أن تتعلَّمها، تستطيع أن تتهجى الكلمات الغريبة بنفسك، بدون أن أخبرك في كل مرة.»

يهز الولد رأسه. «أريد أن أقرأ بالطريقة الأولى. أين المارد؟»

يقلب الصفحات: «المارد الذي كان في الحقيقة طاحونة هواء؟ هذا هو المارد.» يضع سبَّابة الولَد على كلمة مارد.[٤]

يغلق الولد عينَيه. ويعلن: «أنا أقرأ بأصابعي.»

– «لا يهم كيف تقرأ، بعينَيك أو بأصابعك مثل الأعمى، طالما تقرأ. أرني كيخوته، بحرف كيو.»

يطعن الولد الصفحة بإصبعه. «هذه.»

– «لا.» ينقل إصبع الولد إلى المكان الصحيح. «هذه كيخوته، بحرف كيو كبير.»

ينزع الولد يده مشاكسًا. «ليس اسمه الحقيقي — ألا تعرف؟»

[٣] بالإسبانية في الأصل Fantástico.

[٤] بالإسبانبة في الأصل.

– «قد لا يكون اسمه الدنيوي، الاسم الذي يعرفه به جيرانه، لكنه الاسم الذي اختاره لنفسه، والاسم الذي نعرفه به.»

– «إنه ليس اسمه الحقيقي.»

– «ما اسمه الحقيقي؟»

ينطوي الولد في نفسه فجأة. يُهمهِم: «يُمكِن أن تذهب. سأقرأ بنفسي.»

– «حسنًا جدًّا، سوف أذهب. حين ترجع إلى عقلك مرةً أخرى، حين تقرِّر أنك تريد تعلُّم القراءة بشكلٍ صحيح. اتصل بي وأخبِرني بالاسم الحقيقي لدون كيخوتة.»

– «لن أفعل. إنه سر.»

إيناس مستغرقة في مهام المطبخ. لم تلتفِت حتى وهو يغادر.

يمُر يوم قبل زيارته التالية. يجد الولد مستغرقًا في الكتاب كما كان من قبلُ. يحاول أن يتكلم لكن الولد يشير بنفاد صبر — «صه!» — ويقلب الصفحة بحركةٍ سريعةٍ خاطفة وكأن ثعبانًا يكمُن تحتها وقد يهاجمه.

تظهر الصورة دون كيخوته وهو يهبط، مربوطًا في مهدٍ من الحبال، إلى حفرة في الأرض.

يسأل: «هل تريد أن أساعدك؟ هل أخبرك بما يحدث؟»

يومئ الولد.

يأخذ الكتاب. «هذه حلقة تُسمَّى «كهف مونتسينوس». وقد سمع دون كيخوته كثيرًا عن كهف مونتسينوس، عزم على أن يرى بنفسه عجائبه الشهيرة. هكذا طلب من صديقه سنشو والعالِم الواسع الاطلاع — لا بد أن الرجل الذي يلبَس القبَّعة هو العالم الواسع الاطلاع — إنزاله إلى الكهف المظلم، وانتظار إشارته بفارغ الصبر لسحبه مرةً أخرى.

– «لساعةٍ كاملةٍ جلس سنشو والعالِم على فتحة الكهف.»

– «ما العالِم؟»

– «العالم رجل قرأ كتبًا كثيرة وتعلَّم أشياءَ كثيرة. لساعةٍ كاملة جلس سنشو والعالِم حتى شعرا في النهاية بشدَّة في الحبل وبدآ يسحبان، وهكذا يأتي دون كيخوته ويظهر في النور.»

– «لم يمت دون كيخوته.»

– «لا، لم يمت.»

يتنفَّس الولد الصُّعَداء. يقول: «هذا رائع، أليس كذلك؟»

– «أجل، هذا رائع بالطبع. لكن لماذا اعتقَدتَ أنه ميت؟ إنه دون كيخوته. إنه البطل.»

– «هو البطل وهو ساحر. تقيِّده بالحبال وتضعه في صندق وحين تفتح الصندوق لا يكون هناك، هرب.»

– «أوه، هل اعتقدتَ أن سنشو والعالِم قيَّدا دون كيخوته؟ لا، إذا قرأتَ الكتابَ بدل الاكتفاء بالنظر إلى الصور وتخمين القصة، لعرَفتَ أنهما يستخدمان الحبل لسحبه من الكهف، وليس لتقييده. هل أواصل؟»

يومئ الولد.

– «بلطفٍ يشكُر دون كيخوته صديقَيه. ثم يمتِّعهما برواية كل ما حدث في كهف مونتسينوس. قال إنه رأى، في الأيام الثلاثة والليالي الثلاث التي قضاها تحت الأرض، الكثير من المشاهد العجيبة، لا سيما مساقط المياه التي لا تُسقِط شلَّالاتُها قطراتٍ من المياه بل ماساتٍ متلألئة، ومواكب من الأميرات في أروابٍ من الحرير، وحتى، أعظم أعجوبة على الإطلاق، الليدي دولسينيا تمتطي فرسًا بيضاء بلجامٍ مرصَّع بالجواهر، وقد توقفَت وتحدثَت معه بعطف.

قال سنشو: لكن سمُوك مخطئ بالتأكيد، لأنك لم تقضِ تحت الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ بل ساعة على الأكثر.

قال دون كيخوته برزانة: لا، يا سنشو، غبتُ ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ؛ إذا بدت لك مجرد ساعة، فلأنك نمتَ وأنت تنتظر، وغفلتَ عن مرور الوقت.

كان سنشو على وشك أن يجادل، لكنه يتراجع، متذكرًا مدى ما يُمكِن أن يكون عليه دون كيخوته من عناد. قال، وهو ينظر إلى العالِم الواسع الاطلاع ويغمز: أجل، سموك، لا بد أنك محق؛ لثلاثة أيام كاملة وثلاث ليالٍ كاملة كنا نحن — الاثنَين — في سُبات، حتى عودتك. لكن نتضرَّع إليك أن تحكي لنا المزيد عن الليدي دولثينيا وما جرى بينها وبينك.

نظر دون كيخوته برزانة لسنشو، وقال: أوه، يا صديقي القليل الإيمان، متى تعرف، متى تعرف؟ وخيَّم عليه الصمت.

حكَّ سنشو رأسه. وقال: سمُوك، لن أنكر أن من الصعب أن أصدِّق أنك قضيتَ ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ في كهف مونتسينوس بينما بدا لنا أنها مجرَّد ساعة؛ وهكذا لن أنكر أن من الصعب أن أصدِّق أن هناك في هذه الدقيقة نفسها كتائب من الأميرات تحت أقدامنا، وسيدات يقفزن على أفراس بيضاء كالثلج، وما شابه. الآن إذا كانت الليدي دولثينيا قد منحت سمُوك علامة على حقيقتها، مثل ياقوتةٍ حمراء أو ياقوتةٍ زرقاء من لجام مطيَّتها، تستطيع أن تريها لمتشكِّكَين بائسَين مثلنا، وسوف تختلف المسألة.

فكَّر دون كيخوته: ياقوتة حمراء أو ياقوتة زرقاء. ينبغي أن أُريَك ياقوتةً حمراء أو ياقوتةً زرقاء برهانًا على أنني لا أكذب.

قال سنشو: إذا جاز التعبير. إذا جاز التعبير.

وإذا أريتُك مثل هذه الياقوتة الحمراء أو الياقوتة الزرقاء، يا سنشو، ماذا بعدُ؟

أسقط على ركبتي، سمُوك، وأقبِّل يدك، وأتوسَّل إليك أن تسامحني على شكِّي فيك. وسأكون تابعك الأمين إلى نهاية الزمن.»

يُغلِق الكتاب.

يقول الولد: «و؟»

– «ولا شيء. هذه نهاية الفصل. حتى الغد ليس هناك المزيد.»

يأخذ الولد الكتابَ من يدَيه، ويفتحه مرةً أخرى على صورة دون كيخوته وهو مربوط بالحبل، يحدِّق بجدية في محيط الجسم المطبوع. يقول بصوتٍ منخفض: «أرِني.»

– «أريك ماذا؟»

– «أرني نهاية الفصل.»

يشير إلى نهاية الفصل. «انظر، هنا يبدأ فصلٌ جديد، يُسمَّى دون بيردو والدُّمى.[٥] كهف مونتسينوس خلفنا.»

– «لكن هل أظهر دون كيخوتة لسنشو الياقوتة الحمراء.»

– «لا أعرف. السيد بنينجيلي لا يقول. ربما أظهرَها، وربما لم يُظهِرها.»

– «لكن هل كانت معه ياقوتةٌ حمراء حقًّا؟ هل كان حقًّا تحت الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ؟»

– «لا أعرف. ربما يكون الزمن بالنسبة لدون كيخوته غير الزمن بالنسبة لنا. ربما ما يكون بالنسبة لنا غمضة عين يكون دهرًا كاملًا بالنسبة لدون كيخوته. لكن إذا كنتَ مقتنعًا بأن دون كيخوته صَعِد من الكهف بياقوت أحمرَ في جيبه، فعليك أن تكتبَ كتابكَ وتقول ذلك. ثم نُعيد كتاب السيد بنينجيلي إلى المكتبة ونقرأ كتابك بدلًا منه. ومع ذلك، لسوء الحظ، قبل أن تستطيع كتابة كتابك لابد أن تتعلَّم القراءة.»

– «يمكنني أن أقرأ.»

---

[٥] في الأصل بالإسبانية ثم بالإنجليزية.

– «لا، لا يمكنك. يمكنك أن تنظر إلى الصفحة وتحرِّك شفتَيك وتختلق قصصًا في رأسك، لكنها ليست قراءة. تحتاج القراءة الحقيقية الالتزام بالمكتوب في الصفحة. عليك التخلي عن خيالاتك. عليك التوقُّف عن السخافة. عليك التوقُّف عن أن تكون رضيعًا.»

لم يتحدث للطفل قَط من قبل بهذه المباشرة، بهذه القسوة.

يقول الطفل: «لا أريد القراءة بطريقتك. أريد القراءة بطريقتي. كان هناك رجلٌ له مأثرةٌ مزدوجة وحاجة ناندي ناندي ناندي، وحين يركب يكون حِصانًا وحين يمشي يكون بورس.»

– «ليس إلا هُراء. ليس هناك شيءٌ اسمه بورس. دون كيخوته ليست هُراء. لا يُمكِنك أن تصنع هُراءك فقط وتتظاهر بأنك تقرأ عنه.»

– «يُمكِنني! ليس هُراء ويُمكِنني أن أقرأ! ليس كتابك، إنه كتابي!» وبتجهُّم يعود لتقليب الصفحات بعنف.

– «على العكس، إنه كتابُ السيد بنينجيلي الذي وهَبه للعالم؛ وبالتالي فهو ينتمي لنا جميعًا — لنا جميعًا بمعنًى ما، وللمكتبة بمعنًى آخر، لكن ليس لك وحدَك بأي معنًى. وتوقَّف عن تمزيق الصفحات. لماذا تُعامِل الكتاب بهذه القسوة؟»

– «لأن. لأنني إذا لم أُسرِع فسوف تنفتح فجوة.»

– «تنفتح أين؟»

– «بين الصفحات.»

– «هُراء. ليس هناك شيءٌ اسمه فجوةٌ بين الصفحات.»

– «هناك فجوة. إنها داخل الصفحة. لا تراها لأنك لا ترى أي شيء.»

تقول إيناس: «توقَّف عن هذا الآن!»

للحظة يعتقد أنها تخاطب الطفل. للحظة يعتقد أنها انتبهَت في النهاية لتُوبِّخه على عناده. لكن لا، تحدِّق فيه هو.

يقول: «اعتقَدتُ أنك تريدين أن يتعلم القراءة.»

– «ليس بكل هذا التشاحُن. اعثُر على كتابٍ أبسط. دون كيخوته هذا صعبٌ جدًّا بالنسبة لطفل. أرجِعه للمكتبة.»

يتشبَّث الولد بالكتاب بقوة: «لا! لن تأخذَه! إنه كتابي!»

٢٠

فقدَت الشقة، منذ احتلَّتها إيناس، جوَّها البسيط. صارت، في الحقيقة، مكدَّسة، ليس فقط بممتلكاتها الكثيرة. أسوأ ركنٍ بجوار سرير الولد؛ حيث تكتظ كرتونة بالأشياء التي جمعَها وأحضَرها إلى البيت؛ الحصى، ومخاريط الصنَوبَر،[١] والزهور الذابلة، والعِظام، والقواقع، وأجزاء من الأواني الفخَّارية والمعادن القديمة.

يقترح: «ألم يَحِن الوقت لتُلقيَ بهذه الفوضى؟»

يقول الولد: «ليست فوضى. إنها أشياءُ أدَّخرها.»

يدفع الكرتونة بقدمه. «زبالة. لا يُمكِن أن تَكنزَ كل ما تصادفه.»

يقول الولد: «إنه مُتحَفي.»

– «حِمْل الزبالة ليس متحفًا. يجب أن تكون للأشياء قيمةٌ قبل أن يكون لها مكانٌ في مُتحَف.»

– «ما القيمة؟»

– «أن يكون للأشياء قيمة يعني أن الناس عمومًا يقدِّرونها، ويتفقون على أنها قيِّمة. لا قيمة لكوبٍ قديمٍ مكسور. لا أحد يقدِّره.»

– «أنا أقدِّره. إنه مُتحَفي، وليس مُتحفَك.»

يلتفت إلى إيناس. «ألا يحظى هذا بمباركتك؟»

– «دَعْه وشأنه. يقول إنه يشعُر بالأسف على الأشياء القديمة.»

– «لا يُمكِن أن تشعُر بالأسف على كوبٍ قديم بدون يد.»

[١] مخاريط الصنَوبَر: ثمرةٌ بنيةٌ صُلبةٌ بيضاوية تنمو على أشجار الصنَوبَر، بداخلها بذور.

يحدِّق الولد فيه غير قادر على الفهم.

– «الكوب ليست له مشاعر. إذا ألقيتَه بعيدًا فلن يهتم. لن يشعُر بالأذى. إذا كنتَ ستشعُر بالأسف على كوبٍ قديم، يُمكِن أيضًا أن تشعر بالأسف على» — ينظر حوله في سخط — «على السماء، والهواء، والأرض تحت قدمَيك. يمكن أيضًا أن تشعُر بالأسف على كل شيء.»

يستمر الولد في التحديق.

يقول: «الأشياء لا يُقصَد منها أن تبقى إلى الأبد. لكل شيءٍ نهايته الطبيعية. كان لهذا الكوب القديم حياته الطيبة؛ الآن حان الوقت ليعتزل ويُفسِح المجال لكوبٍ جديد.»

تستقر على وجه الولد النظرة العنيدة التي يعرفها الآن جيدًا. يقول: «لا! سأحتفظ به! لن أسمح لك بأن تأخذه! إنه ملكي!»

ولأن إيناس تستسلم له في كل مواجهة، كان يزداد عنادًا. لا يمُر يوم بدون جدل، بدون أصواتٍ ترتفع وأقدامٍ تركل.

يحثُّها على إرساله إلى مدرسة. يقول: «لن تستوعبه الشقة. يحتاج إلى مواجهة العالَم الواقعي. يحتاج إلى آفاقٍ أوسع.» لكنها تستمرُّ في المقاومة.

يسأل الولدُ: «من أَين تأتي النقود؟»

– «يعتمد الأمر على نوع النقود في ذهنك. تأتي العملات المعدنية من مكانٍ يُسمَّى مصلحة سك العملة.»

– «هل تحصل من مصلحة سك العملة على نقودك؟»

– «لا، أحصل على نقودي من الصرَّاف في أحواض السفن. وقد رأيتَ ذلك.»

– «لماذا لا تذهب إلى مصلحة سك العملة؟»

– «لأن مصلحة سك العملة لا تمنحنا نقودًا. علينا العمل من أجلها. علينا أن نكسبها.»

– «لماذا؟»

– «لأن هذه هي الطريقة التي يسير بها العالم. لن يكون للنقود أية قيمة إذا لم نعمَل من أجلها، إذا سلَّمَت مصلحة سك العملة النقودَ للجميع.»

يأخذ الولد إلى مباراة في كرة القدم، ويدفع عند الباب الدوَّار.

يسأل الولدُ: «لماذا ندفع. لم ندفع من قبلُ.»

– «هذه مباراة البطولة، آخر مباراة في الموسم. في نهاية المباراة يحصل الفائزون على كعك ونبيذ. على أحدٍ جمع النقود لشراء كعك ونبيذ. إذا لم يحصل الخبَّاز على نقود مقابل

هذا الكعك، فلن يستطيع شراء الدقيق والسكر والزبد للكعك التالي. تلك هي القاعدة: إذا أردْتَ أكل الكعك فعليك دفع مقابلٍ له. والأمر نفسه بالنسبة للنبيذ.»

– «لماذا؟»

– «لماذا؟ الإجابة على كل لماذا تسألها؟ الأسئلة، في الماضي والحاضر والمستقبل؛ لأن هذه هي الطريقة التي يسير بها العالم. العالم لم يُصنَع بما يتوافَق معنا، يا صديقي الصغير. علينا نحن التوافُق معه.»

يفتح الولد فمه ليرُد. بسرعة يضغط إصبعًا على شفتَيه. يقول: «لا. لا مزيد من الأسئلة. اهدأ وشاهد كرة القدم.»

بعد المباراة يعودان إلى الشقة. إيناس مشغولة عند الموقد؛ تفوح رائحة لحمٍ محروقٍ في الهواء.

تنادي: «وقت العشاء! اذهَب واغسِل يدَيك!»

يقول: «أذهب الآن. إلى اللقاء، أراك غدًا.»

تقول إيناس: «هل لا بد أن تذهب؟ ألا تودُّ البقاء ومشاهَدتَه وهو يتناول عشاءه؟»

المائدة مُعدَّة لواحد، للأمير الصغير. من المقلاة تنقل إيناس قطعتَين رقيقتَين من السُّجق إلى طبقه. في قوسٍ حولهما تضع أنصافَ البطاطس المسلوقة، وشرائحَ من الجزر، وقطعًا صغيرة من القرنبيط، تقطر عليها دهنًا من الطاسة. بوليفار، وكان نائمًا بجوار النافذة المفتوحة، ينهَض ويتقدَّم.

يقول الولد: «السجق! السجق أفضل طعام.»

يعلِّق لإيناس: «لم أرَ سجقًا منذ وقتٍ طويل. من أين تشترينه؟»

– «حصل دييجو عليه. إنه صديق لشخص في المطبخ في البنسيون.»

يقطِّع الولد السجق إلى قِطع، ويقطِّع البطاطس، ويمضغ بقوة. يبدو غير قلق تمامًا من راشدَين يقفان بجواره، أو الكلب وهو يُريح رأسه على ركبته، ويُراقب كل حركاته.

تقول إيناس: «لا تنسَ الجزَر. يجعلك ترى في الظلام.»

يقول الولد: «مثل القط.»

تقول إيناس: «مثل القط.»

يأكل الولد الجزَر. يسأل: «فيم يفيد القرنبيط؟»

– «القرنبيط مفيد لصحتك.»

– «القرنبيط مفيد لصحتك، واللحم يجعلك قويًّا، صحيح؟»

– «صحيح، اللحم يجعلك قويًّا.»

يقول لإيناس: «لا بد أن أذهب. اللحم يجعله قويًّا، لكن ربما ينبغي أن تفكري مرتَين قبل أن تطعميه سجقًّا.»

يقول الولد: «لماذا؟ لماذا ينبغي أن تفكر إيناس مرتَين؟»

– «بسبب ما يضعونه في السجق. ما يدخل في السجق ليس مفيدًا لك دائمًا.»

– «ماذا يضعون في السجق؟»

– «حسنًا، ماذا يضعون في اعتقادك؟»

– «لحمًا.»

– «أجل، لكن أي نوعٍ من اللحم؟»

– «لحم الكنغر.»

– «الآن أنت سخيف.»

– «لحم الفيل.»

– «يضعون في السجق لحم الخنزير، ليس دائمًا بل أحيانًا، والخنازير ليست حيواناتٍ نظيفة. لا تأكل العشب، مثل الأغنام والماشية. تأكل كل ما يصادفها.» ينظر إلى إيناس نظرةً خاطفة. تُحملِق فيه بدَورها في صمت. «تأكل البراز على سبيل المثال.»

– «من المرحاض؟»

– «لا، ليس من المرحاض. لكن إذا صادفَت برازًا في حقلٍ تأكله. بدون أن تفكِّر مرتَين. إنها آكلة نباتات وحيوانات، مما يعني أنها تأكل أي شيء. تأكل حتى بعضها البعض.»

تقول إيناس: «ليس صحيحًا.»

يقول الولد: «هل في السجق براز؟» ويترك شوكته.

حتى «يقول هُراء، لا تستمع له، ليس في سجقك براز.»

يقول: «لا أقول إن في سجقك برازًا حقيقيًّا. لكن فيه لحم براز. الخنازير حيواناتٌ قذرة. لحم الخنازير لحم براز. لكنه رأيي فقط. لا يتفق معي الجميع. قرِّر بنفسك.»

يقول الولد، وهو يدفع طبقه بعيدًا: «لا أريد المزيد. يمكن أن يأكله بوليفار.»

تقول إيناس: «خلِّص طبقك وسأعطيك شيكولاتة.»

– «لا.»

تقول إيناس وهي تلتفت إليه: «أتمنى أن تشعُر بالزهو بنفسك.»

– «إنها مسألة صحة. صحة أخلاقية. إذا أكلتِ خنزيرًا تصبحين مثل خنزير. جزئيًّا. ليس تمامًا، بل جزئيًّا. تتضمِّين للخنزير.»

تقول إيناس: «أنت مجنون.» وتخاطب الولد: «لا تستمع إليه، لقد جُن.»

– «لستُ مجنونًا. يُسمَّى التجسيد. وإلا فلماذا تعتقدين بوجود أَكَلَة لحوم البشر؟ آكل لحوم البشر شخصٌ يتعامل مع التجسيد بجدية. إذا أكلنا لحم شخصٍ آخر نجسِّد ذلك الشخص. هذا ما يؤمن به آكل لحوم البشر.»

يسأل الولدُ: «ما آكل لحوم البشر؟»

تقول إيناس: «آكلو لحوم البشر متوحِّشون. لا تقلق، لا يُوجَد هنا أكلة لحوم البشر. أكلة لحوم البشر مجرَّد خرافة.»

– «ما الخرافة؟»

– «قصة من سالف الأيام ليست صحيحةً بحالٍ من الأحوال.»

– «احكِي لي خرافة. أريد أن أسمع خرافة. احكي لي خرافة عن الإخوة الثلاثة. أو عن الإخوة في السماء.»

– «لا أعرف شيئًا عن الإخوة في السماء. والآن أكمل عشاءك.»

– «إذا كنتِ لن تحكي له عن الإخوة، فاحكي له عن ذات الرداء الأحمر. احكي له عن كيف يلتهم الذئب جدة الفتاة الصغيرة ويتحول إلى جدة، جدة ذئب. بالتجسيد.»

ينهض الولد ويسكب الطعام من طبقه في وعاء الكلب، ويضع الطبق في حوض المطبخ. ويلتهم الكلب السجق.

يعلن الولد: «سأكون منقذًا. سيُعلِّمني دييجو في حمَّام السباحة.»

يقول: «رائع. ماذا تخطِّط لأن تكون أيضًا، بجانب منقذ وفنَّان هروب وساحر؟»

– «لا شيء. هذا كل شيء.»

– «إخراج الناس من حمامات السباحة والهروب من الصناديق والقيام بحيل هوايات، لا مهنة، ليست عملًا أساسيًّا. كيف ستكسب عيشك فعليًّا؟»

يُلقي الولد نظرةً خاطفة إلى أمه، وكأنه يبحث عن مرشد. ثم يقول بجرأة: «لن يكونَ عليَّ أن أكسب عيشي.»

– «علينا جميعًا أن نكسب عيشنا. إنه جزء من الحالة الإنسانية.»

– «لماذا؟»

– «لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ لا نجري محادثةً حقيقيةً بهذه الطريقة. ماذا تأكل إذا قضيتَ وقتك وأنت تنقذ الناس وتهرب من السلاسل وترفض العمل؟ من أين تحصل على الطعام لتكون قويًّا؟»

– «من المحل.»

– «سوف تذهب إلى المحل ويعطونك طعامًا. بدون مقابل؟»

– «أجل.»

– «وماذا يحدث إذا تخلى الناس في المحل عن كل طعامهم بدون مقابل؟ ماذا يحدث حين يكون المحل خاويًا؟»

يرُد الولد، برزانة، وابتسامة صغيرة وغريبة على شفتَيه: «لماذا؟»

– «لماذا ماذا؟»

– «لماذا يكون المحل خاويًا؟»

– «لأنه إذا كان لديك «س» من أرغفة الخبز وتخلَّيتَ عنها كلها بدون مقابل فلن يكون عندك أرغفة أو نقود تشتري بها أرغفةً جديدة؛ لأن «س» ناقص «س» يساوي صفرًا. يساوي لا شيء. يساوي الخواء. يساوي معدةً خاوية.»

– «ما «س»؟»

– ««س» أي رقم، عشرة أو مائة أو ألف. إذا كان لديك شيء وتخلَّيتَ عنه، فلن يكون عندك بعد ذلك.»

يغلق الولد عينَيه ويبدو وجهه مضحكًا. ثم يبدأ القهقهة. يُمسِك جيبة أمه ويضغط وجهه على وركها ويقهقه ويقهقه حتى يحمرَّ وجهه.

تقول إيناس: «ما هذا، يا حبيبي؟» لكن الولد لا يتوقَّف عن الضحك.

تقول إيناس: «من الأفضل أن تنصرف. إنك تزعجه.»

– «إنني أعلِّمه. إذا أرسلتِه إلى المدرسة، فلن تكون هناك حاجةٌ لهذه الدروس المنزلية.»

يقيم الولد صداقة مع رجلٍ عجوز في البلوك إي يحتفظ ببرجِ حمَام على السطح. طبقًا لصندوق البريد في اللوبي اسمه بالاماكي، لكن الولد يُسمِّيه السنيور حمامة، مستر حمامة. يسمح السينور حمامة للولد بتقديم الطعام للطيور بيده. وأعطاه حتى حمامةً لنفسه، طائرًا أبيض تمامًا يسمِّيه الولد بلانكو.[٢]

بلانكو طائرٌ هادئ، وحتى خامل يسمح بأن يُؤخَذ في نزهات ويجلس على رسغ الولد أو على كتفه أحيانًا. لا يُبدي أي مَيلٍ للتحليق بعيدًا، أو للتحليق عمومًا.

يقول للولد: «أعتقد أن جناحَي بلانكو مقصوصان. وهذا يفسِّر لماذا لا يطير.»

[٢] السنيور حمامة بالإسبانية في الأصل؛ وبلانكو كلمةٌ إسبانية معناها أبيض.

يقول الولد: «لا. انظر! يقذف الطائر في الهواء. يرفرف بجناحَيه بفتور، يلفُّ مرةً أو اثنتَين، ثم يستقر على كتفه مرةً أخرى ويسوِّي ريشه بمنقاره.

يقول الولد: «يقول السنيور حمامة إن بلانكو يمكن أن يحمل رسائل. يقول إنني لو تُهتُ يمكن أن أربط رسالةً في ساق بلانكو، وسوف يعود بلانكو إلى البيت، ثم يأتي السنيور حمامة ويعثر عليَّ.»

– «ذلك لطيفٌ جدًّا من السنيور حمامة. سيكون عليك أن تحمل معك قلمًا رصاصًا وورقة، وقطعةً من الخيط لتستطيع ربط الورقة في ساق بلانكو. ماذا ستكتب؟ أرني ما سوف تكتبه حين تريد أن تُنقَذ.»

إنهما يعبران الملعب الخالي. في حفرة من الرمل يُقرفِص الولد، وينعم السطح، وبإصبعٍ يبدأ الكتابة. يقرأ من فوق كتفه: أوه ثم إي ثم حرفًا لا يستطيع تحديدَه ثم أوه مرةً أخرى ثم إكس وإكس مرةً أخرى.

ينهض الولد. يقول: «اقرأه.»

– «أجد صعوبة. هل هو بالإسبانية؟»

يومئ الولد.

– «لا، أستسلم. ماذا كتبت؟»

– «يقول، اتبع بلانكو، بلانكو أفضل أصدقائي.»

– «حقًّا. كان من المعتاد أن يكون فيدل أفضل أصدقائك، ومن قبله الملك. ماذا حدث بحيث لم يعُد فيدل صديقك وحل مكانه طائر؟»

– «فيدل كبير جدًّا بالنسبة لي. فيدل فظ.»

– «لم أرَ قط أن فيدل فظ. هل قالت لك إيناس إنه فظ؟»

يومئ الولد.

– «فيدل ولدٌ رقيق تمامًا. أنا معجب به وكنتَ أنت أيضًا معجبًا به. اسمَح لي بأن أقول لك شيئًا. يشعُر فيدل بالأذى لأنك لم تعُد تلعب معه. في رأيي أنك تعامل فيدل معاملة سيئة. إنك، في الحقيقة، تعامله بفظاظة. في رأيي أنك ينبغي أن تقضي وقتًا أقل مع السنيور حمامة على السطح ووقتًا أطول مع فيدل.»

ينقل الولد الطائر على ذراعه. يقبل التوبيخ بدون احتجاج. أو ربما ببساطة يترك الكلماتِ تمُر مرور الكرام.

– «بالإضافة إلى ذلك، أعتقد أنك ينبغي أن تخبر إيناس أن الوقت حان لتذهب إلى المدرسة. ينبغي أن تُصِر على ذلك. أعرف أنك ذكي جدًّا وقد علَّمتَ نفسك القراءة والكتابة، لكن لا بد أن تكون قادرًا على الكتابة مثل الآخرين. لا فائدة من إرسال بلانكو برسالةٍ مربوطةٍ في ساقه إن لم يستطع أحدٌ قراءتها، ولا حتى السنيور حمامة.»

– «أستطيع قراءتها.»

– «تستطيع قراءتها لأنكَ كتبتَها. لكن القضية كلها بشأن الرسائل أن يستطيع الآخرون قراءتها. إذا تهتَ وأرسلتَ رسالةً للسنيور حمامة ليأتي وينقذك، فلا بد أن يستطيع قراءة رسالتك. وإلا فعليك أن تربط نفسك بساق بلانكو وتطلب منه الطيران بك إلى البيت.»

ينظر إليه الولد بارتباك. ويقول: «لكن ...» ثم يفهم أنها نكتة ويستغرق الاثنان في الضحك.

إنهما في ملعب البلوكات الشرقية. وكان يدفع الولد على الأراجيح، إلى أعلى، فيصرخ خوفًا ومتعةً. والآن يجلسان جنبًا إلى جنب، يحبسان أنفاسهما، ويستمتعان بآخر شفق.

يسأل الولدُ: «هل يمكن أن تنجبَ إيناس توءمَين من بطنها؟»

– «بالطبع يمكنها. قد لا يكون شائعًا لكنه مُحتمَل.»

– «إذا أنجبَت إيناس تَوءمَين يمكن أن أكون الأخ الثالث. هل يكون التوءمان معًا دائمًا؟»

– «ليس عليهما أن يكونا، لكنهما يفضِّلان ذلك عادة. التوءمان يُعجَب كلٌّ منهما بالآخر بشكلٍ طبيعي، مثل النجمين التوءمَين. إذا لم يكونا معًا، فقد يتجوَّلان منفصلَين ويضيعان في السماء. لكن حب كلٍّ منهما للآخر يربطهما معًا. يربطهما معًا حتى نهاية الزمن.»

– «لكن النجمَين التوءمين ليسا معًا، ليسا معًا في الواقع.»

– «ليسا، ذلك أكيد، ليسا مقيدَين كلٌّ منهما بالآخر في السماء، هناك فجوةٌ صغيرة بينهما. هكذا تسير الطبيعة. فكِّر في المحبين. إذا قيِّد المحبَّان كلٌّ منهما بالآخر طول الوقت فلن يحتاجا إلى أن يحب كلٌّ منهما الآخر. سيكونان واحدًا. لن يكون هناك شيءٌ يحتاجان إليه؛ لهذا تُوجَد فجوات في الطبيعة. إذا حزمت كل الأشياء معًا بشدة، كل شيء في العالم، فلن نكون هناك أنت أو أنا أو إيناس. لن نتحدث أنت وأنا معًا مباشرة، لن يكون هناك إلا الصمت — الوحدة والصمت. وهكذا — عمومًا — من الأفضل وجود فجوات بين الأشياء، أن نكون أنت وأنا اثنَين بدلًا من واحد.»

– «لكن يمكن أن نسقط. يمكن أن نسقط في الفجوة. في الشق.»

– «الفجوة ليست مثل الشق تمامًا. الفجوات جزء من الطبيعة، جزء من حقيقة الأشياء. لا يمكن أن تسقط في فجوة وتختفي. هذا لا يحدث. الشق مختلف تمامًا. الشق كَسرٌ في نظام الطبيعة. يشبه أن تقطع نفسك بسكِّين، أو تمزِّق صفحة إلى اثنتَين. تواصل القول إن علينا أن نحذر الشقوق، لكن أين هذه الشقوق؟ أين ترى شقًّا بينك وبيني؟ أرِني.»

يصمت الولد.

– «التوءمان في السماء مثل التوءمان على الأرض. إنهما أيضًا مثل الأرقام.» هل هذا كله صعب بالنسبة لطفل؟ ربما. لكن الولد سوف يستوعب، لا بد أن يتمنى ذلك — يستوعبه ويفكر فيه وربما يبدأ رؤية المعنى فيه. مثل واحد واثنَين. واحد واثنان ليسا الشيء نفسه، بينهما اختلاف وهو فجوة لكنه ليس شقًّا. هذا ما يجعل العد ممكنًا بالنسبة لنا، ننتقل من واحد إلى اثنَين بدون أن نخشى السقوط.»

– «هل يمكن أن نذهب يومًا ونرى التوءمَين في السماء؟ هل يمكن أن نذهب في سفينة؟»

– «أعتقد ذلك، إذا استطعنا العثور على النوع المناسب من السفن. لكن الوصول إليهما يستغرق وقتًا طويلًا. التوءَمان بعيدان جدًّا. لم يزُرهما أحدٌ بعدُ، في حدود معرفتي. هذا» — يضرب بقدمه على الأرض — «هو النجم الوحيد الذي زُرْناه نحن البشر.»

يحدِّق الولد فيه بارتباك. ويقول: «هذا ليس نجمًا.»

– «إنه نجم. إنه فقط لا يبدو مثل نجم عن قُرب.»

– «إنه لا يسطع.»

– «لا شيء يسطع عن قرب. لكن عن بُعدٍ كل شيءٍ يسطع. أنت تسطع. وأنا أسطع. النجوم تسطع بالتأكيد.»

يبدو الولد منشرحًا. يسأل: «هل كل النجوم أرقام؟»

– «لا. قلتُ إن التوءم مثل الأرقام، لكنها مجرد طريقة في التعبير. لا، النجوم ليست أرقامًا. النجوم والأرقام أشياءُ مختلفةٌ تمامًا.»

– «أعتقد أن النجوم أرقام. أعتقد أن هذا رقم ١١» — يشير بإصبعه إلى السماء — «وهذا رقم ٥٠ وهذا رقم ٣٣٣٣٣.»

– «آه، هل تقصد أننا يمكن أن نعطي لكل نجم رقمًا؟ يمكن أن تكون هذه بالتأكيد طريقة لتحديدها، لكنها طريقةٌ مملَّة جدًّا، غير ملهمةٍ جدًّا. أعتقد أن من الأفضل أن تكون لها أسماءٌ حقيقية، مثل الدب ونجم المساء والتوءم.»

– «لا، سخيف، قلْتُ كل نجم رقم.»

يهز رأسه. «كل نجم ليس رقمًا. النجوم مثل الأرقام في جوانبَ قليلة، لكنها في معظم الجوانب مختلفة تمامًا. على سبيل المثال، النجوم متناثرة في السموات بشكلٍ فوضوي بينما الأرقام مثل أسطول من السفن يُبحِر بنظام، كل سفينة تعرف مكانها.»

– «يمكن أن تموت. الأرقام يمكن أن تموت. ماذا يحدث لها حين تموت؟»

– «الأرقام لا يمكن أن تموت. النجوم لا يمكن أن تموت. النجوم خالدة.»

– «الأرقام يمكن أن تموت. يمكن أن تسقط من السماء.»

– «ليس صحيحًا. النجوم لا يمكن أن تسقط من السماء. النجوم التي يبدو أنها تسقط، الشهب، ليست نجومًا حقيقية. وبالنسبة للأرقام، إذا سقط رقم من الصفوف، سيكون هناك شَق، كَسر، والأرقام لا تسير بهذه الطريقة. لا يُوجَد أبدًا شَق بين الأرقام. لا يضيع رقمٌ أبدًا.»

– «يُوجَد! لا تفهم! لا تتذكَّر أي شيء! يمكن أن يسقط رقمٌ من السماء مثل دون كيخوته حين سقط في الشق.»

– «دون كيخوته لم يسقط في شق. نزل إلى كهف، مستخدمًا سُلمًا مصنوعًا من الحبال. على أية حال، دون كيخوته خارج الموضوع. إنه ليس حقيقيًّا.»

– «إنه حقيقي! إنه بطل!»

– «آسف. لم أقصد أن أقول ما قلتُ. بالطبع دون كيخوته بطل وهو بالطبع حقيقي. قصدتُ أن أقول إن ما حدث له لم يعُد يحدث للناس. يعيش الناس حيواتهم من البداية إلى النهاية بدون أن يسقطوا في شقوق.»

– «إنهم يسقطون! إنهم يسقطون في الشقوق ولم تعد تستطيع رؤيتهم لأنهم لا يخرجون. أنت نفسك قلتَ ذلك.»

– «الآن تخلط بين الشقوق والحُفَر. تفكَّر في الموتى الذين دُفنوا في قبور، في حُفر في الأرض. القبر يصنعه حفَّارو القبور باستخدام مِعول. ليس شيئًا غير عادي مثل الشق.»

هناك حفيف الملابس وإيناس تظهر من الظلام. تقول بانزعاج: «كنتُ أنادي وأنادي. ألا يسمع أحدٌ أبدًا؟»

٢١

حين يأتي في المرة التالية ويقرع الشقة، يفتح الولد الباب وهو في حالة توهُّج وإثارة. يصرخ: «يا سيمون، خمِّن ماذا! رأينا السنيور داجا! كان معه قلمٌ سحري! وقد فرَّجَني عليه!»

نسي تقريبًا ما يتعلق بداجا، الرجل الذي أهان ألفارو والصرَّاف في أحواض السفن. يقول: «قلمٌ سحري! يبدو هذا مثيرًا! ممكن أدخل؟»

يقترب بوليفار منه بوقار ويتشمَّم ما بين ساقَيه. إيناس جالسةٌ منحنية على خياطتها؛ يرى للحظة بشكلٍ مقلق ما سوف تبدو عليه حين تكون عجوزًا. بدون أن تحيِّيه تتكلم: «ذهبنا إلى المدينة، إلى هيئة المساعدة،[1] لنحصل على منحة الطفل، وكان هذا الرجل هناك، صديقك.»

– «ليس صديقي. لم أتبادل معه كلمةً قط.»

يقول الولد: «كان معه قلمٌ سحري. في داخله سيدة، وتعتقد أنها صورة، لكنها ليست صورة، إنه سيدةٌ حقيقة، سيدةٌ ضئيلة جدًّا، وحين تقلب القلم رأسًا على عقب تسقط ملابسها وتكون عارية.»

– «إيه. وعلى ماذا فرَّجَك أيضًا السنيور داجا، بالإضافة إلى السيدة الضئيلة؟»

– «قال إن إصابة يد ألفارو لم تكن غلطته. قال إن ألفارو هو الذي بدأ. قال إنها غلطة ألفارو.»

– «هذا ما يقول الناس دائمًا. هناك دائمًا شخصٌ آخر هو الذي بدأ. إنها دائمًا غلطةُ شخصٍ آخر. هل أخبرك السنيور داجا بالمناسبة عما حدث للدرَّاجة التي أخذها؟»

---

[1] هيئة المساعدة: بالإسبانية في الأصل.

– «لا.»

– «حسنًا، اسأله حين تراه في المرة القادمة. اسأله غلطة مَن أن يكون الصراف بدون دراجة ويُضطَر للقيام بجولته على قدمَيه.»

يخيِّم الصمت. يُدهِشه أن إيناس لم يكن لديها إلا القليل جدًّا لتقوله عن الرجال الذين يأخذون الأولاد الصغار جانبًا ويفرِّجونهم على أقلامٍ وسيداتٍ عاريات بداخلها.

يقول الولد: «غلطة مَن؟»

– «ماذا تقصد؟»

– «قلتَ إنها دائمًا غلطة شخصٍ آخر. هل هي غلطة السنيور داجا؟»

– «ضياع الدرَّاجة؟ أجل، إنها غلطته. لكن حين أقول إنها دائمًا غلطة شخصٍ آخر أتحدث بشكلٍ أكثر عمومية. حين تقع غلطة ندَّعي فورًا أنها ليست غلطتَنا. أخذنا هذا الخط منذ بداية العالم. يبدو أنه متأصِّل فينا، جزء من طبيعتنا. لسنا على استعدادٍ أبدًا للاعتراف بأنها غلطتُنا.»

يسأل الولدُ: «هل هي غلطتي؟»

– «ما غلطتك؟ لا، ليست غلطتك. أنت مجرد طفل، كيف يمكن أن تكون غلطتك؟ لكنني أعتقد أن عليك الابتعاد عن السنيور داجا. إنه ليس نموذجًا جيدًا ليتبعه شخصٌ صغير.» يتحدث ببطء وجدية؛ التحذير مُوجَّه لإيناس بقَدْر ما هو مُوجَّه للولد.

بعد بضعة أيام، وهو يخرج من مخزن سفينة في أحواض السفن، يندهش لرؤية إيناس نفسها على رصيف الميناء، مستغرقة في محادثة مع ألفارو. يترنَّح قلبه. لم تزُر أحواض السفن من قبلُ قط؛ يُمكِن فقط أن تكون هناك أخبارٌ سيئة.

تقول إيناس، الولد اختفى، سرقَه السنيور داجا. اتصلَت بالبوليس لكنه لن يساعدها. لا أحد يساعد. لا بد أن يأتي ألفارو؛ لا بد أن يأتي هو، سيمون. لا بد أن يتعقَّبا داجا — لا يمكن أن يكون صعبًا، إنه يعمل معهما — ويستردَّا لها طفلها.

نادرًا ما تُرى نساءٌ في أحواض السفن. ينظر الرجال بفضول للمرأة المذهولة بشعرها المنكوش وبملابس المدينة.

يفهم هو وألفارو القصة منها تدريجًّا. كان الطابور في هيئة المساعدة طويلًا، وكان الولد متوترًا، وانتهز السنيور داجا فرصة وجوده هناك، وعرض أن يشتري للولد آيس كريم، وحين نظرَت في المرة التالية كان قد اختفَيا، كأنهما تلاشَيا من على وجه الأرض.

يعترض: «لكن كيف تسمحين بتركه مع مثل هذا الرجل؟»

تستنكر السؤال بهزةٍ قاطعةٍ برأسها. «يحتاج الولد الصغير لرجل في حياته. لا يمكن أن يكون مع أمه طول الوقت. واعتقَدتُ أنه رجلٌ لطيف. اعتقَدتُ أنه مخلِص. ديفيد مفتون بقُرطه. يريد قرطًا أيضًا.»

– «هل قلتِ إنك تريدين أن تشتري له واحدًا؟»

– «أخبرتُه أنه يمكن أن يلبس قُرطًا حين يكبر وليس الآن.»

يقول ألفارو: «سأترككما لمناقشتكما. نادِني إذا احتجت إليَّ.»

يسأل حين يكونان بمفردهما: «ماذا عن دورك في هذا؟ كيف يمكن أن تعهدي بطفلك لذلك الرجل؟ هل هناك شيء لا تُخبرينَني به؟ هل من الممكن أن تكوني أنتِ أيضًا قد وجدتِه فاتنًا، بقُرطه الذهبي وسيداته العاريات في الأقلام؟»

تتظاهر بأنها لا تسمع. تقول: «انتظرتُ وانتظرتُ. ثم ركبتُ الباص لأنني اعتقدتُ أنهما ربما عادا إلى البيت. وحين لم يكونا هناك اتصلتُ بأخي، وقال إنه سيتصل بالبوليس، واتصل بي بدوره ليقول إن البوليس لن يساعد لأنني لستُ ... لأنني ليست معي الأوراق القانونية لديفيد.»

تتوقَّف، ذاهلة. تقول: «أخبَرني ... أخبَرني أنه سيعطيني طفلًا. لم يُخبرني ... لم يخبرني بأنه سيأخذ طفلي.» تنتحب فجأة بشدة. «لم يخبرني ... لم يخبرني ...»

لا يهدأ غضبه، ويتعاطف مع المرأة رغم ذلك. غير مهتم بمشاهدة العمال يأخذها في ذراعَيه. تنتحب على كتفه. «لم يقل لي ...»

أخبَرني أنه سيعطيني طفلًا، يدور رأسه. يقول: «تعالَي بعيدًا، لنذهب إلى مكانٍ خاص.» يقودها خلف السقيفة. «أنصتي يا إيناس، ديفيد في أمان، أنا متأكد من ذلك. لن يجرؤ داجا على فعل أي شيءٍ له. عودي إلى الشقة وانتظري هناك. سوف أعرف أين يعيش وأتصل به.» يتوقف. «ماذا كان يقصد حين قال إنه سيعطيكِ طفلًا؟»

تخلِّص نفسها. يتوقف النحيب. تقول بحدة في صوتها: «ماذا تعتقد أنه يعني؟»

بعد نصف ساعة يكون في مركز إعادة التوطين. يقول لآنا: «أحتاج إلى بعض المعلومات بشكلٍ ضروري. هل تعرفين رجلًا اسمه داجا؟ إنه في الثلاثينيات، نحيل، ويلبس قُرطًا. عمل في أحواض السفن فترةً وجيزة؟»

– «لماذا تسأل؟»

– «لأنني أحتاج إلى التحدث معه. أخذ ديفيد من أمه واختفى. إن لم تساعديني فسوف أُضطَر للذهاب إلى البوليس.»

– «اسمه إميليو داجا. الجميع يعرفونه. يعيش في بلوكات المدينة. على الأقل، ذلك طبقًا لما هو مسجَّل.»

– «أين بالضبط في بلوكات المدينة؟»

تتراجع إلى مجموعة أدراج الكروت، وتعود بعنوانٍ على قصاصة من الورق. تقول: «في المرة التالية حين تأتي إلى هنا. حدثني كيف عثرتَ على أمه. أودُّ أن أعرف، إذا كان لديك وقت.»

بلوكات المدينة أكثر المجمَّعات التي يديرها المركز جاذبية. يقوده العنوان الذي أعطته له آنا إلى شقة على قمة سطح البلوك الرئيسي. يقرع. تفتح الباب امرأةٌ شابةٌ جذابة، بدينةٌ جدًّا، تتمايل بشكلٍ غير ثابت على كعبٍ عالٍ. في الحقيقة ليست امرأة إطلاقًا — يشك أنها تتجاوز السادسة عشرة.

يقول: «أبحث عن شخص اسمه إميليو داجا. هل يسكن هنا؟»

تقول الفتاة: «بالتأكيد. ادخل. هل أتيتَ لتأخذ ديفيد؟»

تفوح في الداخل رائحة دخان سجائر كريهة. يجلس داجا في تيشيرت من القطن وبنطلون جينز، حافيًا، أمام نافذةٍ كبيرة تطل على المدينة والشمس الغاربة. يلفُّ في كرسيه، ويرفع يدًا ليُحيِّي.

يقول: «أتيتُ من أجل ديفيد.»

يقول داجا: «إنه في غرفة النوم يشاهد التلفزيون. هل أنت الخال؟ ديفيد! خالك هنا!»

يندفع الولد من الغرفة المجاورة في حالة استثارةٍ هائلة. «سيمون، تعالَ وانظر! ميكي ماوس! لديه كلبٌ اسمه أفلاطون، ويقود قطارًا، والهنود الحمر يصوِّبون سهامًا إليه. تعالَ بسرعة!»

يتجاهل الولد، ويخاطب داجا: «أمه في حالة هلع. كيف يمكن أن تفعل ذلك؟»

لم يكن قد اقترب قبل ذلك من داجا بهذه الطريقة. الرأس الوقح بشعرٍ كثيف، به كتلةٌ ذهبيةٌ مجعَّدة، يتبين أنه خشنٌ ودهني. في التيشيرت ثقب تحت الإبط. ومما يدهشه أنه لا يشعر بخوف من الرجل.

لا ينهض داجا. يقول: «اهدأ، يا عجوز.[٢] قضينا وقتًا طيبًا معًا. ثم نام الطفل. نام بعمق، مثل ملك. والآن يشاهد عرضًا للأطفال. ما الضرر في ذلك؟»

---

[٢] عجوز: بالإسبانية في الأصل.

لا يرُد. يقول: «تعالَ يا ديفيد. سنُغادِر. ودِّع السنيور داجا.»

– «لا! أريد أن أشاهد ميكي ماوس!»

يقول داجا: «يمكن أن تشاهد ميكي في المرة القادمة. أَعِدُك. سوف نحتفظ به هنا من أجلك.»

– «وأفلاطون؟»

– «وأفلاطون. يمكن أن نحتفظ بأفلاطون أيضًا، أليس كذلك، يا حبيبتي؟»

تقول الفتاة: «بالتأكيد. سوف نحتفظ بهما في صندوق ماوس حتى المرة القادمة.»

يقول للطفل: «هيا. أمك قَلِقة بشدة.»

– «ليست أمي.»

– «إنها أمك بالطبع. إنها تحبك كثيرًا جدًّا.»

يقول داجا: «من هي، أيها الرفيق الصغير، إن لم تكن أمك؟»

– «إنها مجرد سيدة. ليس لي أم.»

يقول سيمون: «لك أم. إيناس أمك. أعطِني يدك.»

– «لا! ليس لي أم وليس لي أب. أنا فقط أنا.»

– «هذا هُراء. لكل واحدٍ منا أم. لكل واحدٍ منا أب.»

يقول الولد، مخاطبًا داجا: «هل لك أم؟»

يقول داجا: «لا. أنا أيضًا ليس لي أم.»

يقول الولد بانتصار: «انظر! أريد البقاء معك، لا أريد الذهاب إلى إيناس.»

يقول داجا: «تعالَ هنا.» يُهروِل الولد إليه؛ يرفعه على ركبته. يستقر الولد على صدره وإبهامه في فمه. «تريد أن تبقى معي؟» يومئ الولد. «تريد أن تعيش معي أنا وفراني، نحن الثلاثة فقط؟» يومئ الولد مرةً أخرى. «هل هذا مناسب لك يا حبيبتي — أن يأتي ديفيد ويعيش معنا؟»

تقول الفتاة: «بالتأكيد.»

يقول سيمون: «ليس مؤهلًا ليختار. إنه مجرد طفل.»

– «أنت مُحق. إنه مجرد طفل. لأبوَيه أن يقرِّرا. لكن، كما سمعتَ، ليس له أبوان. وبالتالي ماذا نفعل؟»

– «لديفيد أمٌّ تحبه مثل أي أم في العالم. وبالنسبة لي، قد لا أكون أباه لكنني أهتم به. أهتم به وأرعاه وأعتني به. سيأتي معي.»

يستمع داجا لهذه الخطبة القصيرة في صمت ثم، مما يثير دهشته، يبتسم له، ابتسامةً جذابة، ويكشف عن أسنانه الرائعة. يقول: «رائع. عُد به إلى السيدة أمه. أخبرها بأنه قضى وقتًا طيبًا. أخبرها بأنه في أمانٍ معي دائمًا. تشعر بالأمان معي، أليس كذلك، أيها الفتى؟»

يومئ الولد، وإبهامه ما زال في فمه.

– «حسنًا، ربما حان الوقت لتذهب مع حارسك الجنتلمان.» يرفع الولد عن حجره. «تعالَ بسرعة مرةً أخرى؟ وَعْدٌ؟ تعالَ وشاهِد ميكي.»

٢٢

– «لماذا ينبغي أن أتحدث الإسبانية طول الوقت؟»

– «ينبغي أن نتحدث لغةً ما، يا ولدي، إلا إذا كنا نريد أن ننبَح ونعوِي مثل الحيوانات. وإذا كنا سنتحدث لغةً ما، فمن الأفضل أن نتحدث جميعًا اللغة نفسها. أليس هذا معقولًا؟»

– «لكن لماذا الإسبانية؟ أكره الإسبانية.»

– «أنت لا تكره الإسبانية. تتحدث الإسبانية بشكلٍ جيد جدًّا. لغتك الإسبانية أفضل من لغتي. أنت تُعارِض فقط. بأيةِ لغةٍ تريد أن تتحدث؟»

– «أريد أن أتحدث لغتي الخاصة.»

– «لا يُوجد شيءٌ اسمه لغةٌ خاصة للمرء.»

– «يوجد! لا لا فا فا يام يينج تو تو.»

– «إنها مجرد رطانة. لا تعني شيئًا.»

– «تعني شيئًا. تعني شيئًا بالنسبة لي.»

– «قد تكون كذلك، لكنها لا تعني شيئًا بالنسبة لي. ينبغي أن تعني اللغة شيئًا بالنسبة لي مثل ما تعنيه بالنسبة لك، وإلا لا تُعتبر لغة.»

في إيماءةٍ لا بد أنه أخذها عن إيناس، يحرِّك الولد رأسه استنكارًا. «لا لا فا فا يام يينج! انظر إليَّ!»

ينظر في عينَي الولد. لأقصر لحظة يرى شيئًا هناك. ليس لديه اسم له. إنه يشبه — هذا ما يخطر بباله في اللحظة. مثل سمكةٍ تُفلِتُ وأنت تُحاوِل الإمساك بها. لكنه ليس مثل سمكة — لا، مثل مثل سمكة. أو مثل مثل مثل سمكة. بدون انقطاع. ثم تنتهي اللحظة، ويقف ببساطة في صمت، يُحدِّق.

يقول الولد: «هل رأيتَ؟»

– «لا أعرف. توقَّف دقيقة، أشعر بدُوار.»

يقول الولد بابتسامة انتصار: «أستطيع أن أرى ما تفكِّر فيه!»

– «لا تستطيع.»

– «تفكِّر في أنني أستطيع أن أقوم بأعمال سحرية.»

– «لا إطلاقًا. ليست لديك فكرة عما أفكِّر فيه. انتبه الآن. سأقول شيئًا عن اللغة، شيئًا خطيرًا، شيئًا أريد منك الانتباه له بجدية.

يأتي الجميع إلى هذه البلاد غرباء. جئتُ غريبًا. وجئتَ غريبًا. كانت إيناس وأخواها ذات يومٍ غرباء. جئنا من أماكنَ مختلفة ومن ماضٍ مختلف، بحثًا عن حياةٍ جديدة. لكننا الآن جميعًا في القارب نفسه معًا. وهكذا ينبغي أن نتواصل معًا. إحدى الوسائل التي نتواصل بها معًا التحدُّث باللغة نفسها. هذه هي القاعدة. إنها قاعدةٌ جيدة، وعلينا أن نخضع لها. لا نخضع لها فقط بل نخضع لها عن طيب قلب، ليس مثل بغلٍ يُواصِل الحَفْر بحوافره. عن طيب قلب وطيب نية. إذا رفضتَ، إذا بقيتَ وقحًا مع الإسبانية وصمَّمتَ على التحدث بلغتك الخاصة، فسوف تجد أنك تعيش في عالمٍ خاص. لن يكون لك أصدقاء. سوف تكون منبوذًا.»

– «ما معنى منبوذ؟»

– «لن يكون لك مكانٌ تضع رأسك فيه.»

– «ليس لي أصدقاء على أية حال.»

– «سوف يتغير هذا بمجرد أن تذهب إلى المدرسة. في المدرسة يكون لك الكثير من الأصدقاء الجدُد. على أية حال، لك أصدقاء. فيدل وإيلينا صديقاك. ألفارو صديقك.»

– «والملك صديقي.»

– «والملك صديقك أيضًا.»

– «والسنيور داجا.»

– «السنيور داجا ليس صديقك. السنيور داجا يحاول جرَّك إلى الإغواء.»

– «ما معنى الإغواء؟»

– «يحاول إغراءك بالابتعاد عن أمك بميكي ماوس والآيس كريم. تذكَّر كم مرضتَ من الآيس كريم الذي أكلتَه في ذلك اليوم.»

– «أعطاني شرابًا قويًّا[١] أيضًا.»
– «شرابًا قويًّا، ماذا تقصد؟»
– «حرق حلقي. يقول إنه دواء للكآبة.»
– «هل يحمل السنيور داجا دواءه في قارورةٍ فضيةٍ صغيرة في جيبه؟»
– «أجل.»
– «من فضلك لا تشرب قطُّ أيَّ شيء من قارورة السنيور داجا مرةً أخرى، يا ديفيد. قد يكون دواء للكبار، لكنه ليس مفيدًا للأطفال.»

لا يذكُر الشراب القوي لإيناس لكنه يُخبر إيلينا. يقول لها: «تزداد قبضتُه على الولد. لا يمكن أن أنافسه. يلبس قُرطًا، ويحمل سكِّينًا، ويشرب شرابًا قويًّا. له صديقةٌ جميلة. لديه ميكي ماوس في بيته في صندوق. لا أعرف كيف أعيد الولد إلى رشده. إيناس تحت سحر الرجل أيضًا.»

– «ماذا تتوقع غير ذلك؟ انظر إلى الأمر من منظورها. إنها في عمر تبدأ فيه المرأة التي ليس لها أطفال — أطفالها — الشعور بالقلق. إنها مسألةٌ بيولوجية، إنها في حالة تفتُّح، بيولوجيًّا. أندهش لأنك لا تفهم ذلك.»
– «لا أفكر في إيناس بهذه الطريقة — بيولوجيًّا.»
– «إنك تفكِّر كثيرًا. لا علاقة لهذا بالتفكير.»
– «لا افهم لماذا تريد إيناس طفلًا آخر يا إيلينا. لديها ولد. أتاها هبة، فجأة، هبة نقية وبسيطة. هبة مثل هذه ينبغي أن تكون كافية لأية امرأة.»
– «أجل، لكنه ليس ابنها الطبيعي. لن تنسى ذلك أبدًا. إذا لم تفعل شيئًا بشأن ذلك، فسوف يعتبر ديفيد الصغير السنيور داجا زوج أمه في أحد هذه الأيام، ثم يعتبر صغار داجا إخوةً وأخواتٍ غير أشقَّاء. وإن لم يكن داجا فسوف يكون رجلٌ آخر.»
– «ماذا تقصدين، إذا لم أفعل شيئًا بشأن ذلك؟»
– «إذا لم تمنحها أنت طفلًا.»
– «أنا؟ لا أفكر في ذلك. لستُ من النوع الذي يصلح أبًا. خُلقتُ لأكون عمًّا أو خالًا، لا أبًا. بالإضافة إلى ذلك، إيناس لا تُحب الرجال — على الأقل، هذا هو انطباعي، لا تحب

[١] شراب قوي: مشروب كحولي قوي وخاصة الويسكي.

جهورية الذكور وفظاظتهم وكثافة شعرهم. لا أندهش إذا حاولَت منع ديفيد من أن يكبر ويصير رجلًا.»

– «أن تكون أبًا ليست مهنة يا سيمون. وليست قدرًا ميتافيزيقيًّا. لا ينبغي أن تحب المرأة، ولا ينبغي أن تحبك. تُمارِس الجنس معها، تأمَّل، وبعد تسعة أشهر تكون أبًا. الأمر بسيطٌ جدًّا. يمكن أن يفعله أي رجل.»

– «ليس كذلك. الأبوة ليست مجرد مسألة ممارسة الجنس مع امرأة، بالضبط كما أن الأمومة ليست مجرد مسألة تقديم وعاء لبذرة الرجل.»

– «حسنًا، ما تصفه يُعتبَر أبوة وأمومة في العالم الواقعي. لا تستطيع دخول العالم الواقعي إلا إذا قذفَتك بذرة رجل وحُملتَ في رحم امرأة ونزلتَ من قناة ولادة المرأة نفسها. لا بد أن تُولد من رجل وامرأة. لا استثناءات. اعذرني على صراحتي. وبالتالي اسأل نفسك: هل يزرع صديقي السنيور داجا بذرته في إيناس، أم أنا؟»

يهزُّ رأسه. «كفى يا إيلينا. هل يمكن أن نغيِّر الموضوع؟ يُخبرني ديفيد أن فيدل ألقى حجرًا عليه مؤخرًا. ماذا يحدث؟»

– «لم يكن حجرًا، كانت بلية. إنها ما ينبغي أن يتوقَّعه ديفيد إذا كانت أمه لا تسمح له بالاختلاط بأطفالٍ آخرين، إذا كانت تشجِّعه على الاعتقاد بأنه كائنٌ متفوق. سوف يجتمع عليه الأطفال الآخرون. تحدَّثتُ مع فيدل، وبَّختُه، لكن بدون أية نتيجة.»

– «كانا أفضل صديقَين.»

– «كانا أفضل صديقَين قبل أن تأتي بإيناس إلى الصورة، بأفكارها الغريبة عن تنشئة الأطفال. هذا سببٌ آخر لضرورة أن تُعيد تأكيد وجودك في الأسرة.»

يتنهَّد.

يقول لإيناس: «هل يُمكِن أن نتحدث في موضوعٍ خاص؟ لديَّ عرض لك.»

– «هل يمكن أن ينتظر؟»

يقول الولد من الغرفة المجاورة: «عم تتهامسان؟»

– «لا يخصك.» ولإيناس: «من فضلك، هل يمكن أن نخرج، دقيقة فقط؟»

ينادي الولد: «هل تتهامسان بشأن السنيور داجا؟»

– «لا علاقة له بالسنيور داجا. إنه شيءٌ خاص بين أمك وبيني.»

تجفِّف إيناس يدَيها وتخلع المريلة. تترك هي وهو الشقة، يعبُران الملعب إلى المُنتَزه، يقبع الولد في النافذة ويراقبهما.

– «ما عليَّ أن أقوله يتعلق بالسنيور داجا.» يتوقف ويسحَب نفسًا. «أفهم رغبتك في أن يكون لك طفلٌ آخر؟ هل هذا صحيح؟»

– «مَن قال لك ذلك؟»

– «يقول ديفيد إنك ستُحضِرين له أخًا.»

– «كنتُ أحكي له قصة قبل النوم. كان شيئًا جاء بشكلٍ عابر؛ كانت مجرَّد فكرة.»

– «حسنًا، الأفكار يمكن أن تصبح حقيقة، بالضبط كما تصبح البذرة لحمًا ودمًا. إيناس، لا أريد إحراجك؛ لذلك اسمحي لي أن أقول ببساطة، بأقصى تقدير، إنكِ إذا كنتِ تفكِّرين في الدخول في علاقاتٍ مع رجلٍ بهدف الحمل، يمكن أن تفكِّري فيَّ. أنا مستعدٌّ للقيام بالدور. للقيام بالدور ثم أغيب أنا نفسي، وأستمر في القيام بحمايتك، أضحِّي من أجلك ومن أجل أي أطفالٍ لك. يمكن أن تسمِّيني أباهم الروحي. أو، إذا فضَّلتِ، عمَّهم. أنسى ما جرى بيننا، بينك وبيني. وأتخلَّص من الذكرى. ستكون وكأنها لم تحدُث قط.

ها. قلتُ ما عندي. من فضلك لا ترُدي الآن. فكِّري.»

في صمت، مع اقتراب المساء، يعودان إلى الشقة. تتقدَّم إيناس. من الواضح أنها غاضبة أو منزعجة؛ لا تنظر إليه. يلوم إيلينا على وجوده في هذا الوضع، ويلوم نفسه أيضًا. يا لها من طريقةٍ فظة لعرضِ نفسه! كما لو كان يعرضُ إصلاح السباكة!

يلحق بها، يأخذها من ذراعها، ويحوِّل وجهها إليه. يقول: «كان شيئًا لا يُغتفَر. آسف. سامحيني من فضلك.»

لا تتكلم. تقف مثل شيءٍ منحوت في الخشب، وذراعاها إلى جانبها، منتظرةً أن يسمح لها بالذهاب. يفُكُّ قبضتَه فتنصرف.

من فوق، من النافذة يسمع الولد ينادي: «إيناس! سيمون! هيا! السنيور داجا هنا! السنيور داجا هنا!»

يلعَن في سره. إذا كانت تنتظر داجا، فلماذا لم تُخبره؟ ماذا ترى في الرجل على أية حال، بغروره ورائحة كريم الشعر وصوته الأخنف الخافت؟

لم يأتِ السنيور داجا وحده. معه صديقتُه الجميلة، ترتدي فستانًا أبيض وحذاءً أحمرَ بشعًا، وقُرطًا ثقيلًا على هيئة عجلات العربة يتأرجح وهي تسير. تحيِّيها إيناس بتحفُّظٍ بارد. وبالنسبة لداجا، يبدو على راحته تمامًا في الشقة، يسترخي على السرير، ولا يفعل شيئًا لتهدئة الفتاة.

يعلن الولد: «السنيور داجا يريد أن نذهب للرقص. هل يمكن أن نذهب للرقص؟»

– «من المقرر أن نذهب إلى البنسيون اليوم. وأنت تعرف ذلك.»

– «لا أريد أن أذهب إلى البنسيون! إنه مُمِل! أريد أن أذهَب للرقص!»

– «لا يُمكِن أن تذهب للرقص. أنت صغيرٌ جدًّا.»

– «أستطيع أن أرقص! لستُ صغيرًا جدًّا! سأريك.» وأخذ يلفُّ حول الأرضية، ويخطو بخفة لا تخلو من جمال في حذائه الأزرق الناعم. «ها! هل ترَين؟»

تقول إيناس بصرامة: «لن نذهب للرقص. دييجو سيأتي ليأخذنا، وسنذهب معه إلى البنسيون.»

– «لا بد إذن أن يأتي السنيور داجا وفراني أيضًا!»

– «للسنيور داجا خطَطُه الخاصة. لا يمكن أن تتوقع أن يتخلى عن خططه ويتبعنا.» تتحدث وكأن داجا ليس في الغرفة. «بالإضافة، كما تعرف جيدًا، إنهم لا يسمحون بزوَّار في البنسيون.»

يعترض الولد: «أنا زائر. ويسمحون لي.»

– «أجل، لكنك مختلف. أنت ابني. أنت نور حياتي.»

نور حياتي. يا له من شيءٍ مُدهِش تقوله أمام غرباء!

الآن يظهر دييجو، والأخ الآخر أيضًا، الأخ الذي لا يفتح فمه أبدًا. ترحِّب بهما إيناس بإيجاز. «نحن جاهزان. هاتِ أشياءك يا ديفيد.»

يقول الولد: «لا! لا أريد أن أذهب. أريد أن نقيم حفلة. هل يمكن أن نقيم حفلة؟»

– «ليس هناك وقتٌ لحفلة، وليس لدينا شيءٌ نقدِّمه لضيوفنا.»

– «ليس صحيحًا! لدينا نبيذ! في المطبخ!» وفي لمح البصر يتسلق خزانة المطبخ ويصل إلى الرف العلوي. ويصيح، عارضًا الزجاجة بانتصار: «انظري! لدينا نبيذ!»

تُحاوِل إيناس، وقد احمرَّ وجهها خجلًا، أَخْذ الزجاجة من الولد — تقول: «ليس نبيذًا، إنه شيري» — لكنه يتملَّص منها. يُغَني: «من يريد نبيذًا؟ من يريد نبيذًا؟»

يقول دييجو «أنا!»؛ ويقول الأخ الصامت «أنا!» ويسخر الاثنان من حَيرة أختهما, وينضَم السنيور داجا. «وأنا!»

لا تُوجَد كئوسٌ كافية للستة جميعًا، فيدور الولد بالزجاجة وكأس، ويصب شيري لكلٍّ منهم، وينتظر برزانة إفراغ الكأس.»

يأتي إلى إيناس. بتجهُّم تُبعِد الكأس. يأمر الولد: «لابد أن تأخذي! أنا الملك اليوم، وآمرك بأنك لا بد أن تأخذي!»

ترشف إيناس رشفةً أنيقة.

يُعلِن الولد «والآن أنا»، وقبل أن يتمكن أحد من إيقافه يرفع الزجاجة إلى شفتَيه ويأخذ جرعةً كبيرة. للحظة يحدِّق في الجمع بانتصار. ثم يشرق ويسعُل ويُغمغِم. يلهث: «إنها فظيعة!» تسقُط الزجاجة من يده؛ وينقذها السنيور داجا بمهارة.

يسقط دييجو وأخوه من الضحك. يصرخ دييجو: «ماذا دهاك أيها الملك الرقيق؟ ألا تحتمل خمرك؟»

يستردُّ الولد أنفاسه. يصرخ: «المزيد! المزيد من النبيذ!»

إذا لم تتحرَّك إيناس، فقد حان دوره، دور سيمون، ليتحرَّك. يقول: «كفى! الوقتُ متأخر، يا ديفيد، وقت انصراف ضيوفنا.»

يقول الولد: «لا! ليس متأخرًا! أريد أن ألعب لعبة. أريد أن ألعب من أنا؟»

يقول داجا: «من أنا؟ كيف تلعبها؟»

– «تتظاهر بأنك شخصٌ آخر ثم يخمِّن كل شخصٍ من أنت. آخر مرة تظاهرتُ بأنني بوليفار وخمَّن دييجو ذلك على الفور، ألم تفعل ذلك يا دييجو؟»

يسأل داجا: «ما الغرامة التي تدفعُها؟ ما الغرامة التي تدفعها إذا خمنا بشكلٍ صحيح؟»

يبدو الولد مرتبكًا.

يسأل داجا: «الطريقة التي اعتدنا أن نلعب بها في سالف الأيام، إذا خمنَّا بشكلٍ صحيح يكون عليك أن تبوح بسرٍّ، بأعزِّ أسرارك.»

يصمت الولد.

تقول إيناس بتخاذُل: «علينا أن ننصرف، لا وقت للعب.»

يقول الولد: «لا! أريد أن ألعب لعبةً أخرى. أريد أن ألعب الحقيقة أو العواقب.»

يقول داجا: «تبدو أفضل. أخبرنا كيف تلعب الحقيقة أو العواقب.»

– «أسألُ سؤالًا وعليكم أن تجيبوا ولا تكذبوا، عليكم قول الحقيقة. إذا لم تقولوا الحقيقة عليكم دفع غرامة. موافقون؟ سأبدأ. دييجو، هل مؤخرتك نظيفة؟»

يخيِّم الصمت. يحمر وجه الأخ الثاني، ثم ينفجر في نوبةٍ هائلة من الضحك.

يضحك الولد ببهجة، ويلفُّ راقصًا. يصيح: «هيا! الحقيقة أو العواقب!»

تستسلم إيناس: «دورة واحدة فقط. ولا مزيد من الأسئلة الوقحة.»

يوافق الولد: «لا أسئلة وقحة. إنه دوري مرةً أخرى. سؤالي موجَّه» — ينظر حول الغرفة، من وجه إلى آخر — «سؤالي موجَّه إلى ... إيناس! إيناس، من أكثر من تُحبين في العالم؟»

– «أنت. أكثر من أحبُّه.»

– «لا، ليس أنا! أي رجل تحبِّينه أكثر في العالم، ليصنع طفلًا في بطنك؟»

يخيِّم الصمت. وتصمت إيناس.

يسأل الولد، وهو يشير إلى الرجال الأربعة في الغرفة: «هل تُحبِّين هذا أم هذا أم هذا أم هذا؟»

يتدخل، سيمون، الرجل الرابع. يقول: «لا أسئلة وقحة. كان هذا سؤالًا وقحًا. المرأة لا تصنع طفلًا مع أخيها.»

– «لماذا لا؟»

– «لا تصنع فقط. ليس هناك لماذا.»

– «هناك لماذا! يمكن أن أسأل السؤال الذي أحبه! إنها لعبة. هل تريدين دييجو أن يصنع طفلًا في داخلك يا إيناس؟ أم تريدين ستيفانو؟»

نيابةً عن إيناس يتدخل مرةً أخرى: «كفى!»

يقف دييجو. يقول: «لنذهب.»

يقول الولد: «لا! الحقيقة أو العواقب! مَن تُحبِّينه أكثر يا إيناس؟»

يلتفت دييجو إلى أخته. «قولي شيئًا، قولي أي شيء.»

تصمت إيناس.

يقال دييجو: «إيناس لا تريد أن تفعل أي شيءٍ مع الرجال. ها، هذه إجابة سؤالك. لا تريد أحدًا منا. تريد أن تكون حرة. والآن لنذهب.»

يقول الولد لإيناس: «هل هذا صحيح. ليس صحيحًا، أليس كذلك؟ وعَدتِ بأنني يمكن أن يكون لي أخ.»

يتدخل مرةً أخرى. «لكل واحد سؤالٌ واحد فقط يا ديفيد. هذه هي القاعدة. سألتَ سؤالك، وحصلتَ على إجابته. كما يقول دييجو، لا تريد إيناس أحدًا منا.»

– «لكنني أريد أخًا! لا أريد أن أكون الابن الوحيد! إنه أمرٌ مُمِل!»

– «إذا كنتَ تريد أخًا حقًّا، اخرج واعثر على واحد بنفسك. ابدا مع فيدل. اعتبر فيدل أخاك. ليس من الضروري أن تأتي الأُخوَّة من الرحم نفسه. ابدأ أُخوَّةً خاصة بك.»

٢٢

– «لا أعرف ما الأخوَّة.»

– «أندهِش لسماع ذلك. إذا اتفق ولدان على أن ينادي كلٌّ منهما الآخر بالأخ، فقد بدأ الأخوَّة. الأمر بهذه البساطة. ويمكن ضمُّ المزيد من الأولاد وجعلُهم أخوَّةً أيضًا. يمكن أن يُقسِم كلٌّ منهم الولاء للآخر ويختاروا اسمًا — أخوَّة النجوم السبعة أو أخوَّة الكهف أو أي شيءٍ من هذا القبيل. حتى أخوَّة ديفيد، إذا أحبَبتَ.»

يُقحِم داجا نفسه: «ويمكن أن تكون أخوَّةً سرية.» تلمع عيناه، ويبتسم ابتسامةً واهية. الولد، الذي استمع إليه، إلى سيمون، بالكاد، يبدو ثابتًا تمامًا. «يمكن أن تُقسِموا قسَم السرِّية. ولا يحتاج أحد أبدًا إلى كشف حقيقة أخوَّتك السريِّين.»

يكسر الصمت. «كفى الليلة. ديفيد، اذهَب وأحضِر بيجامتك. تركتَ دييجو ينتظر وقتًا طويلًا. فكِّر في اسمٍ جيِّد لأخوَّتك. وحين تعود من البنسيون، يمكن أن تدعو فيدل ليكون أخاك الأول.» يلتفت إلى إيناس. «هل تُوافقين؟ هل تقبَلين؟»

٢٣

– «أين الملك؟»

العربة واقفة على رصيف الميناء، فارغة، جاهزة للتحميل، لكن حل مكانَ الملك حصانٌ آخر لم يرَوه من قبلُ، خصيٌّ أسودُ بغُرَّة بيضاءَ على جبهته. وحين يقترب الولد جدًّا منه، يُدحرِج الحصان الجديد عينَيه بعصبية ويضرب الأرض.

– «هاي!» يقول ألفارو للسائس، الذي يجلس غارقًا في مقعده. «أين الفرسُ الكبيرة؟ جاء الصغير مخصوصًا ليراها.»

– «مصابة بإنفلونزا الخيل.»

يقول الولد: «اسمُه الملك. ليس فرسًا. هل يمكنُ أن نزوره.»

تمُر نظرةٌ حَذِرة بين ألفارو والسائس. يقول ألفارو: «الملك في الإسطبلات، يستريح. سيعطيه طبيب الخيل دواء. يمكن أن نزورَه بمجرد أن يتحسَّن.»[١]

– «أريد زيارتَه الآن. أستطيع أن أجعلَه أفضل.»

يتدخَّل سيمون. «ليس الآن، يا ولدي. لنتحدَّث مع إيناس أولًا. ثم يُمكِن أن نقوم نحن الثلاثة برحلة إلى الإسطبلات غدًا.»

يقول ألفارو، ويُرسِل إليه نظرةً لا يعرف كيف يفسِّرها: «الأفضل الانتظار بضعة أيام. لنسمح للملك بفرصةٍ حقيقيةٍ للشفاء. إنفلونزا الخيل شيءٌ سيِّئ، أسوأ من إنفلونزا البشر. مَن يُصاب بإنفلونزا الخيل، يحتاج للراحة والهدوء، لا الزوَّار.»

يقول الولد: «إنه يريد زوَّارًا. يريدني. إنني صديقه.»

---

[١] يستخدم الولدُ ضميرَ المذكَّر للإشارة إلى الفرس، ويردُّ ألفارو باستخدام ضمير المذكَّر رغم أنها فرسٌ أنثى كما تشير الضمائر في الفقرة السابقة.

ينتحي ألفارو بسيمون جانبًا. يقول: «الأفضل ألا تأخذ الطفل إلى الإسطبلات»؛ وهو لا يزال عاجزًا عن الفَهم: «الفرسُ عجوز. وقد ولَّتْ أيامها.»

يقول للولد: «تلقَّى ألفارو للتو رسالةً من طبيب الخيل. قرَّروا إرسال الملك إلى مزرعة الخيول ليتحسَّن أسرع.»

– «ما مزرعة الخيول؟»

– «مزرعة الخيول هي حيث تُولَد الخيول الصغيرة وتذهب الخيول الكبيرة للراحة.»

– «هل يمكن أن نذهب إلى هناك؟»

– «مزرعة الخيول خارج البلدة، لستُ متأكدًا من مكانها بالضبط. سأستفسر.»

حين يتوقف الرجال عن العمل في الساعة الرابعة، لا يُرَى الولد في أي مكان. يقول أحد الرجال: «إنه مضى مع الحمولة الأخيرة. اعتَقدتُ أنك تعرف.»

ينطلق على الفور. يصل إلى مخزن الحبوب والشمسُ تغرُب. المخزن مهجور، والأبواب الهائلة مغلَقة. تُسرِع ضربات قلبه، يبحث عن الولد. يجدُه خلف المخزن، على رصيف التحميل، يُقرفِص بجوار جسد الملك، ويمسَح على رأسها، ويُبعِد الذباب. الحِزام الجِلدي السميك الذي لا بد أنه استُخدِم لرفع الفرس ما زال حول بطنها.

يَسْتلقي على الرصيف. يُهمهِم: «الملك المسكين، المسكين!» ثم ينتبه إلى الدماء المتجلِّطة في أذن الحِصان، وثُقب الرصاصة السوداء فوقها، ويصمت.

يقول الولد: «إنه على ما يُرام. سيكون بخير مرةً أخرى في ثلاثة أيام.»

– «هل هذا ما أخبرك به طبيب الخيول؟»

يهزُّ الولد رأسه. «الملك.»

– «هل أخبرك الملك ذلك بنفسه — ثلاثة أيام.»

يومئ الولد.

– «لكنها ليست إنفلونزا الخيل بالضبط، يا ولدي. يمكن أن ترى بالتأكيد. لقد أطلقَت عليه رصاصة من بندقية، رحمة به. لا بد أنه كان يعاني. كان يعاني وقرَّروا مساعدته. لن يتحسَّن. إنه ميِّت.»

– «لا، ليس ميتًا.» وتنهمر الدموع على وجنتَي الولد. «سيذهب إلى مزرعة الخيول ليكون أفضل. أنت قلتَ ذلك.»

– «أجل، سيذهب إلى مزرعة الخيول، لكن ليس إلى مزرعة الخيول هذه، ليس إلى مزرعة الخيول هنا؛ سيذهب إلى مزرعة خيول أخرى، في عالمٍ آخر. حيث لا يُضطَر إلى وَضْع سَرْج وجَر عربةٍ ثقيلة لكنه يمكن أن يتجوَّل في الحقول في أشعَّة الشمس ويأكُل العشب.»

– «ليس صحيحًا! سيذهب إلى مزرعة الخيول ليكون أفضل. سيضعونه على عربة ويأخذونه إلى مزرعة الخيول.»

ينحني الولد ويضغط فمَه على الأنف الواسع للفرَس. بسرعة يُمسِك الولد من ذراعه ويُبعِده. «لا تفعل ذلك! ليس صحيًّا! سوف تمرض!»

يتخلَّص الولد منه. ينفجر في البكاء. ينتحب: «سوف أنقذه! إنه صديقي!»

يُسيطِر على الولد الذي يُقاوِم ويُمسِكه بإحكام. يا عزيزي، يا أعزَّ طفل، أحيانًا يموتُ من نُحبهم ولا يكون هناك ما يُمكِن أن نفعلَه لهم إلا أن نتطلع إلى اليوم الذي نكون فيه معهم مرةً أخرى.»

يقول الولد: «أريد أن أجعلَه يتنفَّس!»

– «إنه حِصان، إنه أكبر من أن تنفُث فيه الحياة.»

– «يمكنك إذن أن تنفُث فيه!»

– «لن يُفيد ذلك، ليس لديَّ النوع الصحيح من النفس. ليس لديَّ نفس الحياة. كل ما يُمكِن أن أفعلَه أن أحزن. كل ما يمكن أن أفعلَه الأسى عليه ومساعدتُك في الأسى عليه. والآن بسرعة قبل أن يحلَّ الظلام، لماذا لا نذهب أنت وأنا إلى النهر ونبحث عن بعض الزهور ونضعها على الملك؟ سيُحب ذلك. كان حِصانًا لطيفًا، أليس كذلك، رغم أنه كان ضخمًا. سوف يستمتع بالوصول إلى مزرعة الخيول وإكليل من الزهور حول عنقه.»

هكذا يقنع الولد بالابتعاد عن الجسد الميت، ويقوده إلى شاطئ النهر، ويُساعِده في التقاط بعض الزهور ونَسجِها في إكليل. يعودان؛ يضع الولدُ الإكليل على الميت، وعيناه تحدِّقان.

يقول: «ها. الآن لا بد أن نترك الملك. أمامه رحلةٌ طويلة عليه أن يقطعَها، الطريق كله إلى مزرعة الخيول العظيمة. حين يصل، سوف تهتم الخيول الأخرى بتاج الزهور الذي عليه، ويقول كلٌّ منهم للآخر: «لابد أنه كان ملكًا من حيث أتى! لا بد أنه كان الملك العظيم الذي سمعنا عنه، صديق ديفيد.»

يأخذ الولد يدَه. تحت سطوع البدر يعودان بطول الممر إلى أحواض السفن.

يسأل الولَد: «هل الملك ينهَض الآن، في اعتقادك؟»

– «إنه ينهَض، إنه يهزُّ نفسَه، ويصهل صهيلَه الذي تعرفه، وينطلق، ويخب، باتجاه حياته الجديدة. نهاية البكاء. لا مزيد من البكاء.»

يقول الولد: «لا مزيد من البكاء»، وينتعش، ويبتسم حتى ابتسامةً مرحةً ضئيلة.

٢٤

يشترك هو والولد في عيد الميلاد؛ لأنهما وصلا على السفينة نفسها في اليوم نفسه وحدِّد تاريخ ميلادهما في تاريخ وصولهما المشترك، دخولهما المشترك إلى حياةٍ جديدة. وحُكم بأن الولد عمره خمس سنوات لأنه بدا أن عمره خمس سنوات، بالضبط كما حُكم بأنه في الخامسة والأربعين (كما تقول بطاقته) لأن هذا هو العمر الذي بدا عليه في ذلك اليوم (اغتاظ؛ كان يشعر بأنه أصغر. والآن يشعر بأنه أكبر. يشعر بأنه في الستين؛ ويشعر في بعض الأيام بأنه في السبعين).

وحيث إن الولد ليس له أصدقاء، ولا حتى صديق حصان، لا معنى لإعداد حفلة عيد ميلاد له. ومع ذلك، يتفق هو وإيناس على ضرورة الاحتفال بذلك اليوم بالشكل المناسب. وهكذا تُعِد إيناس كعكة وتبرِّدها وتَغرِس فيها ست شمعات، ويشتريان سرًّا هدايا له، تشتري له سويتر (الشتاء على الأبواب)، ويشتري له مِعْدادًا[١] (إنه قَلِق من مُقاومة الولَد لعلم الأرقام).

تلقي رسالةً بظلالها على الاحتفال بعيد الميلاد، رسالة بالبريد، تذكِّره أن ديفيد في عيد ميلاده السادس ينبغي أن يسجِّل في مدرسةٍ عامة، وتقع مسئولية التسجيل على أبيه (أبوَيه) أو وَلِيِّ أمره (وَليَّي أمره).

حتى الآن كانت إيناس تشجِّع الولد على الاعتقاد بأنه أذكى من أن يحتاج إلى التعليم في مدرسة، وأن الدرس الضئيل الذي قد يحتاج إليه يمكن أن يتلقَّاه في البيت. لكن عناده مع دون كيخوته، زعمه بأنه قادر على القراءة والكتابة والعَد وهو لا يستطيع بوضوح، زرَع

[١] إطار مستطيل به صفوف من الأسلاك أو الأخاديد، يُوضَع فيه خرز، ويستخدم للعَد.

الشك حتى في عقلها. تعترف الآن بأنه ربما يكون من الأفضل له أن يخضع لتوجيه معلِّم مدرِّب. وهكذا يشتريان له هديةً ثالثةً مشتركة، حقيبةً جلديةً حمراءَ مختومًا على ركنٍ منها الحرف الأول من اسمه «د» بالذهب، تحتوي على قلمَي رصاص، وبرَّاية وممحاة. يُهدِيانها له مع المِعداد والسويتر، في يوم عيد ميلاده. يقولان له إن الحقيبة، هديَّته المدهِشة، تُرافِق الخبر السعيد المدهش بأنه عن قريب، ربما في الأسبوع القادم، سيذهب إلى مدرسة.

يستقبل الولد الخبر ببرود. يقول: «لا أريد أن أذهب مع فيدل. يُطمئِنانه: لا بد أن يكون فيدل؛ لأنه أكبر منه، في فصلٍ مختلف. يقول: «وأريد أن آخذ دون كيخوته معي.»

يحاول إثناء الولد عن أخذ الكتاب إلى المدرسة. يقول إنه ملك مكتبة البلوكات الشرقية؛ إذا ضاع لا يعرف كيفية استبداله. بالإضافة إلى ذلك، المدرسة ملتزمة بأن تكون لها مكتبتُها الخاصة بنُسختها الخاصة من الكِتاب. لكن الولد لا يقبل شيئًا من هذا.

يأتي يوم الإثنين مبكرًا إلى الشقة ليصطحب إيناس والولَد إلى المحطة حيث يستقل الباص الذي يأخذه في أول أيام المدرسة. يرتدي الولد السويتر الجديد، ويحمل الحقيبة الجلدية الحمراء التي عليها الحرف الأول من اسمه «د»، ويُمسِك بنسحة دون كيخوته البلوكات الشرقية تحت ذراعه. فيدل بالفعل في محطة الباص، مع نصف دستة من الأطفال الآخرين من البلوكات. بتباهٍ لا يحيِّيه ديفيد.

لأنهما يريدان أن يبدو الذهاب إلى المدرسة جزءًا من حياةٍ عادية، يتفقان على ألا يضغطا على الولد بحكاياتٍ عن الفصل؛ ويبقى من جانبه صامتًا بشكلٍ غيرِ معتاد. يجرؤ على السؤال في اليوم الخامس: «هل سارت الأمور بشكل جيد في المدرسة؟» — يرُد الولد: «أوه-هوه.» — «هل صار لك أصدقاء في المدرسة؟» لا ينوي الولَد الرد.

هكذا يستمر الحال لثلاثة أسابيع، أربعة أسابيع. ثم تصل رسالة بالبريد، عليها عنوانُ المدرسة في الركن العلوي الأيسر. عنوانها «اتصال استثنائي»، تدعو والد (والدَي) التلميذ المقصود للاتصال بسكرتيرة المدرسة في أقرب فرصة له/لها/لهما لتحديد موعد للتشاوُر مع معلِّمِ الفصلِ المعنيِّ لتناول مسائلَ معيَّنة أثيرَت تتعلق بابنه/ابنته/ها/هم.

تتصل إيناس بالمدرسة تليفونيًّا. تقول: «أنا فاضية طول اليوم. حدِّدي الوقت الذي أكون فيه عندك.» تقترح السكرتيرة الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، في فترة راحة السنيور ليون. وتضيف: «سيكون من الأفضل إذا حضَر والد الولَد أيضًا.» ترُد إيناس: «ابني ليس له أب. سأطلب من عمِّه أن يأتي معي. عمُّه مهتَم به.»

يتبيِّن أن السنيور ليون، مدرس الصف الأول، شابٌّ طويل ونحيل بلحيةٍ سوداء وعينٍ واحدة فقط. العين الميِّتة، مصنوعة من الزجاج، لا تتحرك في محجرها؛ يتساءل سيمون ما إن كان الأطفال يجدون ذلك مزعجًا.

يقول السنيور ليون: «ليس لديَّ إلا وقتٌ قصير، وبالتالي سأتحدث مباشرة. أجد أن ديفيد ولدٌ ذكي، ذكيٌّ جدًّا. له عقلٌ بارع؛ يستوعب الأفكار الجديدة على الفور. لكنه يجد صعوبةً في التأقلم مع واقع الفصل. يتوقَّع أن يفعل ما يشاء طول الوقت. ربما لأنه أكبر قليلًا من متوسِّط الأعمار في الفصل. أو ربما اعتاد في البيت أن يتصرَّف كما يشاء بسهولةٍ شديدة. على أية حال، هذا ليس تطوُّرًا إيجابيًّا.

يتوقَّف السنيور ليون، يضع أصابعَ يدٍ أمام أصابعِ الأخرى، طرفٌ لطرف، وينتظر ردَّهما.

تقول إيناس: «ينبغي أن يكون الطفل حرًّا. ينبغي أن يستطيع الطفل الاستمتاع بطفولته. كانت لديَّ شكوكٌ بشأن إرسال ديفيد إلى المدرسة في هذه السن الصغيرة.»

يقول السنيور ليون: «في السادسة ليس صغيرًا على الذهاب إلى المدرسة. على العكس.»

– «على أية حال إنه طفل، ومعتاد على حريته.»

يقول السنيور ليون: «الطفل لا يتخلى عن حريته بالحضور إلى المدرسة. لا يتخلى عن حريته بالجلوس ساكنًا. لا يتخلى عن حريته بالاستماع إلى ما يقوله المدرِّس. الحرية لا تتعارض مع الانضباط والعمل الجاد.»

– «ألا يجلس ديفيد ساكنًا؟ ألا يستمع إلى ما تقوله؟»

– «إنه متوتِّر، ويجعل الأطفال الآخرين متوتِّرين أيضًا. يترك مقعده ويتجوَّل. ويترك الفصل بدون إذن. ولا، لا ينتبه لما أقوله.»

– «غريبة. في البيت لا يتجول. إذا كان يتجوَّل في المدرسة، فلابد أن هناك سببًا لذلك.»

تحدِّق عينُه الوحيدة في إيناس.

– «وبالنسبة للتوتُّر، كان على هذا النحو دائمًا. لا يحصل على كفايته من النوم.»

يقول السنيور ليون: «سوف يشفيه اتباع نظامٍ غذائيٍّ خفيف. لا توابل. لا منبِّهات. آتي الآن إلى التفاصيل. في القراءة، بشكلٍ محزن لا يُحرِز ديفيد أيَّ تقدُّم، لا يُحرِز إطلاقًا. الأطفال الآخرون غير الموهوبين بشكلٍ طبيعي يقرءون أفضل منه. أفضل بكثير. هناك شيءٌ بشأن عملية القراءة يبدو أنه عاجزٌ عن فهمه. والأمر نفسه بالنسبة للأرقام.»

يتدخَّل سيمون: «لكنه يُحب الكتب. لا بد أنك رأيتَ ذلك. يحمل دون كيخوته معه أينما يذهب.»

يرد السنيور ليون: «إنه يتشبَّث بالكتاب لأن فيه صورًا. والقراءة من كُتب فيها صور، عمومًا، ليست ممارسةً جيدة. الصور تشتِّت العقل بعيدًا عن الكلمات. ودون كيخوته، مهما قد يُقال عنه، ليس كتابًا للقُراء المبتدئين. يتحدث ديفيد الإسبانية بشكل ليس سيئًا، لكنه لا يستطيع القراءة. لا يستطيع حتى نُطق حروف الأبجدية. لم أواجه قط مثل هذه الحالة الشديدة. أود أن أقترح أن عليكما الاتصال بأخصائي، بمعالج. لديَّ شعور — وزملائي الذين شاورتُهُم يشاركونَني الشعور نفسه — بوجود خلل.»

– «خلَل؟»

– «خلَل معيَّن يرتبط بالأنشطة الرمزية. في التعامل مع الكلمات والأرقام. لا يستطيع أن يقرأ. لا يستطيع أن يكتب. لا يستطيع أن يعُد.»

– «في البيت يقرأ ويكتب. ويقضي ساعاتٍ في ذلك يوميًّا. إنه مستغرقٌ في القراءة والكتابة. ويستطيع العَد إلى ألف، مليون.»

يبتسم السنيور ليون للمرة الأولى. «يستطيع أن يسرد كل أنواع الأرقام، أجل، لكن ليس بالترتيب الصحيح. وبالنسبة للعلامات التي يصنعها بقلمه الرصاص، قد تسمِّينها كتابة، قد يسمِّيها كتابة، لكنها ليست كتابة كما يُفهَم عمومًا. لا يمكن أن أحكم إن كان لها معنًى خاص. ربما لها. ربما تدل على موهبةٍ فنية. وهو سببٌ ثانٍ وأكثر إيجابيةً لعرضه على أخصائي. ديفيد ولدٌ مثير. من المؤسف أن نَفقِده. قد يستطيع الأخصائي أن يُخبرنا بما إن كان هناك عاملٌ مشترك ينتُج عنه الخلَل من ناحية وعلى التدخل من الناحية الأخرى.»

يرن الجرس. يأخذ السنيور ليون دفترًا من جيبه، يكتب فيه بسرعة، ويقطع الصفحة. «هذا اسم أخصائيةٍ أقترحُها، ورقم تليفونها. تزور المدرسة مرةً في الأسبوع، وبالتالي يمكن أن ترَيْها هنا. اتصلي تليفونيًّا وحدِّدي موعدًا. وفي أثناء ذلك، يواصل ديفيد وأنا جهودنا. شكرًا لحضوركما لرؤيتي. أنا متأكد من أن النتيجة ستكون طيبة.»

يبحث عن إيلينا، ويُخبرها بالمقابلة. يسأل: «هل تعرفين السنيور ليون عمومًا؟ هل كان مُدرِّس فيدل؟ أجد صعوبة في تصديق شكاواه. بأن ديفيد عاصٍ، على سبيل المثال. قد يكون عنيدًا أحيانًا، لكنه ليس عاصيًا، ليس في خبرتي به.»

لا ترُد إيلينا، لكنها تنادي فيدل من الغرفة. «فيدل، حبيبي، حدِّثنا عن السنيور ليون. يبدو أنه هو وديفيد غير منسجمَين، وسيمون قَلِق.»

يقول فيدل: «السنيور ليون على ما يُرام. إنه صارم.»

– «هل هو صارم مع الأطفال الذي يتحدَّثون بدون إذن؟»

– «أعتقد ذلك.»

– «لماذا هو وديفيد غير منسجمَين في اعتقادك؟»

– «لا أعرف. ديفيد يقول أشياءَ مجنونة. ربما السنيور ليون لا يُحبها.»

– «أشياء مجنونة؟ أي أشياءَ مجنونة؟»

– «لا أعرف ... إنه يقول أشياءَ مجنونة في الملعب. يعتقد الجميع أنه مجنون، حتى الأولاد الكبار.»

– «لكن أي نوع من الأشياء المجنونة؟»

– «يستطيع أن يجعل الناس يختفون. يستطيع أن يختفي. يقول إن هناك براكينَ في كل مكانٍ لا نستطيع رؤيتها، يراها وحده.»

– «براكين؟»

– «ليست براكينَ كبيرة، براكين صغيرة. لا يمكن لأحدٍ رؤيتها.»

– «ربما يرعب الأطفال الآخرين بقصصه؟»

– «لا أعرف. يقول إنه سيكون ساحرًا.»

– «كان يقول ذلك منذ زمن طويل. أخبَرني أنك وهو ستقيمان سيركًا ذات يوم. يقوم بحيلٍ سحرية وتكون أنت بهلوانًا.»

يتبادل فيدل وأمه النظرات.

تقول إيلينا: «فيدل سيكون موسيقارًا، لا ساحرًا، أو بهلوانًا. فيدل، هل أخبرتَ ديفيد أنك ستكون بهلوانًا؟»

يقول فيدل «لا»، وينقلب بشكلٍ غير مريح.

تتم المقابلة مع الأخصائية النفسية في مبنى المدرسة. تبدأ في غرفةٍ جيدةٍ الإضاءة معقَّمة إلى حدٍّ ما؛ حيث تعقد السنيورة أوتكسوا استشاراتها. تقول وهي تبتسم وتمُد يدها: «صباح الخير. أنتما والدا ديفيد. قابلتُ ابنكما. تحدَّثنا هو وأنا طويلًا، عدَّة مرات. يا له من فتًى مثيرٍ للاهتمام!»

يقاطع: «قبل أن نبدأ مهمتنا، اسمحي لي أن أوضِّح من أنا. رغم أنني أعرف ديفيد من وقتٍ طويل، وكنتُ ذات يوم وصيًّا عليه، لستُ والده. ومع ذلك ...»

ترفع السنيورة أوتكسوا يدها. «أعرف. أخبرني ديفيد. يقول ديفيد إنه لم يقابل قطُّ أباه الحقيقي. ويقول أيضًا» — وهنا تلتفت إلى إيناس — «إنكِ لستِ أمَّه الحقيقية. لنُناقش هذه القناعات الخاصة به قبل أي شيءٍ آخر؛ لأنه رغم أن العوامل العضوية قد تكون مؤثِّرة،

عُسر القراءة — على سبيل المثال — إحساسي أن السلوك غير المستقر لديفيد في الفصل — بالنسبة للطفل — ينتُج من وضعٍ أُسريٍّ غامض؛ من الشك في حقيقته، من أين يأتي.»

يتبادل هو وإيناس النظرات. يقول: «تستخدمين كلمة حقيقي. تقولين إننا لسنا أمه الحقيقية وأباه الحقيقي. ماذا تقصدين بالضبط بحقيقي؟ من المؤكَّد أنه يُوجَد شيءٌ يفوق البيولوجي.»

تزمُّ السنيورة أوتسكوا شفتَيها، وتهزُّ رأسها. «لتسمحا لي بألا نصبح نظريين جدًّا. لنركِّز على خبرة ديفيد وفهم ديفيد للحقيقي. أعتقد أن الحقيقي هو ما يفتقده ديفيد في حياته. وخبرة افتقاد الحقيقة تشمل خبرة افتقاد الأبوَين الحقيقيَّين. ليس لديفيد ملاذٌ في حياته. ومن هنا يأتي انعزالُه وتراجعُه إلى عالمٍ خيالي يشعُر أنه يسيطر عليه أكثر.»

تقول إيناس: «لكنَّ له ملاذًا. أنا ملاذه. أنا أحبُّه. أحبُّه أكثر من الدنيا. وهو يعرف ذلك.»

تومئ السنيورة أوتكسوا. «يعرف في الحقيقة. أخبَرني كم تُحبينه — كم تُحبانه. يُسعِده ودُّكما تُجاهه؛ ويشعُر بأعظم ودٍّ بدوره، تجاهكما. ومع ذلك، ما زال هناك شيءٌ مفتقَد، شيء لا يمكن أن يقدِّمه الودُّ أو الحب؛ لأنه رغم أن البيئة العاطفية الإيجابية مهمةٌ إلى حدٍّ كبير، فإنها لا يمكن أن تكون كافية. إنها مختلفة، الافتقاد إلى وجودٍ أبويٍّ حقيقي، هو ما أدعو إلى مناقشته معكم اليوم. تسألان لماذا؟ لأنني أشعُر، كما أقول، أن صعوبات التعلُّم عند ديفيد نابعة من العالَم الذي تلاشى فيه أبواه، عالَم لا يعرف كيف وصل إليه.»

يعترض: «ديفيد وصل بسفينة، مثل غيره. من السفينة إلى المعسكر، ومن المعسكر إلى نوفيلا. لا أحد منا يعرف أكثر من ذلك عن أصولنا. تخلَّصنا جميعًا من الذاكرة، تقريبًا. وبالتالي ماذا يميِّز حالة ديفيد؟ وما علاقة هذا كله بالقراءة والكتابة، بمشاكل ديفيد في الفصل؟ ذكَرتِ عُسر القراءة. هل ديفيد يُعاني من عُسر القراءة؟»

– «ذكرتُ عسر القراءة بوصفه احتمالًا. لم أُجرِ اختباراتٍ عليه. لكنه إذا كان موجودًا حقًّا، فهو في ظني مجرَّد عاملٍ مساهم. لا، وبالنسبة لسؤالك الرئيسي، يمكن أن أقول إن ما يميِّز ديفيد هو شعوره بأنه مميَّز، وحتى شاذ. بالطبع إنه ليس شاذًّا. وبالنسبة لكونه مميزًا، لنترك السؤال جانبًا الآن. وبدلًا من ذلك، لنبذل، نحن — الثلاثة — جهدًا لرؤية العالم من خلال عينَيه، بدون أن نفرض عليه طريقة رؤيتنا للعالَم. يريد ديفيد أن يعرف مَن هو حقًّا، لكنه حين يسأل يتلقى إجاباتٍ مراوغةً من قبيل «ماذا تعني بالحقيقي؟» أو

«ليس لنا، لأيٍّ منا، تاريخ، لقد تخلَّصنا منه.» هل يمكن أن تلُومَه إذا شعر بأنه محبَط ومتمرِّد، ثم تراجع إلى عالَمٍ خاص حيث يكون حرًّا في اختلاق إجاباته الخاصة؟»

– «هل تقولين لنا إن الصفحات غير المقروءة التي يكتبها للسنيور ليون قصصٌ عن المكان الذي يأتي منه؟»

– «نعم ولا. إنها قصصٌ لنفسه، وليست لنا. وهذا ما يجعلُه يكتبها بخطٍّ خاص.»

– «كيف تعرفين إذا كنتِ لا تستطيعين قراءتَها؟ هل فسَّرها لك؟»

– «سنيور، لتقوى علاقة ديفيد معي من المهم ليعتمد عليَّ في عدم الكشف عما يدور بيننا. حتى الطفل له الحق في أن تكون له أسرارُه الصغيرة. لكن من الأحاديث التي دارت بين ديفيد وبيني، أجل، أعتقد أنه يرى أنه يكتب قصصًا عن نفسه وعن أصله الحقيقي. ونتيجة الاهتمام بكما، بكلَيكما، يُخفيها، خشية أن تنزعجا.»

– «وما أصله الحقيقي؟ من أين، طبقًا له، يأتي حقًّا؟»

– «لا يحق لي أن أقول. لكن هناك مسألة تتعلق برسالةٍ معيَّنة. يتحدث عن رسالة تحتوي على اسمَي والديه. يقول إنك، يا سنيور، تعرف الرسالة. هل هذا صحيح؟»

– «رسالة ممن؟»

– «يقول إنه كانت معه رسالة حين وصل على السفينة.»

– «آه، تلك الرسالة! لا، أنتِ مخطئة، فُقدَت الرسالة قبل أن نصل إلى الشاطئ. فُقدَت في أثناء الرحلة. لم أرَها قَط. ولأنه فقد الرسالة تحمَّلتُ مسئوليةَ مساعدتِه في العثور على أمه. وإلا بقي في بلستار، في طيِّ النسيان.»

تكتب السنيورة أوتكسوا ملاحظةً قوية لنفسها في دفترها.

تقول وهي تضع القلم: «نأتي الآن إلى المشكلة العملية بشأن سلوك ديفيد في الفصل. عصيانه. فشله في إحراز تقدُّم. عواقب عدم التقدُّم، والعصيان، بالنسبة للسنيور ليون والأطفال الآخرين في الفصل.»

– «عصيان؟» ينتظر إيناس لتُضيف صوتها، لكنها لا تُضيف، تترك له الكلام. «في البيت، يا سنيورة، ديفيد مؤدب دائمًا ويتصرف بشكل جيد. أجد صعوبة في تصديق هذه التقارير من السنيور ليون. ماذا يعني بالضبط بالعصيان؟»

– «يعني التحدِّيَ المستمر لسلطاته بوصفه مُدَرِّسًا. يعني رفضَ قبولِ التوجيه. وهو ما يذهب بي إلى النقطة الرئيسية. أودُّ أن أقترح سحب ديفيد من الفصل المنتظم، حاليًّا على الأقل، وإلحاقه بدلًا من ذلك في برنامج للدراسة مُعَد لاحتياجاته الخاصة؛ حيث يمكن أن

يتقدَّم بسرعته الخاصة، واضعين في الاعتبار وضعَه العائليَّ الصعب. حتى يكون مستعدًّا للانضمام مرةً أخرى إلى فصله. وأنا واثقة من أنه سوف يكون قادرًا على القيام بذلك؛ حيث إنه طفلٌ ذكيٌّ بعقلٍ حادٍّ.»

– «وهذا البرنامج للدراسة ...؟»

– «البرنامج الذي في ذهني يتم في مركز التعليم الخاص في بونتو أريناس، ليس بعيدًا عن نوفيلا، على الساحل، في موقعٍ جذَّاب جدًّا.»

– «كم يبعُد؟»

– «خمسين كيلومترًا تقريبًا.»

– «خمسين كيلومترًا! إنه سفرٌ طويلٌ بالنسبة لطفلٍ صغيرٍ يقوم به يوميًّا، ذهابًا وعودة. هل يُوجَد باص؟»

– «لا. سوف يقيم ديفيد في مركز التعليم، ويقضي عطلة نهاية الأسبوع كل أسبوعَين في البيت، إذا اختار ذلك. في خبرتنا من الأفضل أن يكون الطفل مقيمًا. يسمح له هذا ببُعدٍ معيَّن عن الوضع المنزلي الذي قد يكون مساهمًا في المشكلة.»

يتبادل هو وإيناس النظرات. يقول: «وماذا إذا رفضنا؟ وماذا إذا فضَّلنا أن يبقى في فصل السنيور ليون؟»

تتدخل إيناس الآن ويرتفع صوتها: «ماذا إذا فضَّلنا أن نُخرجَه من هذه المدرسة التي لا يتعلم فيها شيئًا؟ حيث إنه صغير جدًّا على أن يكون فيها على أية حال. هذا هو السبب الحقيقي في أنه يجد صعوبة. إنه صغيرٌ جدًّا.»

– «لم يعُد السنيور ليون على استعداد لأن يكون ديفيد في فصله، وبعد إجراء استفساراتي يمكن أن أعرف السبب. وبالنسبه لعمره، ديفيد في العمر العادي للذهاب إلى مدرسة. سنيور، سنيورة، أنا أقدِّم نصيحتي ومصالحُ ديفيد في ذهني. إنه لا يُحرِز أي تقدُّم في المدرسة. إن تأثيره تخريبي. إخراجه من المدرسة والعودة به إلى بيئة البيت التي يجدُها غيرَ مستقرة لا يمكن أن يكون الحل؛ وبالتالي لا بد أن نأخذ خطوةً بديلةً أكثر جرأة. ولهذا أُوصي ببونتو أريناس.»

– «وإذا رفضنا؟»

– «سنيور، أتمنى ألا أعبِّر عنها بهذه المصطلَحات. ما أقوله هو الصحيح، بونتو أريناس الاختيار الأفضل أمامنا. إذا وددتِ سنيورة إيناس زيارة بونتو أريناس مُقدَّمًا، يمكن أن أرتِّب ذلك، وبالتالي يمكن أن ترَيا بنفسَيكما أنه معهد من الطراز الأول.»

– «لكن إذا زرنا هذا المعهد ورفَضنا، ماذا بعدُ؟»

– «ماذا بعدُ؟» تَفرِد السنيورة أوتكسوا يدَيها في إشارة إلى اليأس. «قلتَ لي في بداية هذه الاستشارة إنكَ لستَ والد الطفل. ولا يُوجَد شيءٌ في أوراقه عن أصله، أصله الحقيقي. أود أن أقول ... أود أن أقول إن صلاحياتِكَ لإملاء أين ينبغي أن يتلقَّى تعليمه ضعيفةٌ جدًّا.»

– «وهكذا سوف تُبعدين طفلنا عنا.»

– «من فضلك لا تنظر إلى الأمر بهذه الطريقة. نحن لا نُبعِد الطفل عنكما. سوف ترَيَانه بانتظام كل أسبوعَين. ويبقى بيتُكُما بيته. وعمليًّا تبقَيان والدَيه، إلا إذا قرَّر أنه يودُّ الانفصالَ عنكما. وهو لا يُشير إلى ذلك بأية وسيلة. على العكس، إنه مُغرَمٌ بكما جدًّا، بكلَيكما — مغرَمٌ بكما ومرتبطٌ بكما.

أكرر، بونتو أريناس في رأيي الحل الأفضل للمشكلة التي نُواجِهُها، وحلٌّ سخيٌّ أيضًا. فكِّرا فيه. خذا وقتَكُما. زورا بونتو أريناس، إن أحببتُما. ثم، مع السنيور ليون، يمكن أن نُناقِش التفاصيل.»

– «وفي أثناء ذلك؟»

– «في أثناء ذلك أقترح أن يذهب ديفيد إلى البيت معكما. لن يفيده أن يكون في فصل السنيور ليون، وبالتأكيد لن يستفيد زملاؤه.»

٢٥

– «لماذا نعود إلى البيت مبكرًا؟»

إنهم، ثَلاثتُهم، في الباص، عائدون إلى البلوكات.

تقول إيناس: «لأنه كان خطأ تمامًا. إن الأولاد في فصلك كبارٌ جدًّا بالنسبة لك. وذلك المدرس، السنيور ليون، لا يعرف كيف يدرِّس.»

– «للسنيور ليون عينٌ سحرية. يمكن أن يُخرِجَها ويضعَها في جيبه. رآه أحد الأولاد.»

تصمت إيناس.

– «هل أعود إلى المدرسة غدًا؟»

– «لا.»

يتدخل: «لنكونَ محدَّدين، لن تعود إلى مدرسة السنيور ليون. أمك وأنا سوف نناقش نوعًا آخر من المدارس بالنسبة لك. ربما.»

تقول إيناس: «لن نناقش أيةَ مدارسَ أخرى. كانت المدرسة فكرةً سيئةً منذ البداية. لا أعرف كيف سمحتُ بذلك. ماذا كانت المرأة تقول عن عُسر القراءة؟ ما عُسر القراءة؟»

– «عدم القدرة على قراءة الكلمات بالشكل الصحيح. عدم القدرة على القراءة من اليسار إلى اليمين. شيء من هذا القبيل. لا أعرف.»

يقول الولد: «لم أُصَب بعُسر القراءة. لم أُصَب بأي شيء. هل يرسلونني إلى بونتو أريناس؟ لا أريد أن أذهب.»

يقول: «ماذا تعرف عن بونتو أريناس؟»

– «بها أسلاكٌ شائكة وعليك أن تنام في عنبر ولا يُسمَح لك بالعودة إلى البيت.»

تقول إيناس: «لن تُرسَل إلى بونتو أريناس. لن تُرسَل طالما كنتُ على قَيْد الحياة.»

يسأل الولَد: «هل ستموتين؟»

– «لا، بالطبع لا. إنها مجرد طريقة في التعبير. لن تذهب إلى بونتو أريناس.»

– «نسيتُ كتابي. كتاب الكتابة. إنه في دُرجي. هل يُمكِن أن نعود ونُحضِره؟»

– «لا. ليس الآن. سوف أُحضِره في يومٍ آخر.»

– «وجرابي.»

– «جراب القلم الرصاص الذي أعطيناه لك في عيد ميلادك؟»

– «أجل.»

– «سوف أُحضِره أيضًا. لا تقلق.»

– «هل يريدون إرسالي إلى بونتو أريناس بسبب قصصي؟»

يقول: «إنهم لا يريدون إرسالك إلى بونتو أريناس. الأرجح أنهم لا يعرفون ماذا يفعلون معك. أنت ولدٌ استثنائي، ولا يعرفون ماذا يفعلون مع الأطفال الاستثنائيين.»

– «لماذا أنا استثنائي؟»

– «ليس سؤالًا تسأله. أنت استثنائي وفقط، وعليك أن تعيش مع هذه الحقيقة. تجعل طريقك أسهل أحيانًا، وأصعب أحيانًا. وهذه حالة من الحالات التي تجعله أصعب.»

– «لا أريد أن أذهب إلى المدرسة. لا أُحِب المدرسة. أستطيع أن أعلِّم نفسي.»

– «لا أعتقد ذلك يا ديفيد. أعتقد أنك كنتَ تُعلِّم نفسك كثيرًا منذ فترة. هذه نصف المشكلة. المطلوب مزيد من التواضُع، مزيد من الاستعداد للتعلم من الآخرين، هذا هو المطلوب.»

– «يمكنك أن تعلمني.»

– «شكرًا. لطفٌ شديدٌ منك. كما قد تتذكَّر، عرَضتُ أن أعلِّمك عدة مراتٍ في الماضي، وكنتَ ترفُض. لو كنتَ قد سمحتَ لي بأن أعلِّمَك القراءة والكتابة والعَد بالطريقة العادية، ما كنا عانَينا من هذه الفوضى.»

تُدهِش قوة انفجاره الولد: يلقي عليه نظرةً مباغتةً مؤلمة.

ويضيف بسرعة: «لكن لنترك هذا كله وراءنا. سنبدأ صفحةً جديدة، أنت وأنا.»

– «لماذا لا يُحبني السنيور ليون؟»

– تقول إيناس: «لأنه مغرورٌ جدًّا.»

يقول: «السنيور ليون يُحبك. لديه فقط فصلٌ كامل عليه أن يعلِّمه، وليس لديه وقتٌ ليُوليَك اهتمامًا شخصيًّا. يتوقع أن يعمل الأطفال بأنفسهم لبعض الوقت.»

– «لا أحب العمل.»

– «علينا جميعًا أن نعمل؛ وبالتالي من الأفضل أن تعتاد عليه. العمل جزءٌ من قدَر الإنسان.»

– «لا أحب العمل. أحب اللعب.»

– «أجل، لكن لا يمكن أن تلعب طولَ الوقت. وقت اللعب بعد انتهاء عمل اليوم. يتوقع السنيور ليون منك، حين تصل إلى فصله في الصباح، أن تعمل. وهذا معقولٌ تمامًا.»

– «السنيور ليون لا يُحب قصصي.»

– «لا يمكن ألا يُحبها، لأنه لا يمكن أن يقرأها. ما نوع القصص التي يُحبها؟»

– «قصص عن العطلات. عما يفعله الناس في العطلات. ما العطلات؟»

– «العطلات هي أيام الفراغ، الأيام التي لا يكون عليك أن تعمل فيها. وقد أُعطيتَ عطلة لتستريح اليوم. ليس عليك القيام بأية دراسةٍ أخرى.»

– «وغدًا؟»

– «غدًا ستتعلم القراءة والكتابة والعَد مثل شخصٍ عادي.»

يقول لإيناس: «سأكتب رسالةً للمدرسة، لأُبلغَهم رسميًّا بأننا نسحَب ديفيد. بأننا سنهتم بتعليمه بأنفسنا. هل توافقين؟»

– «أجل. وأنت تفعل ذلك، اكتُب للسنيور ليون أيضًا. اسأله عما يفعلُه، تعليم الأطفال الصغار. أخبِره بأنها ليست مهنة الرجل!»

يكتب: «السنيور ليون المبجَّل.

شكرًا لك على تقديمنا للسنيورة أوتكسوا.

اقترحَت علينا السنيورا أوتكسوا نقل ابننا ديفيد إلى مدرسةٍ خاصة في بونتو أريناس.

بعد تفكيرٍ متأنٍّ رفضنا هذه الخطوة. ديفيد، في رأينا، أصغر من أن يُبعَد عن والدَيه. ونحن أيضًا نشُك في أنه سيتلقى الاهتمام المناسب في بونتو أريناس. وبالتالي سنعلِّمه في البيت. لدينا أمل في أن تكون صعوبات التعليم التي يعاني منها شيئًا من الماضي بسرعة. إنه — كما تعترف — طفلٌ متألقٌ يتعلم بسرعة.

نشكُرك على جهودك نيابةً عنه. تتضمن الرسالة نسخة من الرسالة التي أرسلناها إلى مدير مدرستك لإخطاره بالانسحاب.»

لا يتلقيان ردًّا. بدلًا من ذلك يصل بالبريد نموذج من ثلاث صفحات لملئه للالتحاق ببونتو إريناس، بالإضافة إلى قائمة بالملابس والمتطلبات الشخصية (فرشاة أسنان، معجون أسنان، مشط) ينبغي أن يُحضِرها التلميذ الجديد، وتصريح للباص. يتجاهلان هذا كله.

ثم تأتي مكالمةٌ تليفونية، ليست من المدرسة أو بونتو أريناس، لكن، بقَدْر ما يمكن لإيناس أن تتبيَّن، من مكتبٍ إداريٍّ ما في المدينة.

تُخبر المرأة على الخط: «قرَّرنا ألا نُعيد ديفيد إلى المدرسة. لم يحقِّق أية فائدة من التعليم. سوف يتعلم في البيت.»

تقول المرأة: «لا يُسمَح بتعليم طفل في البيت إلا إذا كان الوالد مُدرِّسًا معتمَدًا. هل أنتِ مدرِّسة معتمَدة؟»

ترُد إيناس: «أنا أم ديفيد، وليس لأحدٍ آخر أن يقرِّر كيف ينبغي أن يتعلم.» وتضع السماعة.

بعد أسبوع تصل رسالةٌ جديدة. عنوانها «إخطار من المحكمة» تعلن «الأب (الأبوَين) و/أو وَلِيَّ الأمر (وَليَّي الأمر)» غير المسمَّى بالمثول أمام لجنة تحقيق في الحادي والعشرين من فبراير في التاسعة صباحًا، لتقديم سبب عدم نقلِ طفلِه المعنيِّ إلى مركز التعليم الخاص في بونتو أريناس.

تقول إيناس: «أرفُض، أرفُض المثول أمام محكمتهم. سأذهب بديفيد إلى البنسيون وأُبقيه هناك. وإذا سأل أحدٌ عنا، أُخبِره أننا ذهبنا إلى داخل البلاد.»

– «من فضلك فكِّري مرةً أخرى يا إيناس، ستحوِّلين نفسك إلى طريدة. سيُبلِغ شخصٌ ما في البنسيون — البواب الفضولي، على سبيل المثال — السلطات عنك. لنذهَب إلى هذه اللجنة، أنت وديفيد وأنا. ونمنَحهم فرصة رؤية أن الولد ليس معوقًا، وأنه مجرد ولدٍ عادي في السادسة، أصغر بكثيرٍ من أن ينفصل عن أمه.»

يحذر الولد: «لم تعُد لعبة. إذا لم تُقنِع هؤلاء الناس بأنك ترغب في التعليم، فسوف يرسلونك إلى بونتو أريناس والأسلاك الشائكة. هات كتابَك. سوف تتعلم القراءة.»

يقول الولد بأناة: «لكنني أستطيع القراءة.»

– «تستطيع أن تقرأ فقط بطريقتك الحمقاء. سأعلِّمك القراءة بشكلٍ صحيح.»

يُهروِل الولد إلى الغرفة، ويعود ومعه دون كيخوته، ويفتح على الصفحة الأولى.

يقرأ، ببطء وثقة، ويعطي كل كلمة وزنها الصحيح: «في مكانٍ ما في لامانشا، في مكانٍ لا أتذكَّر اسمه، كان يعيش جنتلمان لديه فَرسٌ هزيلةٌ وكلب.»

– «رائع جدًّا. لكن كيف أعرف أنك لا تحفظ هذه الفِقرة عن ظهر قلب؟» يختار صفحةً بشكلٍ عشوائي. «اقرأ.»

يقرأ الولد: «يعلم الرب إن كانت هناك دولثينيا في العالم أم لا، إن كانت حيالية أم غير حيالية.»[١]

– «خيالية. واصل.»

– «ليست أشياء يمكن إثباتُها أو إنكارُها. لم أُنجِبها أو أَلِدها. ما معنى أنجب؟»

– «يقول دون كيخوته إنه ليس أب دولثينيا أو أمها. الإنجاب ما يقوم به الأب من مساعدة لصناعة طفل. واصل.»

– «لم أُنجِبها أو أَلِدها، لكنني أبجِّلها كما ينبغي للمرء أن يبجِّل سيدةً لها فضائلُ تجعلها مشهورةً في كل أرجاء العالم. ما معنى يبجِّل؟»

– «يبجِّلها يوقِّرها. لماذا لم تخبرني بأنك تستطيع القراءة؟»

– «أخبرتُك. لا تسمع.»

– «تظاهَرتَ بأنك لا تستطيع. هل تستطيع الكتابة أيضًا؟»

– «أجل.»

– «هات قلمَك. اكتُب ما أقرؤه عليك.»

– «ليس لديَّ قلم. تركتُ أقلامي في المدرسة. سوف تُعيدها. وعَدتَ.»

– «لم أنسَ.»

– «في عيد ميلادي التالي يمكن أن يكون لديَّ حصان؟»

– «تقصد حصانًا مثل الملك؟»

– «لا، حِصانًا صغيرًا يمكن أن ينام في غرفتي معي.»

– «كن عاقلًا يا بني. لا يمكن أن تحتفظ بحصانٍ في شقة.»

– «إيناس تحتفظ ببوليفار.»

– «أجل لكن الحصان أكبر بكثير من الكلب.»

– «يمكن أن أحصل على حِصانٍ وليد.»

– «الحصان الوليد يكبر ويصير حصانًا كبيرًا. سأقول لك ماذا. إذا صرت جيدًا، وأوضَحتَ لسنيور ليون أنك تنتمي لفصله، سوف نشتري لك درَّاجة.»

– «لا أريد دراجة. لا يمكنك أن تحمي الناس على دراجة.»

---

[١] حيالية: ينطق الولد الكلمة خطأ؛ ويصحِّحها له سيمون في السطر التالي.

– «حسنًا، لن تحصل على دراجة، وهذه نهاية الموضوع. اكتب: «يعلم الرب إن كانت هناك دولثينيا في العالم أم لا». أرني.»

يريه الولد كتاب تدريباته. يقرأ: يعرف الروب إن كانت هناك دولثينيا في العالم أم لا،[٢] سطر الكلمات يسير بثبات من اليسار إلى اليمين؛ الحروف مكتوبة بشكل جيد والمسافات بينها متساوية. يقول «أنا مُعجَب. ثمة ملاحظةٌ صغيرة، الهجاء الصحيح الرب وليس الروب. وباستثناء ذلك رائعٌ جدًّا. من الدرجة الأولى. هكذا كنتَ تستطيعُ القراءة والكتابة طولَ الوقت، وكنتَ فقط تمارس حيلةً على أمك وعليَّ وعلى السنيور ليون.»

– «لم أكن أمارس حيلة. مَن الرَّب؟»

– «يعلم الرب تعبير. طريقة لقول لا أحد يعلم. لا يمكنك ...»

– «هل الرب لا أحد؟»

– «لا تغيِّر الموضوع. الرب ليس لا أحد، لكنه يعيش بعيدًا جدًّا عنا بشكل لا يجعلنا نتحاور معه أو تكون لنا معاملاتٌ معه. وحيث إنه يلاحظنا، يعلم الرب.[٣] ماذا سنقول للسنيورة أوتكسوا؟ ماذا نقول للسنيور ليون؟ كيف نفسِّر لهما أنكَ كنتَ تُمارِس الحماقة معهما، أنك كنتَ تعرف القراءة والكتابة طولَ الوقت؟ إيناس، تعالَي! ديفيد لدَيه ما يُريه لك.»

يعطي كتاب تدريبات الولد لها. تقرأ. تسأل: «من دولثينيا؟»

– «لا يهم. إنها امرأة يُحبها دون كيخوته. ليست امرأةً حقيقية. مثال. مثال في ذهنه. انظري كيف كتَب الحروف بشكلٍ جيد. كان يستطيع الكتابة طولَ الوقت.»

– «إنه بالطبع يستطيع الكتابة. إنه يستطيع أن يفعل أي شيء — ألا تستطيع يا ديفيد؟ تستطيع أن تفعل أي شيء. أنت ابنُ أمك.»

بابتسامةٍ كبيرة وإلى حدٍّ ما (تبدو له) ابتسامة رضا عن الذات على وجهه، يستلقي ديفيد على السرير ويمُد يدَيه لأمه، وتأخذه في حِضْنها. يُغلِق عينيه؛ ينسحب إلى النعيم.

يُعلِن للولد: «نعود إلى المدرسة، أنت وإيناس وأنا. نأخذ دون كيخوته معنا. نُري السنيور ليون أنك تستطيع القراءة. وبمجرَّد أن نفعل ذلك، تعبِّر له عن مدى أسفكَ لأنكَ تسبَّبتَ في كل هذه الضجَّة.»

---

[٢] بالإسبانية في الأصل. ويكتب الولد كلمة الرب خطأ، ويصحِّح له سيمون.

[٣] بالإسبانية في الأصل.

– «لن أعود إلى المدرسة. أستطيع بالفعل القراءة والكتابة.»

– «لم يعُد الاختيار بين أن تذهب إلى المدرسة وتبقى في البيت. الاختيار بين مدرسة السنيور ليون ومدرسة الأسلاك الشائكة. بالإضافة إلى ذلك، لا تتعلَّق المدرسة بالقراءة والكتابة فقط. تتعلق أيضًا بتعلُّم كيف تتصرَّف مع الأولاد والبنات الآخرين. تتعلق أيضًا بأن تكون حيوانًا اجتماعيًّا.»

– «لا يُوجَد أي بنات في فصل السنيور ليون.»

– «أجل. لكنك تقابل بنات في الفسحة وبعد المدرسة.»

– «لا أحب البنات.»

– «هذا ما يقوله كل الأولاد. ثم يقعون فجأةً في الحب ذات يومٍ ويتزوَّجون.»

– «لن أتزوج.»

– «هذا ما يقوله كل الأولاد.»

– «أنت غير متزوج.»

– «أجل، لكنَّني حالة خاصة. أنا أكبر من أن أتزوَّج.»

– «يمكنك أن تتزوَّج إيناس.»

– «أنا على علاقةٍ خاصةٍ بأمك يا ديفيد، وأنت أصغر من أن تفهمها. لن أقول أكثر من ذلك عنها إلا أنها ليست علاقة زواج.»

– «لماذا لا؟»

– «لأن داخل كلٍّ منا صوتًا، يُسمَّى أحيانًا صوت القلب، يخبرنا بالشعور الذي نُكِنُّه لشخص. والشعور الذي أُكنُّه لإيناس أكثر شبهًا بالودِّ من الحب، حب الزواج.»

– «هل سيتزوَّجها السنيور داجا؟»

– «هل هذا ما يُقلِقك؟ لا، أشك في أن السنيور داجا يريد الزواج من أمك. السنيور داجا ليس من النوع الذي يتزوَّج. بالإضافة إلى ذلك، لديه صديقتُه المناسبة.»

– «يقول السنيور داجا إنه وفراني يصنعان ألعابًا نارية. يقول إنهما يصنعان ألعابًا نارية تحت القمر. يقول إنني يمكنني أن أذهب وأشاهد. هل يمكن؟»

– «لا، لا يمكنك. حين يقول السنيور داجا ألعابًا نارية لا يقصد ألعابًا ناريةً حقيقية.»

– «يقصد! لديه درج كامل ممتلئ بالألعاب النارية. يقول إن لإيناس ثديَين جميلَين. يقول إنهما أجمل ثديَين في العالم. يقول إنه سيتزوَّجها من أجل ثديَيها ويصنعان أطفالًا.»

– «يقول ذلك، يقول! حسنا، لدى إيناس أفكارها الخاصة عن الموضوع.»

– «لماذا لا تريد أن يتزوج السنيور داجا من إيناس؟»

– «لأنه إذا أرادت أمك أن تتزوَّج حقًّا يمكنها أن تجد زوجًا أفضل.»

– «مَن؟»

– «مَن؟ لا أعرف. لا أعرف كل الرجال الذين تعرفهم أمك. لا بد أنها تعرف الكثير من الرجال في البنسيون.»

– «إنها لا تحب الرجال في البنسيون. تقول إنهم كبار جدًّا. ما وظيفة الثديَين؟»

– «للمرأة ثديان لتستطيع أن تقدِّم الحليب لرضيعها.»

– «هل هناك حليب في ثديَي إيناس؟ هل سيكون لديَّ حليبٌ في ثديَيَّ حين أكبر؟»

– «لا. ستكبر لتكون رجلًا، والرجال ليس لهم أثداء، أثداءٌ حقيقية. النساء فقط يُخرِجن حليبًا من أثدائهن. أثداء الرجال جافة.»

– «أريد أن يكون لديَّ حليب أيضًا! لماذا لا يمكن أن يكون لديَّ حليب؟»

– «أخبرتُك: الرجال لا يصنعون حليبًا.»

– «ماذا يصنع الرجال؟»

– «يصنع الرجال دماء. إذا أراد الرجل أن يعطي شيئًا من جسمه، يعطي دماء. يذهب إلى المستشفى ويعطي دماءً للمرضى ولمن أُصيبوا في حوادث.»

– «ليجعلهم أفضل؟»

– «ليجعلهم أفضل.»

– «سأعطي دماء. هل يمكن أن أعطي دماء قريبًا؟»

– «لا. عليك الانتظار حتى تكبر، حتى يكون لديك المزيد من الدماء في جسمك. الآن هناك شيءٌ آخر كنتُ أقصد السؤال عنه. هل عدم وجود أبٍ عادي لك، مثل الأطفال الآخرين، وأنك ليس لديك سواي، يجعل الأمور صعبةً عليك في المدرسة؟»

– «لا.»

– «هل أنت متأكد؟ لأن السنيورة أوتكسوا، السيدة في المدرسة، أخبرَتْنا أنك قد تكون قلقًا بشأن أنك ليس لك أبٌ حقيقي.»

– «لستُ قلقًا. لست قلقًا بشأن أي شيء.»

– «أنا سعيدٌ لسماع هذا؛ لأن الآباء، كما تعرف، ليسوا مهمين جدًّا، مقارنة بالأمهات. تُخرِجك الأم من جسمها إلى العالم. تمنحُك الحليب، كما ذكَرتُ. تضمُّك في ذراعَيها وتحميك. بينما الأب يمكنه أحيانًا أن يكون جوَّالًا، مثل دون كيخوته، لا يكون هناك دائمًا حين تحتاج

إليه. يُساعِد في صناعتك، في البداية، لكنه بعد ذلك يُواصِل الترحال. في الوقت الذي تأتي فيه إلى العالم ربما يكون قد تلاشى في الأفق بحثًا عن مغامراتٍ جديدة؛ لهذا لدينا الآباء الروحيون، الآباء الروحيون المسنُّون الوقورون الموثوق فيهم، والأعمام. وهكذا بينما يكون الأب بعيدًا يُوجَد شخص يحل مكانه، شخص نلجأ إليه.»

– «هل أنت أبي الروحي أم عمي؟»

– «الاثنان. يمكن أن تعتقد كما تشاء بشأني.»

– «من أبي الحقيقي؟ ما اسمه؟»

– «لا أعرف. يعلم الرب.[٤] من المحتمل أنه كان في الرسالة التي كنتَ تحملُها، لكن الرسالة فُقدَت، أكلَتها الأسماك، وكنتَ تزرفُ الدموع لأنك لا تستطيع إعادتها. كما قلتُ، يحدُث غالبًا أننا لا نعرف حقيقة الأب. حتى الأم لا تُعرَف دائمًا بالتأكيد. الآن: هل أنت مستعد لرؤية السنيور ليون؟ مستعد لتُريَه مدى مهارتك؟»

[٤] بالإسبانية في الأصل.

٢٦

لساعةٍ ينتظرون بصبرٍ خارج مكتب المدرسة، حتى دقَّ آخرُ جرسٍ وفرغ آخرُ فصل. ثم يمُر السنيور ليون، وفي يده حقيبة، في طريقه إلى البيت. من الواضح أنه غير مسرورٍ برؤيتهم.

يتوسَّل: «خمس دقائقَ فقط من وقتك. نريد أن نُريَك مدى التقدُّم الذي أحرزه ديفيد في القراءة. من فضلك. ديفيد، أرِ السنيور ليون كيف تقرأ.»

يشير السنيور ليون لهم باتجاه الفصل. يفتح ديفيد دون كيخوته. «في مكانٍ ما في لامانشا، في مكانٍ لا أتذكَّر اسمه، كان يعيش جنتلمان لديه فرسٌ هزيلة ...»

يقاطعه السنيور ليون آمرًا. «لستُ على استعداد لسماع محفوظاتك.» يُسرِع عبر الغرفة، ويفتح خزانةً ويعود بكتاب، ويفتحُه أمام الطفل. اقرأ لي.»

– «أقرأ من أين؟»

– «اقرأ من البداية.»

– «يذهب خوان وماريا إلى البحر. اليوم خوان وماريا ذاهبان إلى البحر. يُخبرهما الأب أن صديقَيهما بابلو ورامونا قد يأتيان معهما. خوان وماريا فَرِحان. تصنع الأم سندوتشات للرحلة. خوان ...»

يقول السنيور ليون: «توقَّف. كيف تعلَّمتَ القراءة في أسبوعَين؟»

يتدخل هو، سيمون: «قضى وقتًا طويلًا في دون كيخوته.»

يقول السنيور ليون: «دَعِ الولد يتكلم بنفسه. إذا كنت لا تستطيع القراءة منذ أسبوعَين، فكيف تستطيع القراءة اليوم؟»

يهزُّ الولد كتفَيه: «إنها سهلة.»

– «حسنًا جدًّا، إذا كانت القراءة بهذه السهولة، فاحكِ لي عما قرأتَه. احكِ لي قصةً من دون كيخوته.»

– «يسقُط في حفرة في الأرض ولا يعرف أحد أين هو.»

– «أجل؟»

– «ثم يهرب. بحبل.»

– «وماذا أيضًا؟»

– «يحبسونه في قفص ويتبرَّز في بنطلونه.»

– «ولماذا يفعلون ذلك — يحبسونه.»

– «لأنهم لا يصدِّقون أنه دون كيخوته.»

– «لا. يفعلون ذلك لأنه ليس هناك شخصٌ من قبيل دون كيخوته؛ لأن دون كيخوته اسمٌ مختلق. يريدون إعادته إلى بيته ليرجع إلى عقله.»

ينظر الولَد إليه، إلى سيمون، نظرة ارتياب.

يقول للسنيور ليون: «ديفيد له قراءته الخاصة للكتاب. لديه خيالٌ حي.»

لا ينوي السنيور ليون الرد. يقول: «يذهب خوان وبابلو للصيد. يصطاد خوان خمس سمكات. اكتب على السبورة: خمسة. يصطاد بابلو ثلاث سمكات. اكتب تحت الخمسة: ثلاثة. كم سمكة يصطادانها معًا، خوان وبابلو؟»

يقف الولد أمام السبورة، وعيناه مغلَقتان، وكأنه يستمع إلى كلمةٍ بعيدة جدًّا تُنطَق. لا تتحرك الطباشيرة.

– «عُدَّ. عُدَّ واحد–اثنان–ثلاثة–أربعة–خمسة. والآن عُدَّ ثلاثةً أخرى. كم تعطيك؟»

يهزُّ الولد رأسه. يقول بصوتٍ ضعيف: «لا أستطيع رؤيتها.»

– «لا تستطيع رؤية ماذا؟ لا تحتاج إلى رؤية السمك، تحتاج فقط إلى رؤية الأرقام. انظر إلى الأرقام. خمسة ثم ثلاثة أكثر. كم عدَدُها.»

يقول الولدُ بالصوت الضعيف الفاتر نفسه: «هذه المرة ... هذه المرة ... إنها ... ثمانية.»

– «رائع. ضع خط تحت الثلاثة، واكتب ثمانية. هكذا كنتَ تتظاهر طول الوقت وتقول إنك لا تستطيع العد. والآن أرِنا كيف تكتب. اكتب: ينبغي أن أقول الحقيقة،[١] ينبغي أن أقول الحقيقة. اكتبها. ينبغي.»[٢]

---

[١] بالإسبانية في الأصل.

[٢] بالإسبانية في الأصل.

يكتب الولد من اليسار إلى اليمين راسمًا الحروف بوضوح وإن يكن ببطء: أنا الحقيقة،[٣] أنا الحقيقة.

يقول السنيور ليون، ويلتفت إلى إيناس: «تَرَين. هذا ما أتعامل معه يومًا بعد يوم وابنك في فصلي. أقول، يمكن أن تكون هناك سلطةٌ واحدة في الفصل، لا يمكن أن تكونا اثنتَين. هل تختلفين؟»

تقول إيناس: «إنه طفلٌ استثنائي. أيَّ نوعٍ من المدارس تُدير إذا كنتَ لا تستطيع التعامل مع طفلٍ واحد استثنائي؟»

– «رفض الاستماع إلى ما يقوله مدرِّسه لا يعني أنه طفلٌ استثنائي، يعني فقط أنه عاصٍ. إذا كنتِ تُصرِّين على أن ابنك لا بد أن يُعامَل معاملةً خاصة، فاسمحي له بالذهاب إلى بونتو أريناس. يعرفون هناك كيف يتعاملون مع الأطفال الاستثنائيين.»

تنتصب إيناس، وعيناها تشتعلان. تقول: «يذهب إلى بونتو أريناس على جثتي!»

– «هيا يا حبيبي!»

بعناية يضع الولد الطباشيرة في العُلبة. لا ينظر يسارًا أو يمينًا، ويتبع أمه خارج الغرفة.

عند الباب تلتفتُ إيناس وتلقي نظرةً حادَّة أخيرة على السنيور ليون: «لستَ كفؤًا لتعليم الأطفال!»

يهز السنيور ليون كتفَيه بلا مبالاة.

والأيام تمُر، يكبر فقط إحساس إيناس بالغضب. تقضي الساعات وهي تتحدَّث في التليفون مع أخوَيها، وتضع الخطط وتُعدِّلها لترك نوفيلا وبداية حياةٍ جديدة في مكان آخر، لا تصل إليه يد السلطات التعليمية.

وبالنسبة له، مفكِّرًا فيما جرى في الفصل، يجد صعوبة في الشعور بإساءة المعاملة. لا يُحب السنيور ليون المستبد؛ ويتفق مع إيناس على ضرورة ألا يكون مسئولًا عن أطفالٍ صغار. لكن لماذا يُقاوِم الولد التوجيه؟ هل هي مجرد روحٍ متأصِّلة من التمرد تتأجَّج فيه، وتعزِّزها أمه؛ أم أن للشعور السيِّئ بين التلميذ والمدرس سببًا أكثر خصوصية؟

[٣] بالإسبانية في الأصل.

يأخذ الولد جانبًا. يقول: «أعرف أن السنيور ليون يمكن أن يكون صارمًا أحيانًا، وأنت وهو غير منسجمَين دائمًا. أحاول فهم السبب. هل قال السنيور ليون أي شيءٍ كريه لك لم تذكُره لنا؟»

ينظر الولد نظرتَه المرتبكة. «لا.»

– «كما قلت، أنا لا ألوم أحدًا، أحاول فقط أن أفهم. هل هناك سببٌ يجعلك لا تُحب السنيور ليون، بالإضافة إلى حقيقة أنه صارم؟»

– «له عينٌ زجاجية.»

– «أدرك ذلك. ربما فقد عينَه في حادث. ربما يشعر بحساسيةٍ بسببها. لكننا لا نصنع أعداءً من أناسٍ لمجرد أن لهم عيونًا زجاجية.»

– «لماذا يقول إنه ليس هناك دون كيخوته؟ هناك دون كيخوته. إنه في الكتاب. إنه يُنقِذ الناس.»

– «صحيح، في الكتاب رجلٌ يسمِّي نفسه دون كيخوته ويُنقِذ الناس. لكن بعض الناس الذين ينقذهم لا يريدون الإنقاذ حقًّا. إنهم سعداء كما هم بالضبط. يتخاصمون مع دون كيخوته ويصرخون فيه. يقولون إنه لا يعرف ما يفعلُه، إنه يُخل بالنظام الاجتماعي. السنيور ليون يُحب النظام، يا ديفيد. يُحب الهدوء والنظام في فصله. يُحب النظام في العالم. ولا خطأ في هذا. الفوضى يمكن أن تكون مزعجةً جدًّا.»

– «ما الفوضى؟»

– «أخبرتك في ذلك اليوم. الفوضى حين لا يكون هناك نظام، قوانين يتم الالتزام بها. الفوضى مجرد أشياءَ تتبدَّل بسرعة. لا يمكن أن أصفَها بشكلٍ أفضل.»

– «هل تشبه حين تتسع الأرقام وحين تسقط؟»

– «لا، لا تشبه ذلك، لا تشبهه إطلاقًا. الأرقام لا تتسع أبدًا. نحن آمنون من الأرقام. الأرقام هي ما يحفظ العالم معًا. عليك أن تُقيمَ صداقاتٍ مع الأرقام. إذا كنتَ أكثر ودًّا معها، تكون أكثر ودًّا معك؛ وبالتالي لن يكون عليك أن تخشى أن تتحطَّم تحت قدمَيك.»

يتحدث بجدِّية قَدْر المستطاع، ويبدو أن الولد يستمع إليه. يسأل: «لماذا تشاجَرَت إيناس مع السنيور ليون؟»

– «لم يتشاجرا. احتدم الأمرُ بينهما، ربما يأسفان على ذلك، والآن لديهما وقتٌ للتفكير. لكن ذلك لا يشبه المشاجرة تمامًا. الكلمات القوية ليست مشاجرة. هناك أوقاتٌ ينبغي فيها أن نُناصِر من نُحبهم. كانت أمك تُناصِرك. هذا ما تفعله الأم الطيبة، الأم الشجاعة، من أجل أبنائها؛ تُناصِرهم، تحميهم، طالما بقي في جسدها نَفَسٌ. عليك أن تفتخر بأن لك أمًّا مثلها.»

٢٦

– «إيناس ليست أمي.»

– «إيناس أمك. إنها أمٌّ حقيقة لك. إنها أُمُّك الحقيقية.»

– «هل يخطفونني؟»

– «من الذي يخطفك؟»

– «الناسُ من بونتو أريناس.»

– «بونتو أريناس مدرسة. المدرِّسون في بونتو أريناس لا يخطفون الأطفال. لا يعمل النظام التعليمي بهذه الطريقة.»

– «لا أريد أن أذهب إلى بونتو أريناس. عِدْني بأنكَ لن تتركَهُم يأخذونني.»

– «أَعِدُكَ. أمك وأنا لن نسمحَ لأي أحدٍ بأن يُرسلَك إلى بونتو أريناس. رأيْتَ أية نَمِرة تكون أمك حين يتعلق الأمر بالدفاع عنك. لن يُجبِرَها أحد.»

تدور جلسة الاستماع في المقر الرئيسي لمكتب التعليم في نوفيلا. هو وإيناس هناك في الوقت المحدد. بعد الانتظار لفترةٍ قصيرةٍ يتم اصطحابُهما إلى غرفةٍ ضخمةٍ يتردَّد فيها الصدى، بها صفوفٌ كثيرة من المقاعد الخالية. على رأسها، على أريكةٍ مرتفعة، يجلس رجلان وامرأة، قُضاة أو مُحققون. السنيور ليون حاضر. لا تبادُل للتحيات.

يقول القاضي في المنتصف: «هل أنتما والدا ديفيد؟»

تقول إيناس: «أنا أمه.»

يقول: «وأنا أبوه الروحي. ليس له أب.»

– «هل أبوه ميت؟»

– «أبوه مجهول.»

– «مع من منكما يعيش الولد؟»

– «الولد يعيش مع أمه. أمه وأنا لا نعيش معًا. ليس بيننا علاقةٌ زواجية. ومع ذلك ثَلاثتُنا أسرة. من نوعٍ ما. نحن — الاثنَين — مكرَّسان لديفيد. أراه كل يوم، تقريبًا.»

– «نفهم أن ديفيد ذهب إلى المدرسة لأول مرة في يناير، والتحق بفصل السنيور ليون. وبعد بضعة أسابيع تم استدعاؤكما معًا للتشاور. هل هذا صحيح؟»

– «صحيح.»

– «وماذا أبلغكما السنيور ليون؟»

– «قال إن ديفيد لا يُحرِز تقدمًا أكاديميًّا، وأنه متمرِّد أيضًا. وأوصَى بنقله من الفصل.»

– «سنيور ليون، هل هذا صحيح؟»

يومئ السنيور ليون. «ناقشتُ الحالة مع السنيورة أوتكسوا، الأخصائية النفسية في المدرسة. واتفقنا على أن ديفيد قد يستفيد من تحويله إلى المدرسة في بونتو أريناس.»

يلتفتُ القاضي حوله: «هل السنيورة أوتكسوا حاضرة؟»

يهمس كاتب المحكمة في أذنه. يتحدث القاضي: «لا تستطيع السنيورة أوتكسوا الحضور لكنها أرسلَت تقريرًا يـ...» — يتصفح الأوراق — «يُوصي، كما تقول يا سنيور ليون، بنقله إلى بونتو أريناس.»

تتحدث القاضية التي على اليسار. «سنيور ليون، هل يمكن أن تفسِّر لنا ضرورة هذا النقل؟ يبدو إجراءً صارمًا جدًّا، إرسال طفل في السادسة إلى بونتو أريناس.»

– «سنيورة، لي خبرة اثنتَي عشرةَ سنةً مدرسًا. طوال هذه الفترة لم أرَ مثل هذه الحالة. الولد ديفيد ليس غبيًّا. ليس معوقًا. على العكس، إنه موهوبٌ وذكي. لكنه لا يقبل التوجيه ولا يتعلم. كرَّستُ ساعاتٍ كثيرةً له، على حساب الأطفال الآخرين في الفصل، وأنا أحاول إقناعه بعناصر القراءة والكتابة والحساب. لم يُحرِز أي تقدُّم. لم يستوعب شيئًا. أو بالأحرى، تظاهر بأنه لا يستوعب شيئًا. أقول تظاهر لأنه في الحقيقة يقرأ ويكتُب منذ جاء إلى المدرسة.»

يسأل القاضي رئيس الجلسة: «هل هذا صحيح؟»

يرُد هو، سيمون: «يقرأ ويكتُب، نعم، بشكلٍ متقطع. ينجح في أيام ويُخفِق في أيام. وبالنسبة للحساب يُعاني من بعض الصعوبات، صعوبات فلسفية كما أحب أن أسمِّيها، تعوق تقدُّمه. إنه طفلٌ استثنائي. ذكيٌّ بشكلٍ استثنائي، واستثنائي بطرقٍ أخرى أيضًا. علَّم نفسه القراءة من كتاب دون كيخوته، نسخة مختصَرة للأطفال. أدركتُ ذلك مؤخَّرًا جدًّا.»

يقول السنيور ليون: «لُب القضية ليس أن الولد لا يستطيع القراءة والكتابة، أو أنه علَّم نفسه، إنه لا يستطيع التأقلم في مدرسةٍ عادية. ليس لديَّ وقتٌ للتعامل مع طفلٍ يرفُض أن يتعلم وبسلوكه يعطِّل الأنشطة العادية للفصل.»

تنفجر إيناس: «إنه في السادسة بالكاد. أي مدرسٍ أنت لا يستطيع السيطرة على طفل في السادسة؟»

يتوتَّر السنيور ليون: «لم أقل إنني لا أستطيع السيطرة على ابنك. ما لا أستطيع القيام به هو أداء واجباتي تجاه الأطفال الآخرين وهو في الفصل. ابنك يحتاج إلى اهتمامٍ خاصٍّ من نوع لا نستطيع تقديمه في مدرسةٍ عادية. ولهذا أوصيتُ ببونتو أريناس.»

يخيِّم الصمت.

يسأل القاضي رئيس الجلسة: «هل لديك أي شيءٍ آخر تقولينه يا سنيورة؟»
تهز إيناس رأسها غضبًا.
– «سنيور؟»
– «لا.»
– «نطلب إذن أن تُغادِرا — وأنت أيضًا يا سنيور ليون — وانتظروا قرارَنا.»
يغادرون إلى غرفة الانتظار، الثلاثة معًا. لا تستطيع إيناس النظر إلى السنيور ليون. بعد بضع دقائق يتم استدعاؤهم. يقول القاضي رئيس الجلسة: «قرار هذه المحكمة تنفيذ توصية السنيور ليون، مدعومةً من الأخصائية النفسية في المدرسة ومديرها. ويُنقَل الولد ديفيد إلى المدرسة في بونتو أريناس، ويتم النقل بأسرعِ ما يمكن. هذا كل ما لدينا. شكرًا لحضوركم.»

يقول: «سمُوك، هل يمكن أن أسأل إن كان لنا الحق في الاستئناف؟»

– «يمكن أن تأخذ المسألة إلى المحاكم المدنية، بالطبع، هذا حقّك. لكن إجراء الالتماس لا يُستخدَم وسيلة لإعاقة قرار هذه المحكمة؛ أي إن النقل إلى بونتو أريناس سوف ينفَّذ سواءٌ ذهبتَ إلى المحاكم أو لم تذهب.»

تقول إيناس: «سيأخذنا دييجو مساء الغد. قرَّرنا كل شيء. عليه فقط الانتهاء من بعض الأعمال.»

– «وإلى أين تَنوِين الذهاب؟»
– «كيف يمكن أن أعرف؟ إلى مكانٍ ما بعيدٍ عن مُتناوَل هؤلاء الناس واضطِهادِهم.»
– «هل تذهبين حقًّا لتسمحي لفرقة من إداريِّي المدرسة بتعقُّبك خارج المدينة، يا إيناس؟ كيف تعيشين أنت ودييجو والطفل؟»
– «لا أعرف. مثل الغجَر، على ما أعتقد. لماذا لا تُساعِد بدلًا من إثارة الاعتراض؟»
يتدخل الولد: «ما الغجَر؟»

يقول: «العيش مثل الغجَر مجرد طريقة في التعبير. أنت وأنا كنا غجريَّين من نوعٍ ما بينما كنا نعيش في المعسكر في بلستار. أن تكون غجريًّا يعني ألا يكون لك بيتٌ حقيقي، مكانٌ تضع فيه رأسك. ليس مبهجًا أن تكون غجريًّا.»

– «هل سيكون عليَّ أن أذهب إلى المدرسة؟»
– «لا. أطفال الغجر لا يذهبون إلى المدرسة.»
– «أريد إذن أن أكون غجريًّا مع إيناس ودييجو.»

يلتفت إلى إيناس: «أتمنى لو أنكِ ناقشتِ هذا معي. هل تقصدين حقًّا أن تنامي تحت الشجيرات وتأكلي التوت وأنت تختبئين من القانون؟»

ترد إيناس ببرود: «لا علاقة لهذا بك. أنت لا تهتم إذا ذهب ديفيد إلى إصلاحية. أنا أهتم.»

– «بونتو أريناس ليست إصلاحية.»

– «إنها مقلب للجانحين — للجانحين والأيتام. لن يذهب طفلي إلى ذلك المكان، أبدًا، أبدًا، أبدًا.»

– «أتفق معك. لا يستحق ديفيد أن يُرسَل إلى بونتو أريناس. ليس لأنها مقلبٌ لكن لأنه أصغر من أن ينفصل عن أبوَيه.»

– «لماذا لا تقف إذن ضد هؤلاء القضاة؟ لماذا أذعنتَ وانحنيتَ وقلت أجل سنيور، أجل سنيور؟[٤] ألا تؤمن بالولد؟»

– «بالطبع أومن به. أومن بأنه استثنائي ويستحق معاملةً استثنائية. لكن القانون خلف هؤلاء الناس، ولسنا في وضعٍ يسمح لنا بتحدِّي القانون.»

– «حتى لو كان القانون سيئًا؟»

– «ليست مسألة أنه جيد أو سيئ يا إيناس، إنها مسألة سلطة. إذا هربتِ فسوف يرسلون البوليس وراءك ويقبض عليك البوليس. ويُحكَم بأنك أمٌّ غير كفؤ ويُؤخَذ الطفل منك. ويُرسَل إلى بونتو أريناس، وتكون أمامك معركةٌ أبدية لاستعادة حضانته.

– «لن يُبعدو ابني عني أبدًا. سأموت أولًا.» يجيش صدرها. «لماذا لا تساعدني بدل أن تقف بجانبهم طول الوقت؟»

يمُد يده ليسترضيها لكنها تبعده، وتغرق في سريرها. «اتركني وحدي! لا تلمسني! أنت لا تؤمن حقًّا بالطفل. لا تعرف معنى الإيمان.»

يميل الولد عليها، ويمسح على شعرها. وعلى شفتَيه ابتسامة. يقول «هس، هس.» يرقد بجانبها؛ ويُدخِل إبهامه في فمه؛ وتأخذ عيناه نظرةً جامدةً شاردة؛ وفي دقائق ينام.

[٤] بالإسبانية في الأصل.

٢٧

يُنادي ألفارو عمال الشحن والتفريغ معًا. يقول: «يا أصدقائي، هناك مسألةٌ نحتاج إلى مناقشتها. كما تذكُرون، اقترَح رفيقنا سيمون أن نتخلى عن تفريغ الحمولات بالأيدي ونلجأ بدلًا من ذلك إلى رافعةٍ آلية.»

يومئ الرجال. ينظر البعض في اتجاهه. ويبتسم له يوجينيو.

– «حسنًا، اليوم عندي خبرٌ لكم. يُخبرني رفيقٌ من أعمال الطرق أن في مستودعكم رافعةً تقف خاملةً لشهور. يقول إننا إذا أردنا استعارتَها للتجربة، فعلى الرحب والسعة.

– «ماذا نفعل يا أصدقاء؟ هل نَقبَل عرضه؟ هل نرى إن كانت الرافعة، كما يزعم سيمون، ستُغيِّر حياتنا؟ مَن يريد الحديث أولًا؟ سيمون، أنت؟»

أذهلَته المفاجأة تمامًا. ذهنه مشغول بإيناس وخطَطِها للهروب؛ لأسابيع لا يفكِّر في الرافعات أو الفئران أو اقتصاديات نقل الحبوب؛ في الحقيقة، أصبح يعتمد على طحن العمل المستمر ليُنهِكَه ويمنحَه نعمة النوم العميق بلا أحلام.

يقول: «ليس أنا. قلتُ كلمتي.»

يقول ألفارو: «مَن غيره؟»

يتحدث يوجينيو: «أقول ينبغي أن نُجرِّب الرافعة. للصديق سيمون رأس حكيم على كتفَيه. مَن يعرف، قد يكون محقًّا. قد يكون علينا أن نتحرَّك بالفعل مع الزمن. لن نعرف بالتأكيد إلا إذا جرَّبنا.»

هناك همهمة موافقة من الرجال.

يقول ألفارو: «هل نجرِّب الرافعة إذن؟ هل أُبلِغ الرفيق في أعمال الطرق بإحضارها؟»

يقول يوجينيو، ويرفع يده: «أجل!» ويقول العمال في كورس وهم يرفعون أيديهم: «أجل!»

وحتى هو، سيمون، يرفع يده. التصويت بالإجماع.

تصل الرافعة صباح اليوم التالي على ظهر شاحنة. طُلِيَت ذات يومٍ باللون الأبيض، لكن الطلاء قُشر وصدأ المعدن. يبدو وكأنها وقفَت في العراء في المطر فترةً طويلةً جدًّا. وهي أيضًا أصغَر من المتوقع. تسير على مسارات من الصلب الذي يُقرقِع؛ والسائق يجلس في كابينة على المسارات، يُشغِّل أجهزة التحكم ويُدير الذراع ويُشغِّل الونش. يستغرق الأمر ساعةً تقريبًا لنقل الآلة من على ظهر الشاحنة. يتلهَّف صديق ألفارو من أعمال الطرق على المغادرة. يسأل: «مَن يسوقها؟ أعطيه فكرةً سريعةً عن أجهزة التحكُّم، ولا بد أن أنصرف.»

يُنادي ألفارو: «يوجينيو! تحدَّثتَ لصالح الرافعة. هل تُحب أن تسوقها؟»

يتلفت يوجينيو. «إذا لم يرغب شخصٌ آخر فسوف أسوقها.»

– «حسنًا! مبروك إذن.»

يُبرهِن يوجينيو على أنه يتعلم بسرعة. بسرعةٍ شديدة يقودها ذهابًا وإيابًا بطول الرصيف ويُدير الذراع، ويتأرجح عليه الخطَّاف بخفَّة.

يذكُر السائق لألفارو: «علَّمتُه ما أستطيع. اسمَح له بأن يسير بحذَر في الأيام الأولى، وسيكون كل شيء على ما يُرام.»

ذراع الرافعة طويلة بالضبط بما يكفي للوصول إلى ظهر السفينة. يُحضِر العمال الأجولة واحدًا واحدًا من المخزن، كما كان يحدُث من قبلُ؛ لكن الآن، بدلًا من حَملِها إلى اللوح الخشبي، يُسقِطونها في حمالةٍ من القماش. وحين تمتلئ الحمالة للمرة الأولى يُنادُون على يوجينيو. يُمسِك الخطَّاف بالحمالة؛ يضيق الحبل الصُّلب؛ وترتفع الحمالة على قضبان سطح السفينة؛ وبزهو يؤرجِح يوجينيو الحمولة بسرعة ويُنزِلها إلى أسفل في قوسٍ واسع. يهتف الرجال؛ لكن هُتافَهم يتحوَّل إلى صرخات تحذير والحمالة تَرتطِم برصيف الميناء وتبدأ اللفَّ والدورانَ خارج نطاق السيطرة. ويهُبُّ الرجال، يُنقِذونه جميعًا، يُنقِذون سيمون المستغرق بدرجةٍ تجعَلُه لا يرى ما يحدُث أو الأكسَل من أن يتحرك. يلمَح يوجينيو يحدِّق فيه من الكابينة، ويتفوَّه بكلماتٍ لا تُسمَع. ثم تصطدم به الحمولة المتأرجحة في الحجاب الحاجز وتدفَعُه إلى الخلف. يترنَّح أمام دعامة، ويتعثَّر في حبل، ويتقلَّب في المساحة بين الرصيف واللوحات الصُّلب للسفينة. للحظة يُحتجَز هناك، ويُحبَس بشدة بحيث لا يستطيع التنفُّس. يُدرِك بشدَّة أن السفينة إذا انحرفَت بوصةً واحدةً فسوف يُسحَق مثل حشرة. ثم يضعف الضغط ويُسقِط قدمَيه أولًا في الماء.

يلهث: «النجدة! أنجدوني!»

يُلقِي طَوقَ نجاة بجانبه في المياه، مطليًّا بالأحمرِ اللامع وشرائطَ بيضاء. من أعلى يأتي صوت ألفارو: «سيمون! اسمَع! تشبَّث به وسنسحَبُك.»

يقبض على الطوق؛ مثل سمكة يسحب بطول رصيف الميناء إلى المياه المفتوحة. صوت ألفارو مرةً أخرى: «أمسِك بقوة، سنسحَبُك إلى أعلى!» لكن حين يبدأ الطوق في الارتفاع يشتد الألم فجأة. تفشَل قبضتُه ويسقُط مرةً أخرى في المياه. فوقَه زيت، وفي عينَيه، وفي فمه. يقول لنفسه: هل هكذا تكون النهاية؟ مثل فأر؟ يا له من أمرٍ مُخزٍ!

لكن ألفارو بجانبه الآن، يضرب في المياه، وشعره ملتصقٌ في فروة رأسه بفعل الزيت.

يقول ألفارو: «اهدَأ، يا صديقي العجوز. سأُمسِك.» بامتنانٍ يسترخي في ذراعَي ألفارو. ينادي ألفارو: «اسحبوا!» ويخرج الاثنان في عِناقٍ قويٍّ من المياه.

يستردُّ نفَسَه بارتباك. إنه على ظهره يتطلع إلى سماءٍ خالية. حوله أشكالٌ غامضة، وضجة حديث، لكنه لا يتبيَّن أية كلمة. عيناه مُغلَقتان ويُغمَى عليه مرةً أخرى.

يستيقظ مرةً أخرى على ضجةٍ صاخبة. يبدو أن الضجَّة تأتي من داخله، من داخله. يقول صوت: «استيقظ، يا عجوز!»[١] يفتح عينًا، يرى فوقه وجهًا بدينًا يتصبَّب عرقًا. يودُّ أن يقول أنا مستيقظ، لكن صوته لا يخرُج.

تقول الشفتان البدينتان: «انظر إليَّ! هل تسمعُني؟ ارمش بعينَيكَ إذا كنتَ تسمعُني.»

يرمش.

– «سأعطيك حقنة مُسكِّن، ثم نُخرِجك من هنا.»

مسكِّن؟ يودُّ أن يقول لا أعاني من ألم. لماذا أعاني من ألم؟ لكنه لن يتكلم اليوم مهما يكن هذا الحديث بالنسبة له.

لأنه عضو في اتحاد عمَّال الشحن والتفريغ — وهو انتماءٌ لم يكن على علم به — يحقُّ له العلاج في غرفةٍ خاصة في المستشفى. يرعاه في غرفته فريقٌ من الممرِّضات اللطيفات، مع إحداهن، امرأة في منتصف العمر، اسمها كلارا، لها عينان رماديَّتان وابتسامةٌ هادئة، يرتبط بها ارتباطًا قويًّا في الأسابيع التالية.

يبدو الإجماع أن الحادث أصابَه بمشاكلَ أقلَّ من المتوقَّع. كُسِرَت ثلاثة ضلوع. ثقبَت الرئةَ شظيةٌ من العظام، وتطلَّب الأمرُ عمليةً جراحيةً صغيرة لإزالتها (هل يودُّ الاحتفاظ

---

[١] بالإسبانية في الأصل.

بالعظمة للذكرى؟ — إنها في قارورة بجوار سريره). وهناك جروحٌ وكدَماتٌ على وجهه والجزء العلوي من جسمه، وفقد بعض الجلد، وليس هناك دليل على إصابة في المخ. بضعة أيام تحت الملاحظة، وبضعة أسابيعَ أخرى لتتحسَّن الأمور، ويرجع إلى حالته الطبيعية مرةً أخرى. وفي أثناء ذلك ستكون السيطرة على الألم الأولوية القصوى.

يوجينيو الزائر الأكثر تردُّدًا عليه، مُثقَلًا بالألَم لعدم كفاءته مع الرافعة. يُحاوِل قصارى جهده لتهدئة الشاب — «كيف تتوقَّع أن تُتقِن العمل على آلةٍ جديدةٍ في وقتٍ قصير؟» — لكن يوجينيو لا يهدأ. وحين يستيقظ من غَفْوته يكون يوجينيو غالبًا هو الذي يسبح في رؤيته، يرعاه.

يزوره ألفارو أيضًا، كما يزوره الرِّفاق الآخرون من أحواض السفن. تحدَّث ألفارو إلى الأطباء، ويحمل الأخبار بأنه، رغم توقُّع الشفاء الكامل، لن يكون من الحكمة بالنسبة له، في عمره، أن يعود لحياة الشحن والتفريغ مرةً أخرى.

يقترح: «ربما يمكن أن أصبح سائقَ رافعة. لا يمكن أن أكون أسوأ من يوجينيو.»

يردُّ ألفارو: «إذا كنتَ تُريد العمل سائقَ رافعةٍ فسيكون عليك الانتقال إلى أعمال الطرق. الروافع خطيرةٌ جدًّا. ليس لها مستقبلٌ في أحواض السفن. كانت الروافع دائمًا فكرةً سيئة.»

يتمنَّى أن تأتي إيناس لزيارته، لكنها لا تأتي. يخشَى الأسوأ؛ أن تكون قد نفَّذَت خطَطَها لأخذ الولد والهروب.

يذكُر ما يُقلِقه لكلارا. يقول: «لي صديقة، أنا معجب جدًّا بابنها الصغير. لأسبابٍ لن أخوض فيها، كانت السلطات التعليمية تهدِّد بانتزاع الولد منها وإرساله إلى مدرسةٍ خاصة. هل يُمكِن أن أطلبَ منكَ خدمة؟ هل يمكن أن تتصلي بها تليفونيًّا وتعرفي إن كانت هناك أيُّ تطورات؟»

تقول كلارا: «بالطبع. لكن ألا تريدُ الحديثَ إليها بنفسك؟ يمكن أن أُحضِر التليفون لك في السرير.»

يتصل بالبلوكات. يردُّ جارٌ على التليفون، يذهب ويعود ويذكُر أن إيناس ليست في البيت. يتصل في وقتٍ لاحقٍ من اليوم، بدون نجاحٍ مرةً أخرى.

مبكرًا في صباح اليوم التالي، في الفاصل الهُلامي بين النوم واليقظة يرى حُلمًا أو رؤية. بوضوحٍ غير عادي يرى عربةً بعجلتَين تحُوم في الهواء عند نهاية سريره. العربة مصنوعة

من العاج أو من معدنٍ ما مطعَّم بالعاج، ويجرُّها حصانان أبيضان، لا أحد منهما الملك. قابضًا على اللجام في يد، ورافعًا اليد الأخرى في لفتةٍ ملكية، عاريًا إلا من وزرة من القطن.

كيف تدخل العربة والحِصانان في غرفةٍ صغيرة في المستشفى سرٌّ بالنسبة له. يبدو أن العربة معلَّقة في الهواء بدون أي جهد من جانب الحِصانَين أو السائس. بعيدًا عن أن يكون الحصانان متجمِّدَين، من حينٍ إلى آخر يضربان الهواء بحوافرهما أو يحرِّكان رأسَيهما ويصهلان. وبالنسة للولد، لا يبدو أنه يتعَب من إبقاء ذراعه مرتفعة. النظرة على وجهه مألوفة؛ رضًا عن الذات، وربما حتى انتصار.

في لحظة ينظر إليه الولد مباشرة. يبدو أنه يقول اقرأ عينيَّ.

يستمرُّ الحلم، أو الرؤية، دقيقتَين أو ثلاثَ دقائق. ثم تتَلاشى، وتكون الغرفة كما كانت من قبلُ.

يحكي لكلارا عنها. يسأل: «هل تؤمنين بتوارُد الأفكار؟ كنتُ أشعُر أن ديفيد يُحاوِل أن يُخبرَني بشيء.»

– «بِم؟»

– «لستُ متأكدًا. ربما يحتاج هو وأمُّه إلى مُساعدة. وربما لا. كانت الرسالة — كيف أعبِّر عنها؟ — مظلمة.»

– «حسنًا، تذكر أن المسكن الذي تتناوله من مشتقات الأفيون. ومشتقات الأفيون تجعلنا نحلُم، أحلام الأفيون.»

– «لم يكن حلم أفيون. كان شيئًا حقيقيًّا.»

من ذلك الوقت بدأ يخفِّض المسكنات، ويعاني بالتالي. الليالي أسوأ؛ حتى أقل حركة تسبِّب طعنةً كهربيةً من الألم في صدره.

ليس لديه ما يشغله، لا شيء يقرأه. لا تُوجد مكتبة في المستشفى، تقدم فقط الأعداد القديمة من المجلات الشعبية (وصفات الطعام، الهوايات، أزياء النساء). يشكو ليوجينيو، فيستجيب بإحضار كتابٍ مدرسي من فصل الفلسفة الذي يحضره («أعرف أنك رجل جاد»). الكتاب، كما خَشِي، عن الطاولات والكراسي. يضعه جانبًا. «آسف، ليس النوع الذي أحبُّه من الفلسفة.»

يسأل يوجينيو: «أي نوعٍ من الفلسفة تُحبُّه بدلًا من هذا؟»

– «النوع الذي يهزُّ المرء. ذلك الذي يغيِّر حياة المرء.»

ينظر يوجينيو إليه بارتباك. يسأل: «هل هناك شيءٌ خطأ في حياتك إذن؟ بعيدًا عن جروحك.»

– «شيءٌ مفتقَد يا يوجينيو. أعرف أنه لا ينبغي أن يكون كذلك، لكنه كذلك. حياتي ليست كافية لي. أتمنى أن ينزل شخصٌ ما، مخلِّص، من السموات ويحرِّك عصًا سحرية ويقول، خذ، اقرأ هذا الكتاب وسوف تُجاب كل أسئلتك. أو خذ، هنا حياةٌ جديدةٌ تمامًا لك. لا تفهم هذا النوع من الحديث، أليس كذلك؟»

– «لا، لا يمكن أن أزعُم أنني أفهَم.»

– «لا تهتم. إنه مجرد مزاجٍ عابر. غدًا أكون نفسيَ القديمةَ مرةً أخرى.»

يُخبره الطبيب بضرورة التخطيط للخروج. هل لديه مكانٌ يقيم فيه؟ هل هناك شخصٌ يطبخ له، ويعتني به، ويساعده على التجوُّل حتى يتحسَّن؟ هل يريد الحديث مع أخصائي اجتماعي؟ يرد: «لا أحتاج إلى أخصائيٍّ اجتماعي. دَعْني أناقش المسألة مع أصدقائي وأرى ما يمكن ترتيبه.»

يعرض عليه يوجينيو غرفة في الشقة التي يشترك فيها مع رفيقَين. سيكون يوجينيو سعيدًا بالنوم على الأريكة. يشكُر يوجينيو ويرفُض.

بناءً على طلبه، يبحث ألفارو عن دُور الرعاية. يذكُر أن البلوكات الغربية فيها مُنشَأة، رغم أن الهدف منها رعاية المسنين، تستوعب أيضًا من هم في مرحلة النقاهة. يطلُب من ألفارو وضع اسمه في قائمة انتظار المنشأة. يقول: «من المشين أن أقول ذلك، لكنَّني أتمنى أن يكون هناك مكانٌ شاغر قبل فترةٍ طويلةٍ جدًّا.» يُطمئِنه ألفارو: «إذا لم يكن في قلبك مرَض، يُعتَبر هذا أملًا مباحًا.» يستفهم «مباحًا؟» يؤكِّد له ألفارو «مباحًا».

وفجأةً تنزاحُ كل مِحَنه. من الدهليز يأتي صوت أصواتٍ شابةٍ متألقة. تظهر كلارا عند الباب. تُعلِن «لديك زوَّار.» تتنحَّى جانبًا، يدخل فيدل وديفيد مندفعَين، يتبعهما إيناس وألفارو. يصرخ ديفيد «سيمون! هل سقطتَ حقًّا في البحر؟»

يقفز قلبه. يفرد ذراعَيه بحذَر. «تعالَ هنا! أجل، تعرَّضتُ لحادثٍ بسيط، سقطتُ في المياه، لكنني ابتلَلْتُ بالكاد. وأخرجَني أصدقائي.»

يتسلق الولد السرير المرتفع، يرتطم به، ويُرسِل طعناتٍ من الألم فيه. لكن الألم ليس شيئًا. «يا أعز ولد! يا كنزي! يا نور حياتي!»

يتخلص الولد من حِضْنه. يُعلِن: «هربتُ. قلتُ لك إنني سأهرب. مشيتُ خلال الأسلاك الشائكة.»

هرب؟ مشيٌ خلال الأسلاك؟ يرتبك. عم يتحدَّث الولد؟ ولماذا هذا الزي الجديد الغريب؛ سويتر برقبةٍ ضيقة، بنطلون قصير (قصير جدًّا)، حذاء مع جوربٍ أبيضَ قصير جدًّا يغَطي

الكاحلَين بالكاد؟ يقول: «شكرًا لحضوركم جميعًا، لكن يا ديفيد — من أين هربت؟ هل تتحدث عن بونتو أريناس؟ هل أخذوك إلى بونتو أريناس؟ إيناس، هل سمحْتِ لهم بأخذه إلى بونتو أريناس؟»

– «لم أسمح لهم. جاءوا وهو يلعب في الخارج، وأخذوه في سيارة. كيف كان لي أن أمنعهم؟»

– «لم أتخيل قَط أن الأمر قد يصل إلى هذا. لكنك هربتَ، يا ديفيد؟ احكِ لي عن ذلك. احكِ لي كيف هربتَ.»

لكن ألفارو يتدخل. «قبل أن نأتي إلى هذا يا سيمون، هل يمكن أن نُناقِش انتقالك؟ متى، في اعتقادك، تكون قادرًا على المشي؟»

يسأل الولدُ: «ألا يستطيع المشي؟ ألا تستطيع المشي يا سيمون؟»

– «سأحتاج فقط إلى مساعدة في الفترة القصيرة التالية. حتى تختفي كل الأوجاع والآلام.»

– «هل ستستخدم كرسيًّا متحركًا؟ هل يمكن أن أدفعك؟»

– «أجل، يمكن أن تدفعَني في كرسيٍّ متحرك، طالما كنتَ لا تسير بسرعةٍ شديدة. ويُمكِن أن يدفعني فيدل أيضًا.»

يقول ألفارو: «سبب سؤالي أنني كنتُ على اتصال بدار الرعاية مرةً أخرى. أخبرتُهم بأن من المتوقع أن تُشفَى تمامًا ولا تحتاج إلى رعايةٍ خاصة. وفي تلك الحالة، كما قالوا، يمكن إدخالك على الفور، طالما كنت لا تمانع في غرفةٍ مشترك. ما رأيك في ذلك؟ يمكن بذلك حل مشاكلَ كثيرة.»

الاشتراك في غرفة مع عجوزٍ آخر. يشخرُ بالليل ويبصُق في منديله. يشكو من ابنته التي تخلت عنه. ويستاء تمامًا من الوافد الجديد، المقتحم لفضائه. يقول: «بالطبع لا أمانع. من المريح أن يكون هناك مكانٌ محدَّد أذهب إليه. راحة للجميع. شكرًا لك يا ألفارو، شكرًا لاهتمامك.»

يقول ألفارو: «وسوف يدفع الاتحاد بالطبع. مقابل إقامتك، ووجباتك، مقابل كل احتياجاتك وأنت هناك.»

– «رائع.»

– «حسنًا، لا بُد أن أعود إلى العمل الآن. سأتركك لإيناس والولدَين. أنا متأكدٌ من أن لديهم الكثير يخبرونك به.»

هل يتخيَّل أشياء، أم أن إيناس تُلقِي نظرةً خاطفةً لألفارو وهو يغادر؟ لا تتركني وحدي معه، هذا الرجل نحن في سياق خيانة! يُوضَع في غرفةٍ معقَّمة في البلوكات الغربية البعيدة، حيث لا يعرف أحدًا. يُترَك ليتعفَّن. لا تتركني وحدي معه.

– «اجلسي يا إيناس. ديفيد احكِ لي قصتك من البداية إلى النهاية. لا تترك شيئًا. لدينا الكثير من الوقت.»

يقول الولد: «هربتُ. أخبرتُك بأنني أستطيع. مَشَيتُ خلال الأسلاك الشائكة.»

تقول إيناس: «تلقَّيتُ اتصالًا تليفونيًّا. من امرأةٍ غريبةٍ تمامًا. قالت إنها وجدَت ديفيد يتجول في الشوارع بدون ملابس.»

– «بدون ملابس؟ هربتَ من بونتو أريناس، يا ديفيد، بدون ملابس؟ متى كان ذلك؟ ألم يحاول أحدٌ إيقافك؟»

– «تركتُ ملابسي في الأسلاك الشائكة. ألم أعِدْكَ بأنني أستطيع الهروب؟ أستطيع الهروب من أي مكان.»

– «وأين وجدَتكَ هذه السيدة، السيدة التي اتصلت تليفونيًّا بإيناس؟»

– «وجدَته في الشارع، في الظلام، بردان وعريان.»

يقول الولد: «لم أكن بردانًا. لم أكن عريانًا.»

تقول إيناس: «لم تكن ترتدي أي ملابس. هذا يعني أنك كنتَ عريانًا.»

يقاطع سيمون: «لا تُبالِ بذلك. لماذا اتصلَت المرأةُ بكِ يا إيناس؟ لماذا لم تكن المدرسة؟ كان ذلك بالتأكيد ما عليها أن تفعله.»

يقول الولد: «إنها تَكرَه المدرسة. الجميع يكرَهونها.»

– «هل هي حقًّا مكانٌ رهيب بهذه الصورة؟»

يومئ الولد بقوة.

يتكلم فيدل للمرة الأولى: «هل ضربوك؟»

– «لا بد أن تبلغ الرابعة عشرة قبل أن يضربوك. حين تكون في الرابعة عشرة يمكن أن يضربوك إذا كنتَ عاصيًا.»

تقول إيناس: «احكِ لسيمون عن السمك.»

يهتزُّ الولد بشكلٍ مسرحي: «كانوا كل جمعة يجعلوننا نأكل سمكًا. وأنا أكرَه السمك. عيونها مثل السنيور ليون.»

يُقهقِه فيدل. في لحظةٍ يغرَق الولدان في الضحِك.

– «ماذا أيضًا كان فظيعًا في بونتو أريناس بالإضافة إلى السمك؟»

– «جعلونا نلبس صنادل. ولم يسمحوا لإيناس بالزيارة. قالوا إنها ليست أمي. قالوا إنني قاصر تحت الحِراسة. القاصر شخصٌ ليس له أم أو أب.»

– «هذا هُراء. إيناس أمك وأنا أبوك الروحي، وهو جيد مثل الأب، وأحيانًا أفضل. أبوك الروحي يرعاك.»

– «لم تَرعَني. تركتَهم يأخذونني إلى بونتو أريناس.»

– «صحيح. كنتُ أبًا روحيًّا سيئًا. نمتُ بينما كان ينبغي أن أرعاك. لكنني تعلَّمتُ الدرس. سأهتم بك بشكلٍ أفضل في المستقبل.»

– «هل ستقاتلهم إذا عادوا؟»

– «أجل، بأقصى ما أستطيع. سوف أستعير سيفًا. سأقول، حاولوا أن تسرقوا ولدي مرةً أخرى وسوف تجدون دون سيمون يتعامل معكم!»

يتألق الولد بهجةً. يقول: «بوليفار أيضًا. يمكن أن يحرُسَني بوليفار في الليل. هل ستأتي لتعيش معنا؟» يلتفت إلى أمه: «هل يمكن أن يأتي سيمون ويعيش معنا؟»

– «لا بد أن يذهب سيمون إلى دار الرعاية ليتعافى. لا يستطيع المشي. لا يستطيع صعود السلالم.»

– «يستطيع! تستطيع المشي، ألا تستطيع، يا سيمون؟»

– «أستطيع بالطبع. لا أستطيع بشكلٍ طبيعي، بسبب أوجاعي وآلامي. لكن من أجلك أستطيع فعل أي شيء: أصعد السلالم، وأركب الجِياد، أي شيء. عليكَ فقط أن تقول الكلمة.»

– «أية كلمة؟»

– «الكلمة السحرية. الكلمة التي سوف تشفيني.»

– «هل أعرف الكلمة؟»

– «تعرفها بالطبع. قُلْها.»

– «الكلمة هي ... تعويذة!»

يُبعِد الملاءة (لحسن الحظ يرتدي بيجامة المستشفى) ويؤرجح ساقَيه الضامرتَين على جانب السرير. سأحتاج إلى مُساعدة، أيها الولدان.»

ساندًا على كتفَي فيدل وديفيد، يقف بحذَر، يخطو خطوةً أولى بترنُّح، وثانية. «انظر، أنت تعرف الكلمة! يا إيناس، هل يمكن أن تُقرِّبي الكرسي المتحرك؟» يستقر في الكرسي

المتحرك. «الآن، لنذهب في نزهة. أودُّ رؤية العالم، بعد كل هذا الوقت من الحبس. من يريد أن يدفع؟»

يسأل الولدُ: «ألن تأتي معنا إلى البيت؟»

– «ليس بعدُ. ليس حتى أستردَّ قوَّتي.»

– «لكننا سنكون غجرًا! إذا بقيتَ في المستشفى لا يمكن أن تكون غجريًّا!»

يلتفت إلى إيناس: «ما هذا؟ اعتقدتُ أننا صرَفنا النظر عن مسألة الغجر.»

تتجمَّد إيناس. «لا يمكن أن يعود إلى تلك المدرسة. لن أسمح بذلك. سوف يذهب أخواي معنا، الاثنان. سنأخذ السيارة.»

– «أربعة أشخاص في تلك العربة القديمة؟ ماذا إذا تحطَّمَت؟ وأين ستُقيمون؟»

– «لا يهم. سنقوم بوظائفَ غريبة. سأجمع الفاكهة. أقرضَنا السنيور داجا نقودًا.»

– «داجا! داجا إذن وراء ذلك!»

– «حسنًا، لن يعود ديفيد إلى تلك المدرسة الرهيبة.»

– «حيث يجعلونه يلبس صندلًا ويأكل سمكًا. لا تبدو رهيبةً بهذا الشكل بالنسبة لي.»

– «فيها أولاد يدخِّنون ويشربون ويحملون سكاكين. إنها مدرسةٌ للمجرمين. إذا عاد ديفيد فسوف يحمل نُدوبًا طول حياته.»

يتحدث الولد: «ماذا يعني ذلك، يحمل نُدوبًا طولَ حياته؟»

تقول إيناس: «إنها مجرد طريقة في التعبير. تعني أن أثَر المدرسة سيكون سيئًا عليك.»

– «مثل جرح؟»

– «أجل، مثل جرح.»

– «أصِبتُ بجروحٍ كثيرة بالفعل. أصِبتُ بها من الأسلاك الشائكة. هل تريد أن ترى جروحي يا سيمون؟»

– «قصدَت أمك شيئًا آخر. تقصد جرحًا في نفسك. جرحًا من نوعٍ لا يلتئم. هل صحيح أن الأولاد في المدرسة يحملون سكاكين؟ هل أنت متأكدٌ من أنه ليس ولدًا واحدًا فقط؟»

– «الكثير من الأولاد. وقد أحضروا بطة أمًّا وبطاتٍ صغيرات وداس أحد الأولاد على بطةٍ صغيرة فخرجَت أحشاؤها من مؤخرتها، وأردت أن أعيدها لكن المدرِّس لم يسمح لي، قال لا بد أن أترك البطة الصغيرة تموت، وقلتُ إنني أريد أن أنفُثَ فيها الحياة، لكنه لم يسمح لي. وكان علينا أن نقوم بأعمال البستنة. بعد ظهر كل يوم بعد المدرسة يجعلوننا نَحفِر. أكره الحَفْر.»

– «الحَفْر جيد بالنسبة لك. إذا لم يكن أحد مستعدًّا للحَفْر، فلن تكون لدينا محاصيل، لن يكون لدينا طعام. الحَفْر يجعلك قويًّا. يمنحُك عضلات.»

– «يمكن إنبات بذور على ورق نشاف. وضَّح لنا مدرِّسنا ذلك. لا تحتاج إلى الحَفْر.»

– «بذرة أو اثنتان، أجل. لكن إذا أردتَ محصولًا حقيقيًّا، إذا أردت إنبات قمحٍ كافٍ لصناعة الخبز وإطعام الناس، فلا بُد من وضع البَذْرة في الأرض.»

– «أكره الخبز. الخبز ممل. أحب الآيس كريم.»

– «أعرف أنك تحب الآيس كريم. لكن لا يمكن أن تعيش على الآيس كريم، بينما يمكن أن تعيش على الخبز.»

– «يمكن أن تعيش على الآيس كريم. السنيور داجا يعيش عليه.»

– «يتظاهر السنيور داجا فقط بأنه يعيش على الآيس كريم. سرًّا أنا متأكد من أنه يأكل الخبز مثل الآخرين. على أية حال، لا ينبغي أن تتخذ السنيور داجا نموذجًا.»

– «السنيور داجا يعطيني هدايا. لا تعطيني أنت وإيناس هدايا أبدًا.»

– «غير صحيح، يا ولدي، غيرُ صحيحٍ وقاسٍ. إيناس تحبُّك وتهتم بك، وأنا أيضًا. بينما السنيور داجا، ليس في قلبه حب لك إطلاقًا.»

– «يحبُّني! يريد أن أذهب وأعيش معه! أخبرَ لإيناس وإيناس أخبرَتْني.»

– «أنا متأكد من أنها لن توافق أبدًا على ذلك. أنت تنتمي لأمك. هذا ما كنا نُصارِع من أجله طول الوقت. قد يبدو السنيور داجا فاتنًا ومثيرًا لك، لكن حين تكبر تدرك أن الناس الفاتنين والمثيرين ليسوا بالضرورة أناسًا طيبين.»

– «ما معنى فاتن؟»

– «فاتن يعني يلبَس قُرطًا ويحمل سكينًا.»

– «السنيور داجا يحب إيناس. وسيصنع أطفالًا في بطنها.»

تنفجر إيناس: «ديفيد!»

– «صحيح! قالت إيناس لا ينبغي أن أخبرك، ستكون غيورًا. هل هذا صحيح يا سيمون؟ هل أنت غيور؟»

– «لا، لست غيورًا بالطبع. لا شأن لي بذلك. ما أريد أن أقوله لك إن السنيور داجا ليس شخصًا طيبًا. قد يدعوك إلى بيته ويعطيك آيس كريم، لكنه لا يضع أفضل مصالحك في القلب.»

– «ما أفضل مصالحي؟»

– «مصلحتُك الأولى أن تكبر وتكون رجلًا طيبًا. مثل البذرة الطيبة، البذرة التي تُوضَع عميقًا في الأرض وتمُد جذورًا قوية، ثم حين يأتي وقتها تنبثقُ في النور وتحمل الكثير. هكذا ينبغي أن تكون. مثل دون كيخوته. أنقذ دون كيخوته العذارى. حمَى الفقراء من الأغنياء والأقوياء. خُذه نموذجًا لك، وليس السنيور داجا. احمِ الفقير. أنقِذ المظلوم. وشرِّفْ أمك.»

– «لا! ينبغي أن تشرِّفَني أمي! على أية حال، يقول السنيور داجا إن دون كيخوته قد عفا عليه الزمن. يقول لم يعُد أحدٌ يركَب حصانًا.»

– «حسنًا، إذا أردتَ يمكن أن تُبرهِن له بسهولةٍ أنه مخطئ. اركَب حصانَك وارفع سيفَك عاليًا. سوف يسكت هذا السنيور داجا. اركَب الملك.»

– «الملك ميت.»

– «لا، الملك ليس ميتًا. الملك حي. تعرف ذلك.»

يهمس الولد: «أين؟» تمتلئ عيناه فجأة بالدموع، وترتجف شفتاه، يُخرِج الكلمة بالكاد.

– «لا أعرف، لكن في مكانٍ ما ينتظر الملك مجيئك. إذا بحثتَ فستعثُر عليه بالتأكيد.»

٢٨

إنه يوم خروجه من المستشفى. يودِّع الممرضات. يقول لكلارا: «لن أنسى اهتمامك بسهولة. أود الاعتقاد بأنه كان وراءه أكثر من مجرَّد الودِّ.» لا ترُد كلارا؛ لكن من النظرة المباشرة التي تنظرها إليه يعرف أنه مُحِق.

أعدَّت المستشفى سيارة وسائقًا لنقله إلى بيته الجديد في البلوكات الغربية؛ عرض عليه يوجينيو أن يصحبه ويطمئن إلى أنه استقر بأمان. لكن، بمجرد أن يكونا في الطريق، يطلب من السائق الانعطاف إلى البلوكات الشرقية.

يرُد السائق: «لا يمكن أن أفعلَ ذلك. إنها خارج نطاقِ مهمَّتي.»

يقول: «من فضلك. أحتاج إلى بعض الملابس. لن يستغرق الأمر إلا خمسَ دقائق.»

يُوافِق السائقُ على مضَض.

يقول يوجينيو وهم يأخذون المنعطف إلى الشرق: «ذكرتَ الصعوباتِ التي كان صغيرك يُعاني منها في المدرسة. ما هذه الصعوبات؟»

– «تريد سلطات المدرسة إبعاده عنا. بالقوة، إذا لزم الأمر. يريدون إعادته إلى بونتو أريناس.»

– «إلى بونتو أريناس! لماذا؟»

– «لأنهم شيَّدوا مدرسةً في بونتو أريناس مخصصةً للأطفال الذين ملُّوا من القصص عن خوان وماريا وما يفعلانه على شاطئ البحر. الذين ملُّوا وعبَّروا عن ملَلهم. الأطفال الذين لا يرضخون لقواعد الجمع والطرح التي يضعها مدرِّسُ فصلهم. القواعد التي صنعها الإنسان. اثنان زائد اثنَين تساوي أربعة وهلُم جرًّا.»

– «هذا سيِّئ. لكن لماذا لا يجمع ولدُك بالطريقة التي يطلبها المدرِّس منه؟»

– «لماذا ينبغي عليه، حين يكون في داخله صوت يقول له إن طريقة المدرِّس ليست الطريقة الصحيحة؟»

– «لا أتفق معك. إذا كانت القواعد صحيحة بالنسبة لك وللجميع، فكيف تكون غير صحيحة بالنسبة له؟ ولماذا تسمِّيها قواعد من صنع الإنسان؟»

– «لأن اثنَين واثنَين يمكن أن تساوي أيضًا ثلاثة أو خمسة أو تسعة وتسعين إذا قرَّرْنا ذلك.»

– «لكن اثنَين واثنَين تُساوِي أربعة. إلا إذا أعطيتَ معنًى خاصًّا وغريبًا لكلمة تساوي. يمكن أن تحسبها بنفسك: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. يسقط كل شيء في الفوضى إذا كانت اثنان واثنان تساوي ثلاثة حقًّا. نكون في عالمٍ آخر، بقوانينَ فيزيائيةٍ أخرى. في العالم الحالي اثنان واثنان تساوي أربعة. إنه قانونٌ عام، مستقلٌّ عنا، ليس من صنع الإنسان إطلاقًا. حتى إذا لم تعُد أنت وأنا موجودَين، تستمر اثنان واثنان تُساوِي أربعة.»

– «أجل، لكن أي اثنَين وأي اثنَين تصنع أربعة؟ معظم الوقت، يا يوجينيو، أعتقد أن الطفل ببساطة لا يفهم الأرقام، كما لا يفهمها قِط أو كَلب. لكنَّني من حين إلى آخر أتساءل: هل هناك أي شخصٍ على الأرض الأرقام بالنسبة له أكثر واقعية؟

– «وأنا في المستشفى وليس لديَّ شيءٌ آخر أفعلُه، حاوَلتُ، على سبيل تدريب الذهن، رؤية العالم من خلال عينَي ديفيد. ضَع أمامه تفاحة وماذا يرى؟ تفاحة؛ ليست تفاحة واحدة، فقط تفاحة. ضع أمامه تفاحتَين اثنتَين. ماذا يرى؟ تفاحة وتفاحة؛ وليس تفاحتَين اثنتَين، ليست التفاحة نفسها مرتَين، فقط تفاحة وتفاحة. والآن يأتي السنيور ليون (السنيور ليون مدرِّس فصله) ويسأل: «كم تفاحة يا طفل؟ ما الإجابة؟ ما التفاح؟ ما المفردة التي جمعُها تفاح؟ ثلاثة رجال يتجهون إلى البلوكات الشرقية: ما المفردة التي جمعها رجال — يوجينيو أم سيمون أم صديقنا السائق الذي لا نعرف اسمه؟ هل نحن ثلاثة، أم أننا واحد وواحد وواحد؟

تنتفض يديك في غضب، ويمكن أن أعرف السبب. واحد وواحد وواحد تصنع ثلاثة، كما تقول، وأنا مضطَر للموافقة. ثلاثة رجال في سيارة؛ بسيطة. لكن ديفيد لن يتفق معنا. لا يخطو الخطوات التي نخطوها حين نحسب؛ الخطوة واحد، الخطوة اثنين، الخطوة ثلاثة. كما لو أن الأرقام جزرٌ تطفو في بحرٍ أسودَ هائل، وهو في كل مرة يطلب منه غلقَ عينَيه والاندفاع في الفراغ. ماذا إذا سقَطْتُ؟ — هذا ما يسأله لنفسه. ماذا إذا سقطتُ وبقيتُ ساقطًا إلى الأبد؟ مستلقيًا في السرير في منتصف الليل، استطعتُ أن أُقسِم أحيانًا

أنني أيضًا أسقط — أسقط تحت السحر الذي يسيطر على الولد. أسأل نفسي، إذا كان الانتقال من واحد إلى اثنَين بهذه الصعوبة، فكيف يمكن أن أنتقل من صفر إلى واحد؟ من اللامكان إلى مكانٍ ما؛ بدا لي أن الأمر يحتاج إلى معجزة في كل مرة.»

يتأمل يوجينيو: «للولد بالتأكيد خيالٌ حي. جزرٌ طافية. لكنه سوف يتوقف عن ذلك. لا بد أن يتوقف عن الشعور الدائم بعدم الأمان. لا يسعني الآن إلا أن ألاحظ كم هو عصبي، كيف يتوتَّر بدون أي سبب. هل هناك تاريخٌ خلف ذلك، هل تعرف؟ هل كان والداه يتشاجران كثيرًا؟»

– «والداه؟»

– «والداه الحقيقيان. هل يحمل بعض النُّدوب، صدمة من الماضي؟ لا؟ لا تُبالِ. بمجرد أن يشعر بمزيد من الأمان في محيطه، بمجرد أن يشعر بأن هذا العالم — ليس فقط عالم الأرقام بل كل شيءٍ آخر أيضًا — تحكمه القوانين، وأنْ لا شيء يحدث بالصدفة، سوف يعود لعقله ويستقر.»

– «هذا ما قالته الأخصائية النفسية في المدرسة. السنيورة أوتكسوا. بمجرد أن يجد له موضعَ قدمٍ في العالم، بمجرد أن يتقبَّل حقيقته، تختفي صعوبات التعلُّم.»

– «أنا متأكد من أنها محقَّة. يستغرق الأمر وقتًا.»

– «ربما. ربما. لكن ماذا إذا كنا مخطئَين وكان محقًّا؟ ماذا إذا لم يكن هناك أي جسر إطلاقًا بين واحد واثنين، مجرد فضاءٍ خالٍ؟ وماذا إذا كنا، ونحن نخطو بثقةٍ كبيرة، نسقُط في الفضاء، لكننا فقط لا نعرف لأننا نصر على البقاء معصوبي العينَين؟ ماذا إذا كان الولد هو الشخص الوحيد بيننا الذي له عينان تُبصِران؟»

– «هذا يشبه القول، ماذا إذا كان المجنون عاقلًا حقًّا والعاقل مجنونًا حقًّا؟ إنه يا سيمون، إذا لم تمانع من أن أقول، تلميذٌ يتفلسف. بعض الأشياء صحيحةٌ ببساطة. التفاحة تفاحة تفاحة. تفاحة وتفاحة أخرى تصنعان تفاحتَين. سيمون واحد يوجينيو واحد يصنعان راكِبَين في سيارة. لا يجد طفلٌ صعوبة في قبول هذه المقولات — طفلٌ عادي. لا يجدها صعوبة لأنها صحيحة؛ لأننا منذ الميلاد — إذا جاز التعبير — نتناغم مع حقيقتها. وفيما يتعلق بأنك تخاف من الفضاءات الفارغة بين الأرقام، هل وضَّحتَ في أي وقت لديفيد أن عدد الأرقام لا نهائي؟»

– «أكثر من مرة. قلتُ له، ليس هناك رقمٌ أخير. تستمر الأرقام إلى ما لا نهاية. لكن ما علاقة هذا بالأمر؟»

– «هناك لانهائيات جيدة، ولانهائيات سيئة، يا سيمون. تحدَّثنا من قبل عن اللانهايات السيئة — تتذكر؟ اللانهاية السيئة تشبه أن تجد نفسك في حُلم داخل حُلم داخل حُلمٍ آخر، إلى مالانهاية. أو تجد نفسك في حياة هي مجرَّد مقدمة لحياةٍ أخرى هي فقط مقدِّمة … إلخ. لكن الأرقام ليست بهذا الشكل. الأرقام تشكل لانهاية جيدة. لماذا؟ لأنها، لأنها لا نهائية في العدَد، تملأ كل الفضاءات في العالم، تتراصُّ معًا بقوة مثل الطوب. وهكذا نكون آمنين. ليس هناك موضع للسقوط. وضِّح هذا للولد. سوف يُطمئِنه.»

– «سأفعل ذلك. لكن بشكلٍ ما أعتقد أنه لن يكون مستريحًا.»

– «لا تُسِئ فهمي، يا صديقي. لستُ في صف النظام المدرسي. أوافق، إنه يبدو جامدًا جدًّا، وقد عفى عليه الزمن تمامًا. في رأيي، أن هناك الكثير مما يجب قوله بالنسبة لتعليمٍ عملي أكثر ومهنيٍّ أكثر. يمكن أن يتعلم ديفيد السباكة أو النجارة، على سبيل المثال. لا يحتاج المرء للرياضيات العليا من أجل ذلك.»

– «أو للشحن والتفريغ.»

– «أو للشحن والتفريغ. الشحن والتفريغ وظيفةٌ مبجَّلة تمامًا، كما نعرف كلانا. لا، أتفق معك. صغيرك يعامَل معاملةً غير منصفة. ومع ذلك، لمدرسيه هدف، أليس كذلك؟ ليس فقط مجرد اتباع قواعد الحساب لكن تعلُّم اتباع القواعد عمومًا. السنيورا إيناس سيدةٌ لطيفة جدًّا، لكنها تُفسِد الطفل بشكلٍ كبير، يُمكِن لأي شخص أن يرى ذلك. إذا تم التساهل مع الطفل باستمرار وقيل له إنه متميز، إذا سُمح له بأن يصنع قواعد لنفسه كما يشاء، أي نوعٍ من الرجال يكونُ حين يكبر؟ ربما القليل من الانضباط في هذه المرحلة من حياة ديفيد الصغير لن يسبِّب أي ضرر.»

رغم أنه يشعر بأعظم ودٍّ تجاه يوجينيو، مع أنه يتأثَّر باستعداده لمصادقةِ رفيقٍ أكبر كما يتأثر بالكثير من مواقفه الكريمة، رغم أنه لا يلومه إطلاقًا على الحادث في أحواض السفن — متعجلًا خلف مكابح الرافعة ما كان له هو نفسه أن يفعل أفضل من ذلك — لم يشعر في قلبه بحبٍّ حقيقي للرجل. يجده متزمتًا وضيق الأفق ومغرورًا. انتقاده لإيناس يجعله معاديًا. لكنه يضَع مزاجه في الحسبان.

– «تُوجد مدرَستان فكريتان، يا يوجينيو، في تربية الأطفال. تقول واحدة إننا ينبغي أن نشكِّلهم مثل الطين، نحوِّلهم إلى مواطنينَ فُضلاء. وتقول الأخرى إننا لا نكون أطفالًا إلا مرةً واحدة، وإن الطفولة السعيدة أساس الحياة السعيدة بعد ذلك. وإيناس تنتمي

للمدرسة الثانية؛ ولأنها أمه، ولأن الروابط بين الطفل وأمه مقدَّسة، أوافقها. وبالتالي لا، لا أعتقد بأن المزيد من الانضباط في الفصل سيكون جيدًا بالنسبة لديفيد.»

يواصلان في صمت.

في البلوكات الشرقية يطلب من السائق الانتظار ويوجينيو يساعده على النزول من السيارة. معًا يصعدان السلالم ببطء. وفي دهليز الطابق الثاني يستقبلهما مشهدٌ مرعب. خارج شقة إيناس شخصان، رجل وامرأة، في زيٍّ أزرقَ غامقٍ متماثل. الباب مفتوح؛ ومن الداخل يأتي صوت إيناس، عاليَ النبرة وغاضبًا. تقول: «لا! لا، لا، لا! لا حق لكما!»

يرى وهما يقتربان أن الكلب، بوليفار، هو ما يمنع الغريبين من الدخول، يقبع عند العتبة، وأذناه مفرطحَتان وأسنانه مكشوفة، يعوي بصوتٍ منخفض، يراقب كل حركة، ومستعدٌّ للقفز.

تُنادي إيناس عليه: «سيمون! اطلب من هذَين الشخصَين الابتعاد! يريدان إعادة ديفيد إلى تلك الإصلاحية البشعة. أخبِرهما بأنهما لا حق لهما!»

يسحب نفسًا عميقًا. يقول مخاطبًا المرأة التي ترتدي الزي، ضئيلة وأنيقة مثل طائر مقارنةً برفيقها البدين: «ليس لكما حقوق على الولد. أنا من أحضره هنا إلى نوفيلا. أنا وصيُّه. وأنا من كل النواحي أبوه. والسنيورا إيناس» — يشير باتجاه إيناس — «من كل النواحي أمه. لا تعرفان ابننا كما نعرفه. ليس فيه خطأ يحتاج إلى تصحيح. إنه ولدٌ حساسٌ لديه بعض الصعوبات في المقرر المدرسي — لا شيء أكثر من ذلك. يرى مزالقَ، مزالقَ فلسفية؛ حيث لا يراها طفلٌ عادي. لا يُمكِن معاقبتُه بسبب اختلافٍ فلسفي. لا يمكن إبعاده عن بيته وأسرته. لن نسمح بذلك.»

يتبع خطبته صمتٌ طويل. تحدِّق إيناس، من خلف كلبِها الحارس، في المرأة بعدوانية. تكرِّر في النهاية: «لن نسمح بذلك.»

تسأل المرأة، مخاطبة يوجينيو: «وأنت يا سنيور؟»

يتدخل سيمون: «السنيور يوجينيو صديق. رافقَني بعطف من المستشفى. وهو ليس جزءًا من هذا الوضع المعقَّد.»

يقول يوجينيو: «ديفيد ولدٌ استثنائي. أبوه مكرَّس له. رأيتُ ذلك بعينيَّ.»

تقول إيناس: «أسلاكٌ شائكة. أي نوع من المنحرفين في مدرستكم تحتاجون إلى أسلاكٍ شائكة ليبقَوا داخلها؟»

تقول المرأة: «الأسلاك الشائكة أسطورة. محض تلفيق. لا أعرف كيف نشأَت. لا تُوجد أسلاك شائكة في بونتو أريناس. على العكس، لدينا …»

تُقاطِعها إيناس، وترفع صوتها مرةً أخرى: «مشى عَبْر الأسلاك الشائكة. مُزقَت ملابسه مزقًا! وتتجرَّئين بصفاقة لتقولي لا تُوجَد أسلاكٌ شائكة!»

تتابع المرأة ببسالة: «على العكس، نتبع سياسة الباب المفتوح. أطفالنا أحرار في الدخول والخروج. لا تُوجد حتى أقفال على الأبواب. ديفيد، أخبِرنا بالحقيقة، هل في بونتو أريناس أسلاكٌ شائكة؟»

الآن وهو ينظر أقرب، يرى أن الولد كان حاضرًا طوال هذه المشادَّة، شبه مختبئٍ خلف أمه، يستمع بهدوء، وإبهامُه في فمه.

تكرِّر المرأة: «هل هناك حقًّا أسلاكٌ شائكة؟»

يقول الولد ببطء: «هناك أسلاكٌ شائكة. مشيتُ خلال الأسلاك الشائكة.»

تهزُّ المرأة رأسها، وتبتسم ابتسامة إنكار. تقول بهدوء: «ديفيد، تعرف وأعرف أنها أكذوبة. لا تُوجَد أسلاكٌ شائكة في بونتو أريناس. أدعوكم جميعًا لتَرَوا بأنفسكم. يمكن أن نأخذ السيارة وننطلق إلى هناك في هذه الدقيقة. لا أسلاك شائكة، إطلاقًا.»

تقول إيناس: «لا أحتاج إلى الرؤية. أصدِّق طفلي. إذا قال هناك أسلاكٌ شائكة، يكون ذلك حقيقيًّا.»

تقول المرأة، مخاطبة الولد: «لكن هل هذا حقيقي؟ هل هي أسلاكٌ شائكةٌ واقعية، يُمكِن رؤيتها بأعيننا، أم نوع من الأسلاك الشائكة يُمكِن فقط لبعض الناس رؤيتُها ولمسُها، بعض الناس ممن يتمتَّعون بخيالٍ حي؟»

يقول الولد: «إنها واقعية. إنها حقيقية.»

يخيِّم الصمت.

تقول المرأة في النهاية: «هذه هي القضية إذن. الأسلاك الشائكة. إذا أثبتُّ لك أنه لا تُوجَد أسلاكٌ شائكة يا سنيورة، وأن هذا الطفل يختلق قصصًا، هل تتركينه يذهب؟»

تقول إيناس: «لا يمكن أبدًا أن تثبتي ذلك. إذا رأى الطفل أنه تُوجَد أسلاكٌ شائكة فإنني أصدِّقه، هناك أسلاكٌ شائكة.»

تسأل المرأة: «وأنتَ؟»

يرُد سيمون: «أنا أيضًا أصدِّقه.»

– «وأنت يا سنيور؟»

يبدو يوجينيو منزعجًا. يقول في النهاية: «لا بد أن أرى بنفسي. لا يمكن أن تتوقَّعي مني أن أقرِّر بدون أن أرى.»

تقول المرأة: «حسنًا، يبدو أننا في طريقٍ مسدود. سنيورة، اسمحي أن نوضِّح لك. أمامك اختياران؛ طاعة القانون وترك الطفل لنا، أو سنُضطَر لاستدعاء البوليس. أيهما تختارين؟»

تقول إيناس: «تأخذانه على جثَّتي.» وتلتفتُ إليه: «سيمون! افعَل شيئًا!»

يحدِّق فيها في يأس: «ماذا ينبغي أن أفعل؟»

تقول المرأة: «لن يكون انفصالًا دائمًا. يستطيع ديفيد أن يأتي إلى البيت في العطلة الأسبوعية كل أسبوعَين.»

تصمتُ إيناس بتجهُّم.

يقدِّم توسلًا أخيرًا. «سنيورة، فكِّري من فضلك. ما تقترحين القيام به يحطِّم قلب أم. ولماذا؟ لدينا طفل يتصادف أن لديه أفكارًا خاصة بشأن الحساب، من بين كل الأشياء — ليس التاريخ، ليست اللغة، لكن الحساب التافه — أفكارًا من المرجَّح تمامًا أن يتخلى عنها قريبًا. ما الجريمة في أن يقول طفلٌ إن اثنين واثنين تساوي ثلاثة؟ كيف يُخِل هذا بالنظام الاجتماعي؟ لكنكِ تريدينَ من أجل هذا انتزاعَه من أبوَيه وحبسَه خلف أسلاكٍ شائكة! طفل في السادسة!»

تكرِّر المرأة بصبر: «لا تُوجَد أسلاكٌ شائكة. ولم يتم تحويل الطفل إلى بونتو أريناس لأنه لا يستطيع الجمع لكن لأنه يحتاج إلى رعايةٍ خاصة. بابلو»، تقول، مخاطبة رفيقها الصامت، «انتظِر. أودُّ أن أقول كلمةً خاصةً لهذا الجنتلمان.» وله: «سنيور، هل يمكن أن أطلب منك أن تأتي معي؟»

يأخذ يوجينيو ذراعه لكنه يتخلص من الشاب. «أنا على ما يُرام، شكرًا لك، ما دمتُ لا أُضطَر إلى أن أسرع.» ويوضِّح للمرأة: «خرجتُ من المستشفى للتو. إصابة عمل. ما زلتُ أعاني من بعض الألم.»

هو وهي وحدهما عند بئر السلم. تقول المرأة بصوتٍ منخفض: «سنيور، افهمني من فضلك، لستُ موظَّفة متخلِّفة. أنا أخصائيةٌ نفسية بالتدريب. أعمل مع الأطفال في بونتو أريناس. في أثناء الفترة القصيرة التي قضاها ديفيد معنا، قبل أن يهرُب، أخذتُ على عاتقي أن ألاحظه. لأنه — أتفق معك — أصغر من أن يُبعَد عن البيت، وكنتُ مهتمةً بضرورة ألا يشعُر بأنه منبوذ.

– «ما رأيتُه أنه طفلٌ جميل، صادق جدًّا، صريح جدًّا، لا يخشى الحديث عن مشاعره. ورأيتُ شيئًا آخر أيضًا. رأيتُ كيف يحظى بسرعة بإعجاب الأولاد الآخرين، وخاصة الأولاد الأكبر. حتى أكثرهم فظاظة. لا أبالغ حين أقول إنهم فُتنوا به. أرادوا أن يجعلوه تميمتهم.»

– «تميمتهم؟ النوع الوحيد الذي أعرفه من التمائم هو حيوان يُتوَّج بأكليل ويُسحَب بسلسلة. ماذا يدعو للفَخْر في أن يكون تميمة؟»

– «كان حيوانهم المدلَّل، حيوانهم المدلَّل العام. لا يفهمون لماذ هرب. قلوبهم محطَّمة. يبحثون عنه يوميًّا. لماذا أقول لك ذلك يا سنيور؟ حتى يمكن أن تفهَم أن ديفيد وجَد منذ البداية مكانًا لنفسه في مجتمعنا في بونتو أريناس. بونتو أريناس لا تشبه المدارس العادية؛ حيث يقضي الطفل بضع ساعات يوميًّا يستوعب التعليمات، ثم يعود إلى البيت. في بونتو أريناس المدرِّسون والطلاب والمشرفون مرتبطون معًا بقوة. لماذا هرب ديفيد إذن، قد تسأل؟ ليس لأنه لم يكن سعيدًا، يمكن أن أؤكِّد لك ذلك. لأن له قلبًا رقيقًا ولا يحتمل فكرة تلهُّف السنيورة إيناس عليه.»

يقول: «السنيورة إيناس أمه.»

تهزُّ المرأة كتفيها. «إذا انتظر بضعة أيام كان يمكن أن يأتي إلى البيت في زيارة. ألا يمكن أن تُقنِع زوجتك بتركه؟»

– «وكيف تعتقدين أنني ينبغي أن أقنعها يا سنيورة؟ رأيْتِها. أية صيغةٍ سحريةٍ تعتقدين أنني أملكها تغيِّر رأي امرأة بهذا الشكل؟ لا، ليست مشكلتك في كيف تأخذين ديفيد من أمه. لديك هذه السلطة. مشكلتك أنك لا تستطيعين الاحتفاظ به. بمجرد أن ينوي الرجوع إلى البيت لأبوَيه، سوف يأتي. ليست لديك وسيلةٌ لإيقافه.

– «سيظل يهرب طالما كان مقتنعًا بأن أمه تناديه. ولهذا أطلبُ منكَ أن تتحدَّث معها. أقنِعها أن من الأفضل أن يأتي معنا؛ لأنه الأفضل.»

– «لا يمكن إقناع إيناس بأن أخذ ابنها منها هو الأفضل.»

– «أقنعها إذن على الأقل بأن تتركه بدون دموع وتهديدات، بدون أن تقلقه. لأنه لا بد أن يأتي بطريقة أو أخرى. القانون هو القانون.»

– «قد يكون الأمر كذلك، لكنْ هناك اعتباراتٌ أسمى من طاعة القانون، ضروراتٌ أسمى.»

– «هل هناك حقًّا؟ لا أعرف، بالنسبة لي، شكرًا، القانون كافٍ.»

٢٩

انصرف الموظَّفان. وانصرف يوجينيو. وانصرف السائق أيضًا، ولم تكتمل مهمته. يُترَك مع إيناس والولد، آمنا في الوقت الحالي خلف الباب المغلَق لشقته القديمة. وعاد بوليفار، وقد أنجز مهمته، إلى موضعه أمام شبكة التبريد، ومِن هناك يراقب وينتظر برزانة، وأذناه تنصتان للدخيل التالي.

يقترح: «هل يمكن أن نجلس ونناقش الوضع بهدوء، نحن الثلاثة؟»

تهزُّ إيناس رأسها: «لم يعُد هناك وقتٌ لمزيد من المناقشات. سأتصل بدييجو وأطلب منه أن يأتي ليأخذنا.»

– «يأخذكما ويذهب بكما إلى البنسيون؟»

– «لا. سننطلق بالسيارة حتى نكون أبعدَ من متناول أيدي هؤلاء الناس.»

ليست هناك خطةٌ بعيدة المدى، ليس هناك تخطيطٌ بارع للهروب، هذا واضح جدًّا. يتعاطف معها، مع هذه المرأة المتصلبة التي تفتقر لروح الدعابة، وقد قلب في ليلةٍ حياتَها في حفلات التنس والكوكتيل رأسًا على عقب حين أعطاها الطفل؛ وتقلَّص مستقبلها الآن إلى الانطلاق في سيارة والعودة بلا هدف إلى الطرق حتى يملَّ أخواها أو تنتهي نقودهما، ولن يكون أمامها اختيار إلى أن تعود وتسلِّم حمولتها النفيسة.

يقول لديفيد: «ما رأيك، يا ديفيد، في العودة إلى بونتو أريناس، لبعض الوقت فقط — تعود وتُظهِر لهم كم أنت ذكي بأن تكون على قمة الفصل؟ تُظهِر لهم كيف يمكن أن تجمع أفضل من أي شخصٍ آخر، كيف يمكن أن تطيع القواعد وتكون ولدًا رائعًا. بمجرد أن يرَوا ذلك سيتركونك تعود إلى البيت، أعدُك. ثم يمكن أن تعيش حياةً عادية مرةً أخرى، حياة ولدٍ عادي. مَن يعرف، ربما ذات يوم يضعون لك لوحة في بونتو أريناس: ديفيد الشهير كان هنا.»

– «بم سأكون شهيرًا؟»

– «لا بد أن تنتظر وترى. ربما تكون ساحرًا شهيرًا. ربما عالم رياضيات شهيرًا.»

– «لا. أريد أن أذهب مع إيناس ودييجو في السيارة. أريد أن أكون غجريًّا.»

يلتفت مرةً أخرى لإيناس. «أتوسَّل إليك، يا إيناس، فكِّري مرةً أخرى. لا تمضي قدمًا في هذه الخطوة المتهوِّرة. لا بد أن هناك طريقةً أفضل.»

تَنتصِب إيناس. «هل غيَّرتَ رأيكَ مرةً أخرى؟ تريد أن أتخلى عن طفلي لغرباء — أتخلى عن نور حياتي؟ أي نوعٍ من الأمهات أنا في اعتقادك؟» وللولد: «اذهب واحزم أشياءك.»

– «انتهيت من حزمها. هل يمكن أن يأرجحَني سيمون قبل أن نذهب؟»

يقول سيمون: «لستُ متأكدًا من أنني أستطيع أن أؤرجِح أحدًا. لا أتمتَّع بقوتي القديمة، كما تعرف.»

– «قليلًا فقط. من فضلك.»

يشُقَّان طريقهما إلى الملعب. كانت تُمطر؛ كرسي الأرجوحة مبلَّل. يجفِّفه بكمه. يقول: «بضع دفعاتٍ فقط.»

يستطيع الدفع بيدٍ واحدة فقط؛ تتحرك الأرجوحة بالكاد. لكن الولد يبدو سعيدًا. يقول: «الآن دورك يا سيمون.» بارتياح يجلس في الأرجوحة ويسمح للولد بدفعه.

– «يسأل الولدُ: «هل كان لك أبٌ أمْ كان لك أبٌ روحي يا سيمون؟»

– «أنا متأكد تمامًا من أنني كان لي أب، وكان يدفعني على الأراجيح بالضبط كما تدفعني. كلنا لنا آباء، إنه قانون الطبيعة، كما أخبرتُك؛ لسوء الحظ، يختفي بعضهم أو يضيعون.»

– «هل كان يدفعك عاليًا؟»

– «إلى القمة.»

– «هل سقطْتَ؟»

– «لا أتذكر أي سقوط.»

– «ماذا يحدث حين تسقط؟»

– «على حسب. تُصاب بكدمة فقط إذا كنت محظوظًا. وإن كنت غيرَ محظوظ، يمكن أن تُصاب بكسرٍ في ذراع أو ساق.»

– «لا، ماذا يحدث حين تسقط؟»

– «لا أفهم. هل تقصد، بينما تسقط خلال الهواء؟»

– «أجل. هل يشبه الطيران؟»

– «لا، لا إطلاقًا. الطيران والسقوط ليسا الشيء نفسه. الطيور وحدها يمكن أن تطير؛ نحن البشر ثقالٌ جدًّا.»

– «لكن قليلًا فقط، حين تكون فوق، إنه يشبه الطيران، أليس كذلك؟»

– «أعتقد ذلك، إذا نسيتُ أنك تسقط. لماذا تسأل؟»

يبتسم الولد له ابتسامة مبهمة. «لأن.»

على السلَّم يقابلان إيناس متجهمة الوجه. تقول: «دييجو غيَّر رأيه. لن يأتي بعد ذلك. كنتُ أعرف أن ذلك قد يحدث. يقول علينا استقلال قطار.»

– «استقلال قطار؟ إلى أين؟ حتى نهاية الخط؟ لا. اتصلي بدييجو. أخبِريه بأن يُحضِر السيارة. سأقودها بدلًا منه. لا أعرف إلى أين نذهب، لكنني سآتي معكما.»

– «لن يُوافِق. لن يتخلى عن السيارة.»

– «ليست سيارته. إنها ملككم أنتم الثلاثة. أخبِريه بأنه استخدمها بما يكفي، وقد حان دورك الآن.»

بعد ساعة يحضُر دييجو، عابسًا، متحفِّزًا للشجار. لكن إيناس تقضي على تذمُّره. مرتدية بوتًا ومعطفًا، لم يرَها قط تتصرف بمثل هذا الاستبدادِ من قبلُ. بينما يقف دييجو بجوارها، ويداه محشورتان في جيوبه، ترفع حقيبةً ثقيلة على سقف السيارة وتربطها.

وحين يُقبِل الولد وهو يجسُّ صندوق أشيائه التي عثَر عليها، تهزُّ رأسها بحسم. تقول: «ثلاثة أشياء فقط، لا أكثر. أشياءُ صغيرة. اختَرْ.»

ينتقي الولد ساعةً آليةً مكسورة، وحجرًا فيه ندبةٌ بيضاء، وجدجدًا ميتًا في برطمان من الزجاج، وعظمةً جافة من صدر نورَس. بهدوء تلتقط العظمة بين إصبعَين وترميها بعيدًا. «والآن ارمِ الباقي في سلة القمامة.» يحدِّق الولد في ذهول. تقول: «الغجر لا يحملون متاحفَ معهم.»

في النهاية تمتلئ السيارة. يدخل سيمون بحذَر في الكرسي الخلفي، يتبعُه الولد، يتبعُه بوليفار، ويستقر على أقدامهما. يأخذ دييجو، وهو يقود بسرعةٍ شديدة، الطريق إلى البنسيون، حيث ينزل بدون كلمة، ويصفع الباب، وينصرف.

يسأل الولد: «لماذا دييجو غضبان بهذا الشكل؟»

تقول إيناس: «اعتاد أن يكون الأمير. اعتاد أن يتصرَّف على هواه.»

– «هل أنا الأمير الآن؟»

– «أجل، أنت الأمير.»

– «وأنت الملكة وسيمون الملك؟ هل نحن أسرة؟»

يتبادل هو وإيناس النظرات. يقول: «أسرة من نوعٍ ما. لا تحتوي الإسبانية على كلمة تصف بالضبط ما نحن فيه، لذا لنسمِّ أنفسنا: أسرة ديفيد.»

يسندُ الولد ظهره في المقعد الخلفي، ويبدو سعيدًا بنفسه.

يقود ببطء — يشعر بطعنة ألم في كل مرة يغير فيها السرعة — يترك البنسيون خلفه ويبدأ البحث عن الطريق الرئيسي إلى الشمال.

يسأل الولدُ: «إلى أين نحن ذاهبون؟»

– «إلى الشمال. هل لديك فكرةٌ أفضل؟»

– «لا، لكن لا أريد أن أعيش في خيمة، مثلما عشنا في ذلك المكان الآخر.»

– «بلستار؟ حقًّا، ليست فكرةً سيئة. يمكن أن نتجه إلى بلستار، ونأخذ سفينة ونعود للحياة القديمة. وحينها تنتهي كل مخاوفنا.»

– «لا! لا أريد حياةً قديمة، أريد حياةً جديدة!»

– «كنتُ أمزح فقط يا ولدي. لن يسمح مسئول الميناء لأي أحد بركوب سفينة والعودة للحياة القديمة. إنه صارمٌ جدًّا بخصوص ذلك. لا عودة. وهكذا إما حياة جديدة إما الحياة التي نحياها. أي اقتراحات يا إيناس، بشأن أين نجد حياةً جديدة؟ لا؟ لنواصل إذن ونرى ما يأتي.»

يعثرون على الطريق السريع إلى الشمال ويتبعونه، في البداية عَبْر الضواحي الصناعية في نوفيلا، ثم عَبْر الأرض الزراعية الجافة. يبدأ الطريق الانحناء في الجبال.

يُعلِن الولد: «أريد أن أتبرَّز.»

تقول إيناس: «ألا يمكن أن تنتظر؟»

– «لا.»

لا يُوجَد، كما يتضح، ورق تواليت. أي شيءٍ نَسيَت إيناس إحضاره أيضًا وهي تتعجَّل الرحيل؟

يسأل الولدَ: «هل معنا دون كيخوته في السيارة؟»

يومئ الولد.

– «هل تتنازل عن ورقة من دون كيخوته؟»

يهزُّ الولد رأسه.

– «سوف تُضطَر لأن تكون مؤخرتك قذرة. مثل غجري.»

تقول إيناس بصرامة: «يمكن أن يستخدم منديلًا.»

يتوقَّفون؛ يواصلون السير. يبدأ يُحب سيارة دييجو. قد لا تبدو جميلة، تدور بشكلٍ أخرق، لكن المحرِّك يبدو قويًّا جدًّا، طيعًا تمامًا.

من المرتفعات يهبطون إلى دغلٍ متعرِّج به منازلُ متناثرة هنا وهناك، مختلف جدًّا عن المخلَّفات الرملية جنوب المدينة. لامتداداتٍ طويلةٍ سيارتهم السيارة الوحيدة على الطريق.

يقابلون بلدة اسمها البحيرة الخضراء[١] (لماذا؟ – ليس هناك بحيرة)، حيث يملَئون التنك. تمُر ساعة، خمسون كيلومترًا كاملة، قبل الوصول إلى البلدة التالية. يقول: «الوقت يتأخر. ينبغي البحث عن مكانٍ نقضي الليل فيه.»

يهبِطون إلى الشارع الرئيسي. لا يرَون فندقًا. يتوقَّفون في محطة وقود. يسأل العاملَ: «أين نجدُ أقربَ مساكن؟»

يفركُ الرجل رأسه: «إذا كنتَ تريد فندقًا، فعليكَ الذهاب إلى نوفيلا.»

– «أتينا من نوفيلا للتو.»

يقول العامل: «لا أعرف إذن. يُعسكِر الناس عادةً في الهواء الطلق.»

يعودون إلى الطريق السريع، والليل يهبط.

يسأل الولدُ: «هل سنكون غجرًا الليلة؟»

يردُّ: «للغجر كرفانات. وليس معنا كرفان، هذه العربة الصغيرة الضيقة فقط.»

يقول الولد: «الغجر ينامون تحت الأسيجة.»

– «حسنًا جدًّا، أخبرنا بمجرد أن ترى سياجًا.»

ليس معهم خريطة. لا يعرف ما يكمُن أمامه على الطريق. ينطلقون في صمت. يُراقِب بحذَر. ينام الولد وذراعاه حول عنق بوليفار. ينظر في عينَي الكلب. يقول احرُسْه، مع أنه لا يتفوَّه بكلمة. تحدِّق فيه العينان الكهرمانيَّتان الباردتان، بدون أن يطرف له رمش.

يعرف أن الكلب لا يُحبه. لكن ربما لا يُحب الكلبُ أحدًا؛ ربما الحب خارج مجال قلبه. ما أهمية ذلك على أية حال، الحب، العشق، مقارنةً بالإخلاص؟

يقول لإيناس، متحدثًا بهدوء: «إنه نائم». ثم: «آسف لأنني من يأتي معك. ربما كنت تفضِّلين أخاك، أليس كذلك؟»

تهزُّ إيناس كتفَيها. «كنتُ أعرف دائمًا أنه سيخذلُني. لا بد أنه الشخصُ الأكثرُ أنانيةً في العالم.»

[١] البحيرة الخضراء: بالإسبانية في الأصل.

لأول مرة تنتقد أمامه أحد أخوَيها، لأول مرة تكونُ في صفه.

تواصل: «الحياة في البنسيون تجعل المرء أنانيًّا جدًّا.»

ينتظر المزيد — عن البنسيون، عن أخوَيها — لكنها قالت ما يكفي.

يقول: «لم أجرؤ قَطُّ أن أسأل، لماذا قبلتُ الولد؟ يوم التقينا، بدا أنك تنفرِين منا.»

– «كان أمرًا مفاجئًا جدًّا، مدهشًا جدًّا. أتيتُما من حيث لا أدري.»

– «كل الهبات العظيمة تأتي من حيث لا ندري. لا بُد أنك تعرفين ذلك.»

هل هذا صحيح؟ هل الهباتُ العظيمة تأتي حقًّا من حيث لا ندري؟ ماذا دفعه ليقول ذلك؟

تقول إيناس: «هل تعتقد حقًّا» (ولا يسَعُه إلا أن يسمعَ الشعورَ خلف كلماتها): «هل حقًّا أنني لم أكن أتوقُ لطفلٍ خاص بي؟ ماذا تعتقد أن يكون الحبس في البنسيون؟»

يستطيع الآن إعطاء الشعور اسمًا؛ مرارة.

– «ليس لديَّ فكرة عن ذلك. لم أفهم البنسيون قط أو كيف هبطتم هناك.»

لا تسمع السؤال، أو تعتقد أنه لا يستحق الردُّ.

يقول: «إيناس، اسمَحي لي أن أسأل للمرة الأخيرة: هل أنت متأكدةٌ من أن هذا هو ما تُريدين القيام به — الهروب من الحياة التي تعرفينها — وكل هذا لأن الطفل لا يتوافق مع مدرِّسه؟»

تصمت.

يتابع: «ليست حياةً مناسبةً لك، حياة الهروب. ولا تُناسِبُني. وبالنسبة للولد، يُمكِنه فقط الهروب لفترةٍ طويلة. عاجلًا أو آجلًا، حين يكبَر، يكون عليه أن يصنع سلامه مع المجتمع.»

تزمُّ شفتَيها. تحدِّق أمامها بغضب في الظلام.

يختم: «فكِّري في الأمر. فكِّري بجدية. وبصرف النظر عما تقرِّرينه، تأكَّدي، أنني سوف» — يتوقف، يقاوم الكلمات التي تريد أن تخرج — «أنني سوف أتبعُكِ إلى أطراف الأرض.»

تقول إيناس، متحدثة بهدوء وكان عليه أن يجتهد ليسمعها: «لا أريد أن ينتهي به الحال مثل أخويَّ. لا أريد أن يصبح كاتبًا أو معلِّم مدرسة مثل السنيور ليون. أريد أن يصنع شيئًا في حياته.»

– «أنا متأكد من أنه سيفعل. إنه طفلٌ استثنائي، بمستقبلٍ استثنائي. نعرف كلانا ذلك.»

تكشف الكشَّافات لوحةً ملوَّنة على جانب الطريق. كبائن[٢] ٥كم. وبسرعة بعد ذلك لوحة أخرى: كبائن ١كم.

الكبائن المعنية بعيدة عن الطريق، في ظلامٍ تام. يجدون المكتب؛ يخرج من السيارة ويطرُق على الباب. تفتحُه امرأةٌ ترتدي روبًا وتُمسِك بمصباح. تُخبِره بأن الكهرباء مقطوعة في آخر ثلاثة أيام. لا تُوجَد كهرباء، وبالتالي ليست هناك كبائنُ للإيجار.

تتحدَّث إيناس: «معنا طفل في السيارة. نحن مُنهَكون. لا نستطيع مواصلة السير طول الليل. أليست لديك شموع يمكن أن نستخدمها؟»

يرجع إلى السيارة، يهزُّ الطفل. «حان أن تستيقظ يا عزيزي.»

برشاقةٍ ينهض الكلب وينسل من السيارة، تدفَعُه الكتفان الثقيلتان مثل قشة.

يفركُ الولد عينَيه وهو نعسان. «هل وصلنا؟»

– «لا، ليس بعدُ. سنتوقف لقضاء الليل.»

على ضوء المصباح تقودهم المرأة إلى أقربِ كبينة. قليلة الأثاث لكنها تحتوي على سريرَين. تقول إيناس: «سنأخذها. هل هناك أي مكانٍ يمكن أن نحصُل منه على وجبة؟»

تردُّ المرأة: «الكبائن خدمةٌ ذاتية. لديك موقدُ غازٍ هناك.» تُوجِّه المصباح باتجاه الموقد. «هل أحضرتِ أية مؤن؟»

تقول إيناس: «معنا رغيفٌ وبعضُ عصير الفاكهة للطفل. لم يكن أمامنا وقتٌ للتسوق. هل يمكن أن نشتري طعامًا منك؟ ربما بعض اللحم أو السجق. ليس السمك. الولد لا يأكل السمك. وبعض الفاكهة. وأية كسرات لديك للكلب.»

تقول المرأة: «فاكهة. انقضى وقتٌ طويلٌ منذ رأينا الفاكهة آخر مرة. لكن هيا، لنرَ ما يمكن أن نجده.»

تخرج المرأتان، وتتركانهما في الظلام.

يقول الولد: «آكل السمك، لا آكله فقط إذا كانت له عيون.»

تعود إيناس بعُلبة فاصوليا، وعُلبةٍ يقول الملصق إنها كوكتيل سجق في محلول ملح، وليمونة، بالإضافة إلى شمعة وكبريت.

يسأل الولدُ: «وماذا عن بوليفار؟»

---

[٢] كبائن: بالإسبانية في الأصل.

– «سيكون على بوليفار أن يأكل خبزًا.»
يقول الولد: «يمكن أن يأكل سجقي. أكره السجق.»
يتناولون وجبةً زهيدةً على ضوء الشمعة، وهم يجلسون جنبًا إلى جنب على السرير.
تقول إيناس: «اغسل أسنانك، ونَم.»
يقول الولد: «لستُ متعَبًا. هل يمكن أن نلعب لعبة؟ هل يمكن أن نلعب الحقيقة أم العواقب؟»
إنه دوره في الرفض. «شكرًا يا ديفيد، لكن كان لديَّ عواقبُ كثيرة بالنسبة ليومٍ واحد. أحتاج إلى الراحة.»
– «هل يمكن إذن أن أفتح هدية السنيور داجا؟»
– «أية هدية؟»
– «قدَّم لي السنيور داجا هدية. قال إن عليَّ فتحها وقتَ الحاجة. الآن وقتُ الحاجة.»
تقول إيناس، متجنِّبة عينَيه: «قدَّم له السنيور داجا هديةً ليأخذها معه.»
– «إنه وقت الحاجة، هل يمكن إذن أن أفتحها؟»
يقول: «ليس هذا الوقت الحقيقي للحاجة، الوقت الحقيقي للحاجة لم يأتِ بعدُ، لكن أجل، افتَحها.»
يجري الولد إلى السيارة ويعود وهو يحمل كرتونة، يفتحها. تحتوي على روبٍ أسودَ من الساتان. يُخرِجه ويفكُّه. ليس روبًا بل عباءة.
تقول إيناس: «تُوجَد ملحوظة. اقرأها.»
يقرِّب الولد الورقة من الشمعة ويقرأ: ها هي عباءة الإخفاء السحرية. من يرتديها يسير في العالم غير مرئي. يصرخ ويرقص بهجة: «قلتُ لك! قلتُ لك إن السنيور داجا يعرف السحر!» يلفُّ العباءة حوله. إنها كبيرة جدًّا. «هل تراني يا سيمون؟ هل أنا مَخفيٌّ؟»
– «ليس تمامًا. ليس بعدُ. لم تقرأ الملحوظة كلها. اسمع: تعليمات لمن يرتديها. لتحقيق الإخفاء، على من يرتدي العباءة أن يرتديَها أمام مرآة، ثم يُشعِل النار في المسحوق السحري وينطق تعويذة السر. وعندئذٍ يتلاشى الجسد الأرضي ولا يتركُ وراءه إلا روحًا لا أثَر لها.
يلتفت إلى إيناس: «ما رأيك يا إيناس؟ هل نسمح لصديقنا الصغير بارتداء عباءة الإخفاء ونُطق تعويذة السر؟ ماذا إذا تلاشى في المرآة ولم يعُد أبدًا؟»
تقول إيناس: «يمكنك ارتداء العباءة غدًا. الوقت متأخر جدًّا الآن.»
يقول الولد: «لا! سأرتديها الآن! أين المسحوقُ السحري؟» ينقِّب في الصندوق، ويُخرِج برطمانًا من الزجاج. «هل هذا هو المسحوق السحري يا سيمون؟»

يفتح البرطمان ويشمُّ المسحوقَ الفضي. ليس له رائحة.

على حائط الكابينة مرآةٌ كبيرة، ملوَّثة بفضلات الذباب. يضع الولد أمام المرآة، ويزرِّر العباءة حتى العنق. تنزل في ثنايا ثقيلة حول قدميه. «ها: أمسك الشمعة بيد. وأمسك المسحوق السحري في الأخرى. هل أنت مستعدٌّ بالتعويذة السحرية؟»

يومئ الولد.

– «حسنًا جدًّا. انثُر المسحوق على لهب الشمعة وانطِق التعويذة.»

يقول الولد «تعويذة»، وينثُر المسحوق. يسقُط المسحوق في رذاذٍ سريع. «هل أنا لستُ مرئيًّا بعدُ؟»

– «ليس بعدُ. جرِّب المزيد من المسحوق.»

يغرس الولد لهب الشمعة في البرطمان. ينبعث نورٌ هائل، ثم تسُود ظلمةٌ تامة. تصرُخ إيناس؛ وهو نفسه يتراجع ولا يرى. يبدأ الكلب في النُّباح وكأنه أصابه مَس.

يأتي صوت الولد، ضعيفًا وقلقًا: «هل يمكن أن تراني؟ هل أنا غير مرئي؟»

لا يتكلم أحدٌ منهم.

يقول الولد: «لا أستطيع أن أرى. انقذني يا سيمون.»

يتلمَّس طريقه إلى الولد، يرفعُه من فوق الأرض، يركُل العباءة جانبًا.

يقول الولد: «لا أستطيع أن أرى. يدي تؤلمني. هل أنا ميِّت؟»

– «لا، بالطبع لا. لستَ غير مرئي ولستَ ميتًا.» يفتِّش على الأرض، يجد الشمعة، يُشعِلها. «أرِني يدَك. لا أري أيةَ إصابةٍ في يدك.»

– «إنها تؤلمني.» يمصُّ الولد أصابعه.

– «لا بد أنك لسعتَها. سأذهب وأرى إن كانت السيدة ما زالت مستيقظة. ربما تعطينا بعض الزبد ليخفِّف الحرق. يضعُ الولدَ في ذراعَي إيناس. تحتضنُه، وتقبِّله، وتضعه على السرير، وتُدندِن له بهدوء.

يقول الولد: «إنها مظلمة. لا أرى أي شيء. هل أنا داخل المرآة؟«

تقول إيناس: «لا، يا حبيبي، لستَ داخل المرآة، أنت مع أمك، وسيكون كل شيءٍ على ما يُرام.» تلتفت إلى سيمون. تهمس: «أَحضِر طبيبًا!»

يقول: «لا بُد أن فيها مسحوقَ ماغنسيوم. لا أفهم كيف يمكن لصديقك داجا أن يُعطيَ الطفل هديةً خطيرة بهذا الشكل. لكن إذن» — يتغلَّب عليه الحقد — «هناك الكثير الذي أفشَل في فهمه بشأن صداقتك مع ذلك الرجل. ومن فضلك أسكِتي الكلب — إنني مستاءٌ من نُباحه الجنوني.»

– «توقَّف عن الشكوى! افعل شيئًا. لا شأن لك بالسنيور داجا. اذهب!»

يغادر الكابينة، ويتبع المسار على ضوء القمر إلى مكتب السنيورة. يفكِّر في نفسه: مثل زوجَين قديمَين، لم نكن قَط معًا في سرير، ولا حتى قبلة، لكننا نتشاجر وكأننا متزوِّجان من سنوات!

٣٠

ينام الطفل بعمق، وحين يستيقظ يكون من الواضح أن بصره ما زال متأثرًا. يصف أشعة من النور الأخضر تمُر في مجال رؤيته، شلَّالات من النجوم. وبعيدًا عن الشعور بالضيق، يبدو الولد مفتونًا بهذه الظواهر.

يطرق على باب السنيورة روبلز. يقول لها: «تعرضنا لحادثة في الليلة الماضية. ابنُنا يحتاج إلى طبيب. أين أقربُ مستشفى؟»

– «نوفيلا. يمكن الاتصال بالإسعاف، لكنها تأتي من نوفيلا. من الأسرع أن تأخذه بنفسك.»

– «نوفيلا بعيدة تمامًا. ألا يُوجَد طبيب بالقرب من هنا؟»

– «يوجد جرَّاح في نويفا إسبيرانسا،[1] على بعد حوالي ستين كيلومترًا من هنا. سأبحث لك عن العنوان. الطفل المسكين. ماذا حدث؟»

– «كان يلعب بمادةٍ قابلة للاشتعال. اشتعلَت وأفقدَه الوهجُ بصرَه. اعتقدنا أن بصره سيعودُ في أثناء الليل لكنه لم يعُد.»

تُنقنِق السنيورة روبلز بتعاطف. تقول: «لآتِ وأُلقِ نظرة.»

يجدان إيناس مستعدةً للذهاب. الولد يجلس على السرير، يرتدي العباءة السوداء، وعيناه مغلقتان، وابتسامةٌ انشداه على وجهه.

يُعلِن: «تقول السنيورة روبلز إن هناك طبيبًا على بُعد ساعة بالسيارة من هنا.»

---

[1] الاسم بالإسبانية في الأصل، ويعني الأمل الجديد.

تركع السنيورة روبلز بثبات أمام الولد. «يا حبيبي، يقول أبوك إنك لا تستطيع أن ترى. هل هذا صحيح؟ ألا تستطيع أن تراني؟»

يفتح الولد عينَيه. يقول: «أستطيع أن أراك. تخرج من رأسك نجوم. إذا أغلقتُ عيني» — يُغلِق عينَيه — «أستطيع الطيران. أستطيع رؤية العالم كله.»

تقول السنيورة روبلز: «مدهش أن تستطيع رؤية العالم كله. هل تستطيع رؤية أختي؟ تعيش في مرجيليس، قُرب نوفيلا. اسمها ريتا. تُشبهُني، لكنها أصغرُ وأجمل.»

يقطِّب الولد ويركز. يقول في النهاية: «لا أستطيع أن أراها. يدي تؤلمني جدًّا.»

يوضِّح سيمون: «احترقَت أصابعه الليلة الماضية. كنتُ سأذهب إليكِ وأطلب منكِ بعض الزبدة لأضعها على الحرق، لكن الوقت كان متأخرًا جدًّا ولم أرغب في إيقاظك.»

– «سأُحضِر الزبدة. هل جرَّبتَ أن تغسلَ عينَيه بالملح؟»

– «إنه عمًى من النوع الذي يصيب المرء حين ينظر إلى الشمس. الملح لن يفيد. يا إيناس، هل نحن مستعدون للمغادرة؟ سنيورة، بكم ندين لك؟»

– «خمسة ريالات مقابل الكابينة وريالَين مقابل المؤن في الليلة الماضية. هل ترغب في بعض القهوة قبل المغادرة؟»

– «شكرًا لك، لكن ليس لدينا وقت.»

يأخذ يدَ الولد، لكن الولد يتخلص منه. يقول: «لا أريد أن أذهب. أريد أن أبقى هنا.»

– «لا يمكن أن نبقى. نحتاج إلى طبيب وتحتاج السنيورة روبلز إلى تنظيف الكابينة لزوارها القادمين.»

يطوي الولد ذراعَيه بإحكام، ويرفُض أن يتزحزح.

تقول السنيورة روبلز: «سأقول لك ماذا. اذهَب إلى الطبيب وفي طريق عودتِك أنت ووالدَيك يمكن أن تأتي وتقيم معي مرةً أخرى.»

– «ليسا والديَّ ولن نعود. نحن ذاهبون إلى الحياة الجديدة. هل تأتين معنا إلى الحياة الجديدة؟»

– «أنا؟ لا أعتقد ذلك، يا حبيبي. لطيفٌ منك أن تدعوني، لكن لديَّ أشياء كثيرة جدًّا أقوم بها هنا، وعلى أية حال أُصاب بدُوار في السيارات. أين ستجدون هذه الحياة الجديدة؟»

– «في إستيل ... في إستريليتا الشمالية.»[٢]

---

[٢] الاسم بالإسبانية في الأصل.

تهزُّ السنيورة روبلز رأسَها بارتياب. «لا أعتقد أنكم ستجدون الكثير من الحياة الجديدة في إستريليتا. لديَّ أصدقاءُ انتقلوا إلى هناك، ويقولون إنه أكثر مكانٍ مُمِل في العالم.»

تتدخَّل إيناس. تأمُر الولد: «هيا. إذا لم تأتِ فسأُضطَر إلى حملك. سأعُد إلى ثلاثة. واحد. اثنان. ثلاثة.»

بدون كلمة ينهَض الولد، يرفع ذيل عباءته، ويمشي بتثاقُل في الطريق إلى السيارة. متجهمًا يأخذ مكانه في المقعد الخلفي. ويقفزُ الكلب في السيارة بعدَه بسهولة.

تقول السنيورة روبلز: «ها هي الزبدة. ادهنها على الأصابع المصابة ولُفَّ منديلًا حولها. وسيخفُّ الحرقُ بسرعة. أيضًا، ها هي نظَّارةٌ سوداء لم يعُد زوجي يلبَسُها. البَسْها حتى تتحسَّن عيناك.»

تُلبِس الولدَ النظَّارة. إنها كبيرةٌ جدًّا، لكنه لا يخلعُها. يودعونها ويأخذون الطريق إلى الشمال.

يُلاحِظ: «لا ينبغي أن تُخبِر الناسَ بأننا لسنا والدَيك. أولًا، هذا غيرُ صحيح. وثانيًا، قد يعتقدون أننا نخطفُك.»

– «لا أهتم. لا أحبُّ إيناس. لا أحبُّك. أحبُّ الأخوَّة فقط. أريد أن يكون لي أخوَّة.»

تقول إيناس: «مزاجك سيِّئ اليوم.»

لا يهتَم الولد. من خلال النظَّارة السوداء التي قدَّمَتها له السنيورة يحدِّق في الشمس، وقد أشرقَت تمامًا الآن فوق خط الجبال الزرقاء البعيدة.

تظهَر لوحة على الطريق: إستريليتا الشمالية ٤٧٥كم، نويفا إسبيرانسا ٥٠كم. يقف بجوار اللوحة شخصٌ يتنقل بالأتوستوب، شابٌّ يرتدي معطفًا أخضر زيتونيًّا وحقيبةَ ظَهر عند قدمَيه، يبدو وحيدًا جدًّا في المشهد الطبيعي الخالي. يُبطِئ.

تقول إيناس: «ماذا تفعل؟ ليس لدينا وقتٌ لالتقاط غرباء.»

يقول الولد: «نلتقط من؟»

في المرآة الخلفية يرى الشخص الذي يتنقل بالأتوستوب يُهروِل باتجاه السيارة. بشعورٍ بالذنب يُسرِع مبتعدًا عنه.

يقول الولَد: «نلتقط مَن؟ عمَّن تتحدثان؟»

تقول إيناس: «مجرَّد رجلٍ يتسوَّل توصيلة. ليس لدينا مكانٌ في السيارة. وليس لدينا وقت. علينا أن نصل بك إلى طبيب.»

– «لا! إذا لم تتوقف فسوف أقفز من السيارة!» ويفتح أقرب باب له.

يُفرمِل سيمون بقوة ويُطفِئ المحرِّك. «لا تفعل ذلك مرةً أخرى أبدًا! يمكن أن تسقُط وتقتُل نفسك.»

– «لا أهتم! أريد أن أذهب إلى الحياة الأخرى! لا أريد أن أكون معك أنت وإيناس!»

يخيِّم الصمت في ذهول. تحدِّق إيناس في الطريق أمامها. تهمس: «لا تعرف ما تقوله.»

صوت خطوات، ويظهر وجهٌ بلحية في نافذة السائق. يلهث الغريب «شكرًا لك!» يفتح البابَ الخلفيَّ فجأة. يقول «أهلًا أيها الشاب!» ثم يتجمَّد والكلب، مُتمدِّدًا على المقعد بجوار الولد، يرفع رأسه ويتذمَّر بصوتٍ منخفض.

يقول: «يا له من كلبٍ ضخم! ما اسمه؟»

– «بوليفار. إنه ألزاسي. اهدأ يا بوليفار!» يُكافِح الولد، وهو يلفُّ ذراعَيه حول الكلب، ليُنزلَه من فوق الكرسي. على مضضٍ يستقر الكلب على الأرضية عند قدمَيه. يحتل الغريب مكانه؛ تمتلئ السيارة فجأةً بالرائحة الكريهة للملابس غير المغسولة. تفتح إيناس نافذتها.

يقول الشاب: «بوليفار. إنه اسمٌ غير معتاد. وما اسمك؟»

– «لم أحصُل على اسم. ما زال عليَّ أن أحصُل على اسمي.»

يقول الشاب: «سأدعوك إذن السنيور أنونيمو.[٣] تحياتي، سنيور أنونيمو، أنا خوان.» يمُد يدًا، يتجاهلُها الولد. «لماذا ترتدي عباءة؟»

– «إنها سحرية. تجعلني غير مرئي. أنا غير مرئي.»

يتدخَّل. «تعرَّض ديفيد لحادثة، ونأخذه إلى طبيب. أخشى أننا لا يمكن أن نُوصلكَ إلا إلى نويفا إسبيرانسا.»

– «لا بأس.»

يقول الولَد: «حرقتُ يدي. ونحن ذاهبون للحصول على دواء.»

– «هل تؤلمك؟»

– «أجل.»

– «أنا معجَب بنظَّارتك. أتمنَّى أن يكون عندي نظَّارة مثلها.»

– «يمكنك أن تأخذها.»

---

[٣] بالإسبانية في الأصل، أي السيد المجهول الاسم.

بعد رحلة في برودة الصباح المبكِّر على ظهر شاحنة تحمل الخشب، مسافرهم سعيد بالدفء والراحة في السيارة. يتضح من ثرثرته أنه يعمل في تجارة أدوات الطباعة، وهو في طريقه إلى إستريليتا؛ حيث له أصدقاء وحيث، إذا صدقنا الشائعات، هناك الكثير من الأعمال التي يُمكِن القيام بها.

عند المنعطَف إلى نويفا إسبيرانسا يتوقَّف ويسمح للوافد الجديد بالنزول.

يسأل الولدُ: «هل نحن عند الطبيب؟»

– «ليس بعدُ. هنا ننفصل عن رفقة صديقنا. سيُواصِل رحلته باتجاه الشمال.»

– «لا! ينبغي أن يبقى معنا!»

يُخاطِب خوان. «هل يُمكِن أن نتركَكَ هنا أم تأتي معنا إلى البلدة؟ الاختيار لك.»

– «سآتي معكم.»

يجدون الجرَّاح بدون صعوبة. الدكتور جراسيا في الخارج في زيارةٍ منزلية، كما تُخبرهم الممرضة، لكن أهلًا بهم في الانتظار.

يقول خوان: «سأذهب للبحث عن فطور.»

يقول الولد: «لا، لا ينبغي أن تذهب. سوف تتوه.»

يقول خوان: «لن أتوه.» يدُه على مقبض الباب.

يصيح الولد: «ابقَ، آمرك!»

يوبِّخ سيمون الطفل: «ديفيد! ماذا اعتراك هذا الصباح؟ لا تتحدث مع غريبٍ بهذا الشكل!»

– «ليس غريبًا. ولا تُنادِني بديفيد.»

– «بمَ أُنادِيك إذن؟»

– «ينبغي أن تُناديَني باسمي الحقيقي.»

– «وما هو؟»

يصمتُ الولد.

يخاطب خوان. «لا تتردَّد في أن تذهب للاستكشاف. سوف نُقابِلك هنا.»

يقول خوان: «لا، أعتقد أنني سأبقى.»

يظهَر الطبيب، رجلٌ قصيرٌ قويٌّ مفعَم بالحيوية ولديه كتلة من الشعر الفضي. يحدِّق فيهم بذعرٍ زائف. «ما هذا؟ وكلب أيضًا! ماذا يمكن أن أفعل لكم جميعًا؟»

يقول الولد «حرَقتُ يدي. وضعَت السيدة زبدة عليها، لكنها ما زالت مؤلمة.»

– «لأرَى ... أجل، أجل ... لا بد أنها مؤلمة. لندخُل إلى الجِراحة ونرَ ما يُمكِن فِعلُه.»

تقول إيناس: «دكتور، ليست اليد سببَ وجودنا هنا. تعرَّضنا لحادثة في الليلة الماضية بالنار، والآن ابني لا يرى بشكل صحيح. هل يمكن أن تفحص عينَيه؟»

– «لا!» يصرخ الولد، وينهض ليُواجه إيناس. ينهض الكلب أيضًا، ويسير عَبْر الغرفة، ويأخذ مكانه بجانب الولد. «أظل أقول لك، إنني أستطيع أن أرى، فقط لا تستطيعين رؤيتي بسبب عباءة الإخفاء السحرية. تجعلُني غير مرئي.»

يقول الدكتور جراسيا: «هل يُمكِن أن ألقي نظرة؟ هل يسمح لي حارسك؟»

يضع الولد يدًا كابحةً على طَوق الكلب.

يرفع الطبيب النظارة السوداء من على أنف الولد. يسأل: «هل ترى الآن؟»

– «أنت ضئيل، ضئيل، مثل نملة وأنت تلوِّح بذراعَيك وتقول، هل يُمكِن أن ترى الآن؟»

– «آه، فهمت الصورة. أنت غير مرئيٍّ ولا أحد منا يستطيع رؤيتك. لكن يدك تؤلمك أيضًا، ويتصادف أنها ليست غير مرئية؛ وبالتالي هل يمكن أن ندخُل أنا وأنت إلى غرفة الجراحة، وتسمح لي بإلقاء نظرة على اليد — إلقاء نظرة على الجزء المرئي منك؟»

– «حسنًا.»

تقول إيناس: «هل آتي أيضًا؟»

يقول الطبيب: «بعد قليل. في البداية لا بد أن نقول الفتى وأنا كلمةً خاصة.»

يقول الولد: «ينبغي أن يأتي معي بوليفار.»

يقول الطبيب: «قد يأتي بوليفار معك طالما يتصرَّف بشكلٍ لائق.»

يسأل خوان، حين يكونان وحدهما: «مذا حدث بالفعل لابنك؟»

– «اسمه ديفيد. كان يلعب بالماغنسيوم، وقد أمسَك بالنار وأعماه الوميض.»

– «يقول إن اسمه ليس ديفيد.»

– «إنه يقول أشياء كثيرة. له خيالٌ خصب. ديفيد هو الاسم الذي أُعطِي له في بلستار. إذا أراد أن يتخذ اسمًا آخر، فليفعل.»

– «هل أتيتم من خلال بلستار؟ أتيتُ أنا أيضًا من خلال بلستار.»

– «تعرف إذن كيف يعمل النظام. الأسماء التي نستخدمها أسماءٌ مُنحَت لنا هناك، لكن قد نُمنَح أيضًا أرقامًا. الأرقام — الأسماء — اعتباطية بالقَدْر نفسه، عشوائية بالقَدْر نفسه، غير مهمة بالقَدْر نفسه.»

يقول خوان: «بالفعل، ليست هناك أرقامٌ عشوائية. تقول «فكِّر في رقم عشوائي»، وأقول «٩٦٥١٣»؛ لأنه أول رقمٍ يأتي إلى ذهني، لكنه ليس عشوائيًّا في الحقيقة، إنه رقمي في هيئة المعونة أو رقم تليفوني القديم أو شيءٌ من هذا القبيل. هناك دائمًا سببٌ وراء الرقم.»

– «هكذا أنت شخصٌ آخر من متصوِّفة الأرقام! ينبغي أن تؤسِّس أنت وديفيد مَدْرسةَ معًا. يُمكِنك أن تدرس الأسباب السرية خلف الأرقام ويُمكِنه أن يعلِّم الناس الانتقال من رقمٍ إلى التالي بدون أن يسقطوا في بركان. بالطبع لا تُوجَد أرقامٌ عشوائية تحت عين الرب. لكننا لا نعيش تحت عين الرب. في العالم الذي نعيش فيه تُوجَد أرقامٌ عشوائية وأسماءٌ عشوائية وأحداثٌ عشوائية، مثل أن تلتقطك سيارة تضم رجلًا وامرأة وطفلًا اسمه ديفيد. وكلبًا. ماذا كان السبب السري وراء ذلك الحدث، في اعتقادك؟»

قبل أن يتمكَّن خوان من الرد على كلامه يُفتَح باب غرفة الجِراحة فجأة. يقول الدكتور جارسيا: «ادخل من فضلك.»

يدخل هو وإيناس. يتردَّد خوان، لكن الصوت الغض الواضح للولد يرتفع من الداخل: «إنه أخي، لا بد أن يأتي أيضًا.»

يجلس الولد على حافة أريكة الطبيب، وابتسامة ثقة صافية على شفتَيه، والنظارة السوداء موضوعة على قمة رأسه.

يقول الدكتور جارسيا: «دار بين صديقنا الصغير وبيني حديثٌ طويلٌ طيب. وضَّح لي كيف يفكِّر في أنه غير مرئي لنا، ووضَّحتُ له كيف أننا نبدو له مثل حشراتٍ نلوِّح بقرون استشعارنا في الهواء بينما يطير عاليًا. أخبرتُه بأننا نفضِّل أن يرانا كما نحن حقًّا، وليس كحشرات، وبدَوره أخبرني أنه حين يصبح مرئيًّا يودُّ أن نراه كما هو حقًّا. هل هذه رواية منصفة، أيها الفتى، لمحادثتنا؟»

يومئ الولد.

– «يقول صديقنا الصغير بالإضافة إلى ذلك إنك» — ينظر نظرةً ذات مغزًى إلى سيمون — «لستَ أباه الحقيقي، وأنت» — يلتفت إلى إيناس — «لست أمه الحقيقية. لا أطلب منكما الدفاع عن نفسَيكما. لديَّ أسرة، وأعرف أن الأطفال يمكن أن يقولوا أشياءَ غريبة. ومع ذلك، هل هناك أي شيءٍ تودَّان قولَه لي؟»

تقول إيناس: «أنا أمه الحقيقية، ونحن نُنقِذه من الالتحاق بمدرسةٍ إصلاحيةٍ حيث يتحوَّل إلى مجرم.»

وقد انتهت من كلامها، تُغلِق شفتيها وتُحملِق بتحدٍّ.

يستفسر سيمون: «وعيناه، يا دكتور؟»

– «لا عيب في عينَيه. قمتُ بفحصٍ جسدي واختبرتُ بصره. بالنسبه لأعضاء البصر عيناه طبيعيتان تمامًا. وبالنسبة ليده، وضعتُ عليها ضِمادة. الحرق ليس خطيرًا، سوف يتحسَّن في يوم أو اثنَين. الآن اسمحوا بأن أسأل: هل ينبغي أن أهتم بالقصة التي يرويها لي هذا الفتى؟»

ينظر إلى إيناس: «عليك أن تقومَ بمهمتك تجاه ما يقوله الولد. إذا كان يقول إنه يريد أن يبعُد عنا ويعود إلى نوفيلا، أعِدْه إلى نوفيلا. إنه مريضُك، في رعايتك.»

يلتفتُ إلى الولد. «هل هذا ما تريده يا ديفيد؟»

لا يرُد الولد، لكنه يُشِير له ليقترب. يكوِّر الولد يده، ويهمسُ في أذنه.

– «يا دكتور، يُخبرني ديفيد بأنه لا يريد أن يعود إلى نوفيلا، لكنه يريد أن يعرف ما إن كنتَ ستأتي معنا.»

– «آتي إلى أين؟»

– «الشمال، إلى إستريليتا.»

يقول الولد: «إلى الحياة الجديدة.»

– «وماذا عن مرضاي الذين يعتمدون عليَّ هنا في إسبيرانسا؟ من يهتم بهم إذا تخلَّيتُ عنهم لأهتم بك فقط؟»

– «لا تحتاج إلى أن تهتم بي.»

ينظر الدكتور جارسيا إلى سيمون، نظرةً غامضة. يأخذ نفَسًا عميقًا. «يقترح ديفيد أن تتخلى عن عملك وتأتيَ معنا إلى الشمال لتبدأ حياةً جديدة. لمصلحتك، وليس لمصلحته.»

ينهض الدكتور جارسيا. «آه، أفهم! كرمٌ هائلٌ منك، أيها الرجل الصغير، أن تضعَني في خطَطِك. لكن حياتي هنا في إسبيرانسا سعيدة ومرضيةٌ جدًّا. ليس هناك ما أريد إنقاذي منه، شكرًا لك.»

إنهم في السيارة مرةً أخرى، يتجهون شمالًا. الولد بروحٍ حماسية، نسي ألمَ يده. يُثرثِر مع خوان، يُشاكِس مع بوليفار في المقعد الخلفي. ينضم إليه خوان أيضًا، رغم أنه حَذِر من الكلب، لكنه ودودٌ معه.

يستفسر سيمون: «هل أحببتَ الدكتور جارسيا؟»

يقول الولد: «إنه على ما يُرام. له شعر على أصابعه كما لو كان ذئبًا.»

– «لماذا كنتَ تريدُ أن يأتي معنا إلى إستريليتا؟»

– «لأن.»

تقول إيناس: «لا يمكنك أن تدعو كل غريبٍ نقابله إلى أن يأتي معنا.»

– «لماذا لا؟»

– «لأنه ليس هناك مكانٌ في السيارة.»

– «هناك مكان. يمكن أن يجلس بوليفار على حجري، أليس كذلك يا بوليفار؟» وقفة. «ماذا نفعل حين نصل إلى إستريليتا؟»

– «ما زال الطريق طويلًا إلى إستريليتا. اصبِر.»

– «لكن ماذا نفعل هناك؟»

– «نبحث عن مركز إعادة التوطين ونقدِّم أنفسنا عند المكتب، أنت وإيناس وأنا، و...»

– «وخوان. لم تقُل خوان. وبوليفار.»

– «أنت وإيناس وخوان وبوليفار وأنا، ونقول، صباح الخير، نحن وافدون جُدُد، ونبحث عن مكانٍ نقيم فيه.»

– «و؟»

– «هذا كل ما في الأمر. نبحث عن مكانٍ نقيم فيه، ونبدأ حياتنا الجديدة.»


هنداوي